مجلة قاريونس العلمية
تعنى بمختلف فروع المعرفة الإنسانية والتطبيقية
تصدر باللغة العربية

مجلة قاريونس العلمية

تعنى بمختلف فروع المعرفة الإنسانية والتطبيقية

تصدر باللغة العربية

السنة الثانية - العدد الرابع

هيئة التحرير

☆ د. الهادي أبولقمة : رئيساً

☆ د. سعد بن حميد : عضواً

☆ د. أحمد شمبش : عضواً

☆ د. محمد مصطفى سليمان : عضواً

☆ د. محمد خليفة الدناع : عضواً

☆ د. أبو القاسم الطبولي : عضواً

☆ أ. عبد الرحمن الشريدي : مقرراً

المراسلات والمقالات : مجلة قاريونس العلمية - جامعة قاريونس

ص.ب : ١٣٠٨ برقيا 40175 هاتف : ٢٠١٤٨

محتويات العدد

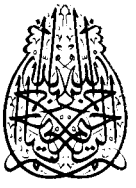

رقم الصفحة

☆ كلمة العدد 5
أسرة التحرير

☆ اتجاهات وأساليب علم اللغة في القرن العشرين 7
د . محمد عبد الرضي قدوح

☆ المكتبات وتطورها 31
د . يونس عزيز

☆ المنهج العلمي في التراث العربي 44
د . محمد خليفة الدنّاع

☆ العروبية وأسماء الأعداد (البربرية) 52
د . علي فهمي خشيم

☆ وثائق غير منشورة عن الثورات الداخلية في ليبيا (1836 - 1858 م) 66
د . إبراهيم أحمد المهدوي

☆ أثر التجارة الخارجية على حصة الفرد من التمور في الأقطار العربية 84
د . ماهر النقيب

☆ الرواية الشفهية والمصادر المدوّنة في كتابة التاريخ/الجزء الأول ... 105
د . ميلاد المقرحي

☆ استلهام التراث في شعر ابن درّاج القسطلي 121
د . عبد الرحمن عطبة

اتجاهات وأساليب علم اللغة في القرن العشرين

د. محمد عبد الرضي قدّوح
جامعة قاريونس — كلية اللغات

الأسلوب التاريخي المقارن :

يعتبر العالم الفرنسي أ . مايي من الرواد الأوائل في هذا الاتجاه . فبرأيه أن الدراسة التاريخية المقارنة تحقق هدفين هامين في البحث اللغوي : فهي تكشف عن القوانين العامة ، وتوصل إلى معلومات تاريخية تساعد على دراسة تاريخ اللغة أو اللغات المتقاربة . ولدى مقارنة اللغات يقتضي أخذ مجموعة عناصر ، ولا يجوز الاعتماد على المصادفة أو على الأمثلة النادرة والقليلة . يتوجب كذلك على الباحث مقارنة الأصوات والنحو والتركيب والمفردات بشكل عام ، وللحصول على نتائج صحيحة يُطلب من الباحث ، بواسطة هذا المنهج ، أن يقابل بين الكلمات والأشكال والصيغ الأكثر قدماً ، لأن اللغات المتقاربة قد تكون ناشئة من لغة واحدة . وقد يكون من الضروري مقابلة مجموعة من هذه اللغات المتقاربة من أجل إثبات الصلات والمميزات الخاصة . إن مقابلة لغتين فقط قد لا تعطي النتائج المرجوة ، وربما تُضِل الباحث عن الحقيقة ، فلدى مقارنة ما يسمى باللغات « السامية » يستحسن مقابلة العربية والإثيوبية والعبرية والسريانية والآرامية . وكلما تعمقنا في المقارنة بين هذه اللغات واللغات الأكثر قدماً كالفينيقية والآشورية والسومرية والمصرية القديمة وغيرها كلما وصلنا إلى نتائج أصح وأدق .

ولدى مقارنة اللغات المشتقة عن اللاتينية والجرمانية والسلافية يستحسن إجراء المقارنة مع اللغات الأكثر قدماً ، مثل اللاتينية والإغريقية والسنسكريتية وغيرها من اللغات المشتقة عن الهندية . وعلى سبيل المثال ، لو أخذنا كلمات تدل على المعنى وضده في العربية نرى أنها تدل على أحد المعنيين في العبرية أو السريانية . فمن العربية مثلاً : الهَدْر (القاموس المحيط) الهَدْر والهادِر بمعنى الساقط . في العبرية : (هَدُور) بمعنى فخم ، بهي ، جليل . من السريانية بهي سني . ولدى مقارنة كلمات عديدة في العبرية والآرامية والسريانية والعربية نرى أن بعض الأصوات قد تحولت إلى أصوات متشابهة في اللغات الأخرى وبقيت المعاني واحدة . وبالطبع إن مثل هذه الظاهرة تدل على علاقة القرابة البعيدة بين هذه اللغات (أَخَل) من العبرية (أَخَل) . من الآرامية إخَل . من السريانية أكَل . من العربية . ويلاحظ في هذه الأمثلة تغير حرف الوسط خ — ك . أما في الكلمات التالية : فرد من العبرية فَرْدا من الآرامية وَردا من السريانية وَرْد من العربية يلاحظ تغير الحرف الأول من الكلمة ف — و ، ولدى مقارنة بعض الكلمات من الروسية الحديثة beReg شاطىء Zoloto ذهب مع مثيلاتها من السلافية القديمة Zloto. bReg يظهر بوضوح التغير الصوتي eRe - Re, olo - lo .

ويمكننا رؤية هذه القرابة إذا قارنا مجموعة من اللغات « السامية » القديمة والحديثة ، ولتصح المقارنة يجب أن نحدد مجموعة من الكلمات المفترض منطقياً أن تكون أكثر استعمالاً في العصور القديمة وأقل تغيراً مع البعد الزمني . كأن تقارن مثلاً مجموعة من الكلمات الدالة على القرابة والنسب أو أعضاء الجسم أو مظاهر الطبيعة وأسماء الحيوانات المعروفة في المنطقة الجغرافية المعينة أو مقابلة الأعداد والضمائر وأسماء الإشارة وغيرها :

عربي	آشوري — بابلي	عبري	سرياني	لغات جنوب شبه الجزيرة والحبشة
أبٌ	أبو	أب	أبا	أب
ابنٌ	بنو	بن ben	برا bra	بن
أخٌ	أخو	أح	أحا eha	أخو ehu

عربي	آشوري — بابلي	عبري	سرياني	لغات جنوب شبه الجزيرة والحبشة
أمّ	أمو	أم em	أما ema	أمّ
وَلد ، يَلِد	وُلِد	يَلدَ yeled	ايلد ، يَلد	وَلد يلد
رأس	رشو Rešu	روش roš	ريشا	راس
شعر	شرنو	سعر seEaR	سَعْرا	سعرت
عين	أنو enu	عَينَ	عَينا	عَين
أُذُنٌ	أُزنُو	أُزن Ozen	أودنا	أزن ezn
أنف	أبو	أف	أبّايا	أنف
فم	يُو	به beh	بوما	أف
سِنٌّ	شِنو	شن šen	شنا šena	سن sen
لسانٌ	ليشانو	لشون lašon	لَشنا lešana	لسان lesan
يد	إدُو	يَد	إيدا	أد
كَبِدٌ	كبتو	كِبد	كَبْدا	كبد
كرشٌ	كَرْشو	كَرس keRes	كرْسا	كَرْش
دمٌ	دَمُو	دَم	دما	دم
عظم	عصمتو Easemtu	عصم Eeṣem	عطما	عضم
يومٌ	أُمنو	يوم Yom	يوما	يوم Yom
ليلٌ	ليتُو	لَيْلَه lel	ليليا lelya	ليله
أرض	أرصتو eRṣetu	ارص ereṣ	اوعا اوفا	ارض
كوكبٌ	كاكُبو	كوكب kokab	كَوكَبا	كوكب
سماءٌ	شَمُو	شمايم	شَمَايا	سَماي
ظِلٌّ	صلو	صَل ṣel	صلا	صلّلوت
جملٌ	جملو	جَمَل	جَمْلا	جَمل
حِمار	إمْور	حمور ḥmor	حمارا	حمار
كَلبٌ	كَلْبُو	كلب keleb	كلبَا	كلب
ثورٌ	شورو	شور šoR	تورا	سور soR
خِنْزيرٌ	خمسر	خزير	خزيرا	خنزير
ذئب	ريبو	زاب zeb	دابا deba	زاب Zeb

مقارنة الضمائر وأسماء الإشارة[1]

عربي	بابلي — آشوري	عبري	آرامي	سبئي معيني	حبشي
أنا	anaku	anohi, ani	ena, (eno)	ana	ana
أنتَ ، أنتما	atta	atta	atta (ant)	anta	anta
أنتِ ، أنتما	atti	att, (atti)	att (anti)	anti	anti
هو ، هما	Su	hu	hu	hua	we étu
هي ، هما	Si	hi	hi	hia	ye, étu
نحن	aninu	anḥnu	enna, ḥnan	naḥnu	neḥ na
نحن	naḥnu		ḥnan	naḥnu	neḥna
أنتم ، أنتما	attumu	attem, attema	attun	?	antemmu
أنتن ، أنتما	attina	atten, attena	atten	?	anten
هم ، هما	sunu	henna, hem	enoun henoun	hamu	emuntu we'etomu
هن ، هنّ	Sina	hena, hen	enenen henen	huna	emuntu we'eton
ذا . هو	Suatu	Ze	hona	Zan	Ze
—	Satu	Hallaze	—	—	—
ذه ، هذه ، ذات	siati	Zot	hode	Zat	Za
ذلك	ulu	hahou	hau	hua	Zeku, Zekuetu
تلك	ullitu	hahi	hoi	hia	entakti, enteku
أولاء . هؤلاء	ulluti	hahen	holen		ellektu, ellekuetu

(1) انظر الدكتور ربحي كمال ، اللغة العبرية ص 16 - 18 .
أ . ولفيسون (أبو ذؤيب) . تاريخ اللغات السّامية . بيروت دار العلم 1980 .

عربي	بابلي — آشوري	عبري	آرامي	لغات جنوب الجزيرة
إثْنَتَان	ثنينا	ثنايم	ثْرين	سِنيت
ثلاثٌ	شَلاشو	شَلْوش	ثْلاثْ	شلاّس
أَرْبَعٌ	أَرْبَعُو	أَرْبَع	أَرْبَع	أَرْبَع
خَمْسٌ	خَشنُو	حَمش	حَميشا	خَمْس
ستْ	شيشو	شيشْ	شْتَا	سسو
سبع	سِبُو	شبَعْ	شْبَعْ	شَبْعُو
ثمان	شَمَانُو	شمْونه	ثْمَانا	سَمَاني
تسعٌ	شيشو	تشَعْ	ثْشَعْ	تشْعُ
عشر	عشْرُو	عسر	عْسَرْ	عَشْرُو

وقد تتضح صلة القرابة إذا قارنا بعض الكلمات في اللغات المنتمية للهندو أوروبية فكلمة « واحد » في الإيطالية والفرنسية un, une وفي الإسبانية uno, una وفي الروسية odin, odna والبلغارية edin وفي الانكليزية والألمانية One . وكلمة « عسل » في السنسكريتية madhu والانكليزية القديمة medu والسلافية القديمة medu والألمانية القديمة metu . وكلمة « حاجب » في السنسكريتية bhaRu والانكليزية القديمة bru وفي الروسية brov . وكلمة « دخان » في السنسكريتية dhuma واللاتينية fumus واللتفية dumai والسلافية القديمة dymu . وكلمة « اسم » في السنسكريتية nama واللاتينية nomen والسلافية القديمةime[1] ، وهناك آلاف من الكلمات المشتركة في هذه اللغات . إذن فالأسلوب التاريخي المقارن يساعد على كشف النواحي الوراثية للغة ، ويسهل فهم مراحل تطورها . ويهتدي العلماء بواسطة هذه الطريقة إلى كشف جوانب هامة من تاريخ اللغات والشعوب . وقد أشار مايي إلى أن أهم سلاح في يد عالم اللغة ، لمعرفة تاريخ اللغة المعينة ، يعتبر المقارنة . والمقارنة قد تبدأ بالأصوات والتحقيق في تغيرها

(1) حول مقارنة اللغات الهندو أوروبية انظر سيميريني .

Oswald Szemerényi. Einfühuing in die vergleichende Sprach wissenschaft W. B. D. 1970.

من لغة لأخرى ، وفي المفردات والاشتقاق والصرف والنحو والنظم وغيرها . ففي اللغات « السامية » نرى أن الأصوات : ث ، س — ت ، ش ، تتناوب باستمرار ، وكذلك الأصوات ، ص ، ض ، ظ ، ط ، وهكذا : (انظر الأمثلة السابقة) ، وكذلك الحال في المجموعة الهندو أوروبية . ففي كلمة « ضيف » الجذر اللاتيني host والروسي gost يمكن القول بأن h تعادل g . إن مقابلة الأصوات تساعد بصورة خاصة في حال فقدان الآثار المكتوبة ، في فترات مختلفة ، كما هو الحال مع اللغة العربية . وبذلك فإن مقارنة الألفاظ والتحقيق في أشكال التبادل وغيرها من وسائل المقارنة تعطي نتيجة هامة في دراسة تاريخ اللغة . وقد تساعدنا المقارنة انطلاقاً من فهمنا لطبيعة كل لغة على تحديد مراحل التطور . فقد نتنبأ من خلال مقارنة ضمير الرفع المخاطب بأن النون في anti, 'anta هو خاص بالمجموعة الجنوبية للجزيرة العربية ، أي أنه خاص بالعربية والحبشية والسبئية — المعينية ، أما في البابلية — الآشورية والعبرية والآرامية يمكن إدغامه فيما بعده atti (atta) . إن مقارنة مثل هذه الحالات قد توضح فترات التطور من خلال مقارنة مجموعة ملاحظات متساوية توصل إلى تحديد اتجاه معين في حقبة معينة في التطور . أي إن الإدغام والتشديد والاتجاه نحو حله ، وإيجاد أصوات فاصلة تسهل عملية اللفظ ، كل ذلك ينبيء بأن هذه اللغات قد مرت بفترات مختلفة ، أي ما قبل التشديد ، ثم التشديد ، ثم إبطاله ثانية ، إن العربية الآن هي المرحلة المتطورة ، أي المرحلة الأخيرة في هذه العملية . وقد نرى أن التشابه القائم بين اللغات الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية كالتشابه بين العربية الفصحى والعربية الجنوبية والحبشية — الأثيوبية في بعض النواحي .

والأسلوب المقارن يساعدنا على معرفة اللغة الأم التي تفرعت عنها اللغات المتقاربة ، لأن عملية التغيير والتطور في اللغة تتم بشكل متنوع وجزئي . فهي لا تشمل اللغة بشكل عام ودفعة واحدة ، إنها عملية تطور بطيء يمكن مراقبة مراحلها عبر هذا الأسلوب الذي يعطينا أفضل النتائج من أجل فهم اللغات القديمة وأصولها المندثرة . ومن رواد هذا الاتجاه — كما قلنا — أنطوان مايي الفرنسي ، الذي أبدع في الدراسة المقارنة بادئاً بمقابلة اللغات الهندو أوروبية وواضعاً تقسيم اللغات إلى مجموعات وعائلات وقد كتب العديد من المؤلفات والمقالات في اللغات المختلفة . وأخذ يتخصص في اللغات السلافية . واستفاد كثيراً من دراسة اللغات القفقازية والأرمنية وغيرها . ولقد حرص

بسم الله الرحمن الرحيم

أعزاءنا القراء الكرام

نقدم إليكم العدد الرابع للسنة الثانية آملين أن يحظى باهتمامكم حتى نشعر أن هذا الجهد الذي يبذل – وإن كان متواضعاً – إلا أنه سيصل إلى ما يصبو إليه بفضل تشجيعكم ومشاركتكم الفاعلة ..

ونود أن نذكركم أن أسرة التحرير ترحب بنتاجكم العلمي لينشر في هذه المجلة لأنها مجلتكم ، فلقد أنشئت من أجل المساهمة في النهضة العلمية التي تشهدها أمتنا ، ومستمرة بمساندتكم لها بالملاحظة الهادفة والفكرة البناءة والبحوث الجادة والمقالات الموظفة لخدمة هذا المجتمع .

ولكم كل حبنا

أسرة التحرير

مايي على نهجه هذا في علم اللغة الاجتماعي رافضاً الاتجاهات الفاشية أو العرقية . ويمكن القول إن المدرسة الفرنسية تعتمد في الأساس التقاليد السابقة لمايي ، إلا أن أنطوان مايي يعتبر بحق العَلَم الأساسي لهذه المدرسة التي اختلفت عن بعض المدارس الأخرى في أوروبا وأمريكا . وقد درس اللغة بأسلوب تاريخي مقارن عدد كبير من العلماء الغربيين مثل : غريم وبوبّ وفرتوناتوف وغيرهم .

وتجدر الإشارة إلى أن قرابة اللغات لا تعني دائماً قرابة الشعوب والأصول الجنسية . فإن شعوباً عديدة اتخذت لغات مختلفة على مرِّ العصور ، وعلى سبيل المثال ، اتخاذ القبائل العبرية للهجة الكنعانية وهو لا يعني قرابة هذه القبائل من الناحية الجنسية والعرقية للكنعانيين سكان البلاد الأصليين المنحدرين من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وكذلك الحال بالنسبة للأحباش الذين اتخذوا لهجة عربية جنوبية قديمة لغة لهم .

مدرسة جنيف اللغوية :

مؤسس هذه المدرسة فرديناند دي سوسيور وهو واحد من كبار العلماء اللغويين الذين أثروا على اتجاهات علم اللغة بشكل عام . بدأ حياته العلمية في باريس مدرساً ، ثم انتقل إلى جنيف ، وقد نشر محاضراته في علم اللغة العام في سنة 1916 في كتاب ترك أثره البالغ على تلامذة سوسيور من بعده ، وأفكار سوسيور Saussure تطورت في أعمال ش . بالّ وأ . مايي وج . فندريس وأ . بنفينيست . والخدمة الجليلة التي قدمها سوسيور لعلم اللغة تتلخص في كونه ربط اللغة بالفلسفة ربطاً وثيقاً بحيث توجه بشكل خاص نحو ضرورة دراسة اللغة ككل مؤلفٍ من عناصر مترابطة ، ومتعلقة فيما بينها ، وليس من العبث أن يختم سوسيور كتابه بعبارة شهيرة تشير إلى أن الموضوع الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو اللغة بحد ذاتها ومن أجل ذاتها ، وقد أوضح سوسيور بأن أهمَّ شيء في دراسة اللغة هو دراسة العلاقات اللغوية ، لأن اللغة بمفهوم سوسيور هي نظام رموز . فالزوائد والجذور والأصول في الكلمات تصبح ذات قيمة معنوية فقط أثناء تحليل عناصرها وتركيبها تجزيئاً وجمعاً . حتى إن علم اللغة بحد ذاته هو مجموع علوم حول اللغة والكلام ، كعلم اللغة الداخلي ، وعلم اللغة الخارجي ، وعلم اللغة المعتمد على دراسة اللغة بحاضرها وبتطورها التاريخي . ولذا يمكن القول بأن سوسيور أدخل في علم اللغة مفاهيم فلسفية جديدة معتمدة على العلاقات الداخلية والخارجية ،

على التنافر والاتحاد ، على تجزئة العناصر وتركيبها . لقد حدد مفهوم اللغة كنظام رموز وعلاقات . ورغم أنّ سوسيور أعطى علم اللغة في القرن العشرين اندفاعاً كبيراً ، بحيث تأسست فيما بعد مدارس واتجاهات اعتمدت على تعاليمه فإنّ النقد يوجه لنظرية سوسيور من حيث أنه قلّل من أهمية الاعتماد على الدراسات التاريخية . واعتبر وضع اللغة الحالي أهم بكثير من دراسة وضعها في مراحل تطورها التاريخي . كما إنه قلّل من القيمة الاجتماعية للغة وبالغ في جعلها نظام عناصر ورموز وجرّد هذه العناصر لدرجة فقدانها معناها المادي . وهكذا على أساس تعاليم سوسيور نشأ علم اللغة البنيوي .

يقول سوسيور في خصائص اللغة : إنها موضوع محدد جيداً في المجموع المزيج لوقائع الملكة اللغوية ويمكن تعيين موضعها في القسم المحدد للحلقة حيث تقترن صورة سمعية معينة بمفهوم معين . فهي الجزء الاجتماعي من الملكة اللغوية الموجودة خارج الفرد الذي لا يستطيع أن يوجدها لوحده ، ولا أن يعدل فيها ، فهي لا توجد إلا بفضل نوع من عقد قد تم إجراؤه بين أعضاء الجماعة . ويحتاج الفرد ، من جهة أخرى ، إلى عملية اكتساب لكي يعرف أنظمتها والطفل لا يتمثلها إلا رويداً رويداً . إنها شيء مميز إلى درجة أنّ رجلاً فقد استعمال الكلام يظل يحتفظ بها شريطة أن يفهم الإشارات الصوتية التي يسمعها .

إن اللغة ، التي هي مميزة عن الكلام ، موضوع تمكن دراسته على حدة . فنحن لم نعد نتكلم اللغات الميتة ، ولكننا نستطيع جيداً تمثّل جهازها اللغوي . وليس في مقدور علم اللغة أن يستغني عن العناصر الأخرى للملكة اللغوية وحسب ، بل يستحيل قيامه إذا اختلطت هذه العناصر به .

وبينما الملكة اللغوية خليط فإن اللغة ، كما حدّدناها ، ذات طبيعة متجانسة ؛ إنها تنظيم إشارات حيث الأهمية تكون لاتحاد المعنى بالصورة السمعية وحيث قسما الإشارة هما نفسانيان الواحد كما الآخر .

اللغة مثلها مثل الكلام موضوع ذو طبيعة محسوسة وهذا نفع كبير بالنسبة إلى الدراسة . فبالرغم من أن الإشارات اللغوية نفسانية بشكل أساسي ، فهي ، مع ذلك ، ليست تجريدات . إنّ التداعيات التي أقرها التراضي الجماعي والتي يؤلف مجملها اللغة هي حقائق مقرها الدماغ . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن إشارات اللغة هي ، بكلام

ما ، ملموسة . بإمكان الكتابة تثبتها في صور اصطلاحية بينما يستحيل تصوير كل تفاصيل الكلام ، إذ إن النطق الصوتي لكلمة ما مهما صغرت ، ينطوي على حركات عضلية لا عد لها من الصعب جداً معرفتها ورسمها ، أما في اللغة فعلى العكس من ذلك لم تبق إلا الصورة السمعية وهذه بالإمكان ترجمتها إلى صورة مرئية ثابتة[1] .

حلقة براغ اللغوية :

أو مدرسة براغ لعلم اللغة الوظيفي وقد نشأت في 1926 واستمرت حتى 1952 ، ومن روادها : ف . ماتيزيوس ، ب . تريك ، ب . غافرانيك ، يا . موكار جوفسكي ، ف . سكاليتشكا ، ن . تروبتسكي ، ر . ياكسون وغيرهم ، وقد توقفنا عند هذه المدرسة ، لأنها تعتبر مرحلة هامة في تطور علم اللغة وخاصة في تطوير تعاليم سوسيور حيث إنها درست اللغة على أساس وظيفي ، وفصلت بين اللغة والكلام . وقد استطاعت أن ترثىء الخلل في نظرية سوسيور فجعلت العلاقة ضرورية أثناء دراسة اللغة بواقعها الراهن أو الحاضري بواقعها التاريخي . واتجاه هذه المدرسة ساعد على وضع دراسات قيمة في تحليل مقارن للغات المتقاربة والمتباعدة للكشف على المظاهر اللغوية المشتركة والمختلفة . وهذه الدراسات ساعدت مستقبلاً على وضع تصنيف اللغات في العالم على أساس جديد قائم ليس على العائلة اللغوية فقط وإنما على الاتحاد اللغوي ، الذي يجمع لغات من عائلات مختلفة ، يعتمد الاتحاد هذا على أساس تقارب هذه اللغات من حيث بنائها الصوتي أو النحوي والصرفي . وقد أشارت هذه المدرسة كذلك في فصلها بين اللغة والكلام ، إلى أن دراسة الكلام تختلف عن دراسة اللغة . فإن دراسة الأصوات مثلاً هي مجال العلوم الطبيعية ، على أساس أن الأصوات في الكلام هي شيء مادي ملموس ودراستها تتم عبر وسائل علمية حديثة ، تعكس الواقع المادي للأصوات وعلاقاتها ، ضمن دراسة علم الأصوات phonetics, phonitique أما أصوات اللغة فتدرس من قبل الفُنُلوجيا phonology, phonologie وتعكس هذه الأصوات الواقع اللغوي الحاضر والماضي ، أي الوجود المادي الواقعي والأصوات في ماضيها غير الواقعي المتصور .

(1) انظر : د . ميشال زكريا الألسنية (علم اللغة الحديث) بيروت 1984 ص 71 ؛

F. De Saussure. Cour de linguistique générale Paris: Payol 1962.

واختلفت مدرسة براغ عن اتجاه سوسيور بكونها أولت اهتماماً خاصاً بالناحية الاجتماعية للغة . وأوضحت أنَّ العلاقات اللغوية والواقع الاجتماعي مترابطة وهامة ، خاصة أثناء دراسة الأساليب الانشائية .

ولقد اعتمد مفهوم وظائف اللغة في مدرسة براغ على تعاليم وآراء العالم الألماني ك . بيولير صاحب الكتاب الصادر عام ١٩٣٤ « نظرية اللغة . النموذج البنائي للغة » . وبرأي بيولير إن القدرات النفسية عند الإنسان في كونه يفكر ، يشعر ويعبر عن إرادته ، إن هذه القدرات خلقت وظائف لغوية ثلاث : وظيفة التواصل — التفاهم ووظيفة التعبير والعرض ، وهذه الوظائف بدورها تتعلق بأشكال ثلاثة للجمل : الإخبار ، التعجب وما شابهه ، والطلب . إن الوظائف اللغوية ساعدت هذه المدرسة في دراسة واقع اللغة الأدبية واللغة الشعبية . ولقد أظهرت بعض التعاليم عندها تكوّن الأساليب اللغوية كلغات تختلف عن اللغة الشعبية العامية . وساعدت بالطبع في إظهار علم الأسلوبية وعلاقته الهامة بعلم اللغة[1] .

حلقة كوبنهاغن اللغوية :

أو علم اللغة الوصفي . مؤسس هذا الاتجاه لوي هيمسليف (1889 - 1965) ، وكان أستاذاً في جامعة كوبنهاغن ، ومن أهم مؤلفاته « طريقة التحليل البنيوي في علم اللغة » و « اللغة والكلام » ومن المروجين لهذا الاتجاه بريوندال (1887 - 1942) ، وهو مؤلف « علم اللغة البنيوي » . وأولدال (1907 - 1957) ، وهو مؤلف « أسس علم اللغة الوصفي » . وهذا الاتجاه يعتمد على الأسس الفلسفية ، المرتكزة على المنطق والمنطق الرياضي بشكل خاص . ويرى هذا الاتجاه أن علم اللغة يجب أن يَدرس دائماً بناء العناصر الداخلية الخاصة بكلام الإنسان بشكل عام وليس الخاصة بلغة معينة ، أي أن هذا الاتجاه يحصر دراسة علم اللغة بالتركيب البنيوي الكامل للغة . وهذه النظرية تعتمد على جمع الأشكال والوظائف والعلاقات اللغوية في إطار نظامي أقرب إلى الجبر والرياضيات . وهذا التوجه وضع بالفعل حجر الأساس لقيام علم اللغة الرياضي فيما بعد .

---

(1) كودوخوف . ف . إ . مدخل في علم اللغة ، موسكو 1979 ، ص 27 .

علم اللغة البنيوي الأمريكي :

أو علم اللغة الوصفي الأمريكي ، ومن أعلام المدرسة الأمريكية سيبير (1884 - 1939) ، وبلومفيلد (1887 - 1949) . وقد تأسست هذه المدرسة نتيجة لتوجه علماء اللغة الأمريكيين لدراسة اللغات المحلية للهنود ، سكان البلاد الأصليين . ولتلك اللغات التي تختلف بشكل واضح عن اللغات الهندو أوروبية ، والتي تحتوي على نواح بدائية جعلت اتجاه علماء اللغة يتركز على دراسة اللغة بشكل وصفي دون اللجوء إلى تحليل تاريخي ، أو دون شروحات معتمدة على المقارنة التاريخية . والاتجاه الأمريكي عرض في كتابي « اللغة » لسيبير وبلومفيلد . إن أفكار هؤلاء العلماء تأثرت بدون شك بالفكر الأوروبي وبفكر سوسيور بشكل خاص ، لذلك تعتبر امتداداً للمدرسة البنيوية في دراسة علم اللغة . ويوضح سيبير في كتابه « اللغة » الفوارق بين النظامين اللغويين المادي الفيزيائي والمثالي . وبرأيه إن كل لغة تمتاز بنظامها الصوتي المثالي الذي يحتوي على النموذج الصوتي في أصله والذي يمكن أن يسمى نظام الذرات الرمزية وكذلك ينطبق الوضع على النظام القواعدي .

وبلومفيلد طرح مسألة المستويات اللغوية . وأشار إلى أن وصف اللغة يجب أن يبدأ من أبسط المستويات : من المستوى الفنولوجي ، والمستوى الدلالي برأي بلومفيلد يأتي في المرتبة الثانية وينقسم إلى القواعد والمفردات . وهو يعتبر أن الأصوات المحددة والمرتبطة بمعانٍ محددة هي أيضاً أشكال لغوية . وكل الأشكال المتساوية تنقسم عنده إلى مرتبطة وهي أجزاء الكلام وحرة أو مستقلة وهي الكلمات البسيطة والمركبة ، وبلومفيلد لا يعطي أهمية خاصة للمعنى اللغوي بقدر ما يولي الأهمية الخاصة للفوارق المعنوية بين الأشكال والكلمات . فهو بذلك استطاع بلورة المفهوم اللغوي حول مجموعة أشكال كلامية منفردة ومركبة في جمل .

إن أفكار بلومفيلد أثّرت على الأجيال اللاحقة في أمريكا فقد تفرعت اتجاهات ثلاثة وكلها انطلقت من علم اللغة البنيوي : الاتجاه الأول تمثل بأعمال تريد جيير « بحث في التحليل اللغوي » 1942 ز . هاريس « الأسلوب في علم اللغة البنيوي » 1951 و « تحليل الكلام » 1952 . وهذا الاتجاه يعتمد على فصل المستوى الصوتي والنحوي عن علم المعاني ، أما الاتجاه الثاني فيتمثل في ك . نايك ويو . نايد

مؤلف « النحو » 1951 وتش فريز مؤلف « بناء اللغة الانكليزية » 1952 . وهذا الاتجاه اقتبس طريقة بلومفيلد في تحقيق وجمع المواد اللغوية وبحثها معتمداً على حصيلة جمع المواد اللغوية في مناطق الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ؛ والاتجاه الثالث يتمثل في نوام تشومسكي ور . ليز وغيرهما ، وينطلق من دراسة النص على أساس تحليل تركيبي للكلمات والجمل . وبناء هذه التراكيب وتجزيئها يقتضي معرفة العنصر الأساسي أو الوحدة أو الذرة البنيوية في عملية التكون وإعادة التكون . وبعبارة مختصرة يمكن القول إن هدف المدرسة البنيوية الأمريكية يتلخص في أسلوب التحليل اللغوي المعتمد بدرجة أساسية على وصف اللغة وعلى النظرية التوليدية والتحويلية . وتشومسكي يعتبر من أبرز علماء اللغة الأمريكيين في القرن العشرين . نشر تشومسكي عام 1955 مقالاً في مجلة « اللغة » بعنوان علم التراكيب الرياضي وعلم الدلالات ، ورد على مقال هيلل تحت نفس العنوان ، فيشير إلى أن علم التراكيب المنطقي وعلم الدلالة الشكلي لا يكونان موضوع الدراسات الألسنية ، فالمنطق الرياضي على حد تعبيره لا يصلح في تحليل ميزات التنظيم اللغوي الذي يكتبه الإنسان والذي يستعمله في أدائه الكلامي . واللغة الشكلية تختلف عن اللغة الإنسانية[1] .

وألّف تشومسكي سنة 1955 كتاباً حول « البنية المنطقية في النظرية الألسنية » ، لكنه لم يستطع نشره في حينه لمعارضة دار النشر التابعة لمعهد ماسْشيوسْت التكنولوجي . لكنه استطاع نشر علمه في هولندا[2] ، واستطاع من خلال نشر كتابه تعريف القراء بنظريته التي دعيت فيما بعد بالنظرية التوليدية والتحويلية ، وبذلك اختلف عن نظرية بلومفيلد الوصفية البنيانية المرتكزة على دراسة المستويات اللغوية وتحليل الكلام من خلال المواقع والتوزيعات . فالدراسة الوصفية الموضوعية التجريبية لم تهتم بالمتكلم أو بدوره في تكوين الكلام ، لكن تشومسكي ركز إلى جانب نظرية بلومفيلد على التجريد العلمي في صياغة فرضيات مؤثرة قادرة على تحليل المعطيات اللغوية . وتشومسكي يتخطى هدف الوصف متنقلاً لتفسير اللغة وتحليل تركيب البنية

---

(1) Noam Chomsky: Logical syntax and semantics: thein Linguistic Relevance in language 31. 1955, pp. 36-45.

(2) Noam Chomsky: Syntactic structures the Magüe: Mouton 1957.

اللغوية ومكوناتها وتحولها من بنية لبنية أخرى . وإذا كان بلومفيلد لا يهتم بالمتكلم فإن تشومسكي يركز عليه جيداً ويستمد الألسني ، بنظره مادة بحثه من مساءلة حدس متكلم اللغة ولا يلجأ إلى اللغة بشكلها المدون[1] ونشر تشومسكي نظريته في العديد من المقالات والكتب وأقرتها المؤتمرات الدولية .

علم اللغة السوفياتي :

لقد قلنا علم اللغة السوفياتي لأنه يصعب القول باتجاه محدد . فعلم اللغة عند السوفيات وإن يتوافق مع النظرية الماركسية — اللينينية . فهو قد تأسس وتطور معتمداً على علماء اللغة الروس منذ القرن الثامن عشر ومستنداً كذلك على غيرهم من علماء اللغة الأوروبيين . ولما تكونت الدولة السوفياتية في مطلع القرن العشرين وضمت هذه الدولة شعوباً مختلفة من الناحية الحضارية واللغوية ، فإن علماء اللغة السوفيات أصبحوا يملكون أكبر مادة حية لدراسة اللغة ومقارنتها . فإلى جانب اللغات السلافية التي تكونت من ناحية تاريخية معتمدة على السلافية القديمة ومتفرعة إلى عدة لغات ، كالأوكرانية والبيلوروسية والروسية ، هناك مجموعة اللغات الأخرى المنتشرة في المناطق الإسلامية من أذربيجان وطادجكستان وأوزبكستان وكازاخستان وتركمانيا وغيرها . ولغات هذه الشعوب تتصل بالإيرانية والتركية والأردو . وهناك مجموعة لغات شعوب البلطيق القريبة من الألمانية والفنلندية ، ومجموعة لغات الشعوب القريبة من الحدود الصينية وشعوب أرمينيا والقفقاز وشمال سيبيريا والأسكمو . أي أنه على الأراضي السوفياتية توجد شعوب عديدة تتكلم لغات تنتمي إلى مجموعات من العائلات اللغوية المختلفة . وهذا الواقع ساعد على انتشار الاتجاهات والأساليب المختلفة . فالأسلوب التاريخي المقارن ، والاتجاه الوصفي والبنيوي وغيرها تنعكس بشكل واضح في جميع الأبحاث السوفياتية . ويجب القول بأن العلماء السوفيات يأخذون بشكل جديد كل ما تنتجه المدارس اللغوية الأخرى ويصهرونه بطريقتهم المعتمدة على نظرية المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية . فهم لا يتحيزون لاتجاه معين وفي جميع دراساتهم لا يغفلون الطبيعة الاجتماعية للغة ، وهم ينطلقون في دراساتهم من الربط الموضوعي للتطور الحضاري والاجتماعي مع التطور اللغوي . ففي الاتحاد

(1) للمزيد عن تشومسكي إقرأ د . ميشال زكريا ، الألسنية التوليدية والتحويلية وكتبه الأخرى في الألسنية .

السوفياتي تطورت الدراسات بشكل واسع حول موضوع اللغة الأدبية والقياس اللغوي والازدواجية اللغوية ، أي تكلّم واستعمال لغتين أدبيتين في آن واحد : لغة قومية ولغة شعب معين . ولغة الدولة الأساسية ، أي اللغة الروسية التي تجمع حولها جميع الشعوب من مختلف القوميات . وفي الاتحاد السوفياتي معاهد مختصة باللغات المختلفة وبعلم اللغة . وإلى جانب الأسماء العديدة لعلماء اللغة في المدرسة السوفياتية هناك شخصيات ثلاث أكثر بروزاً ، ولقد قدمت أعمالاً كبيرة وهامة في مجال اللغات المحلية وغير المحلية وساعدت على تطوير النظريات اللغوية المختلفة وهم ؛ أ . أ . ميشانينوف ، ل . ف . شيربا وف . ف . فينوغرادوف . فالأول صاحب مؤلفات « تعاليم جديدة حول اللغة ، التصنيف المرحلي » 1936 وعلم اللغة العام . وحول المراحل في قضية تطور الكلمة والجمل 1940 وعناصر الجملة واقتسام الكلام 1945 وغيرها ، وقد اعتمد العالم هذا في دراسته على المعطيات الوافرة في بلاد السوفيات المترامية الأطراف . أما شيربا فقد اعتمد على تعاليم بودوين دي كورتوناي وطور الدراسات في علم الأصوات ، وفي سنة 1974 جمعت مؤلفاته في أعمال مختارة . وأما فينوغرادوف وهو تلميذ شخماتوف وشيربا فقد قدم أعمالاً جليلة لعلم اللغة السوفياتي ، ومن أهم أبحاثه « اللغة الروسية تعاليم قواعدية » 1947 ، « حول لغة الفنون الأدبية » 1959 ، وأبحاث في اللغة الروسية الأدبية (من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر) 1934 ، وغيرها من المؤلفات والمقالات العديدة في اللغة والأدب .

الاتجاهات اللغوية عند العرب :

في القرون الأخيرة التي تطور فيها علم اللغة في أوروبا وأمريكا وحتى في عصرنا هذا يمكن القول إن الاتجاهات العربية لم تأخذ طابعَ الاستقلالية بل كانت تتأثر بالتراث العربي الإسلامي الكلاسيكي وبالنهضة الأوروبية . ولذا يمكن نسبياً فرز اتجاهات ثلاثة :

- الأبحاث اللغوية الوصفية التطبيقية المعتمدة على المدارس الدينية مثل الأزهر في مصر والنجف في العراق وغيرهما من المدارس الدينية في البلاد العربية الأخرى كانت الأبحاث اللغوية تنحصر في شرح القرآن لغوياً وإعرابه ودراسة الصرف والنحو وغيرها

من ميادين اللغة وكان أسلوب الدراسة كلاسيكياً تقليدياً حسبما هو معروف في القرون الوسطى عند العرب بعد ظهور الإسلام وإبان الحكم العثماني ومعظم هذه الأبحاث تبتعد عن الغوص في الجوانب الفلسفية المعقدة .

ثانياً : في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذت تظهر دراسات لغوية متأثرة مباشرة بالمدارس الغربية . ومن جهة أخرى اعتمدت على فقه اللغة العربي المتطور في القرون الوسطى ، محاولة إيجاد ما يتلاءم والعلوم الحديثة للغة . وبذلك كانت الأبحاث اللغوية تطرح بعض الجوانب من وجهة نظر غربية وبعض الجوانب الأخرى من وجهة نظر عربية . وبذلك انطبعت بعض الآراء بازدواجية الرؤيا .

الاتجاه الثالث : وهو الاتجاه المدرسي الأكاديمي . مع النهضة العربية الحديثة تأسست المدارس والجامعات والمعاهد والأكاديميات اللغوية ، وقد تخرج عدد كبير من الأساتذة العرب في بلاد أوروبا وأمريكا وعادوا يعملون في مجالات مختلفة ، وفي مؤلفاتهم يتجلى بوضوح التأثير الغربي على منهج البحث . وكتبت مؤلفات عديدة في علم اللغة هي في الواقع كناية عن ترجمات وشروح للمدارس العالمية في علم اللغة . بعض هذه الأعمال طرح علم اللغة بالمقارنة مع فقه اللغة عند العرب . وفي النصف الأول وبداية النصف الثاني من القرن العشرين برز صراع حاد قد أعطى قيمة لبعض الأعمال حول مشاكل اللغة العربية مثل قضية الفصحى واللهجات العربية المحلية أو قضايا الإعراب والنحو والكتابة وغيرها من المشاكل اللغوية . والجدير بالذكر أن بعض الأعمال كانت تتسم بالسطحية أو بالتعصب دون عمق في دراسة اللغة بأساليب جديدة متطورة . ودون الغوص في أبحاث لغوية علمية ، كما كان الحال في الغرب . ومع هذا كله ، فإن الدراسات اللغوية وإن لم تصبح على مستوى الدراسات الغربية المتطورة ، فإنها تقدمت بشكل واضح منفصلة عن الاتجاه الأول ومتخلصة في بعض الأعمال من ازدواجية الرؤيا . وقد جرى تحديث لبعض المناهج التعليمية في البلاد العربية ، غير أن الأبحاث اللغوية ما زالت في مرحلتها الأولى من التطور المعاصر . وسوف تتقدم بلا شك نحو مراحل أعلى ومستويات أرفع نتيجة التطور المطرد في مجالات العلوم المختلفة

في سائر البلاد العربية[1] .

وبعد أن عرضنا أهم المدارس والاتجاهات فإننا نعرض كذلك بشكل سريع تصنيف اللغات، لأن هذه المسألة على علاقة أيضاً بالاتجاهات اللغوية من جهة ، وتتسم بأهمية خاصة في أبحاث علم اللغة من جهة أخرى .

تصنيف اللغات

تصنيف اللغات يجري في اتجاهين أساسيين : الأول يعتمد القرابة والأصول الجنسية والعائلية وغيرها من صلات القرابة المتعارف عليها ، والثاني يعتمد أسلوب تصنيف اللغات على أساس تشابهها وتباعدها دون اللجوء إلى الأسس العرقية والجنسية . ويتفرع عن كل اتجاه عدة تصنيفات سنذكر أهمها :

التصنيف الجنسي أو العرقي :

من الصعب تحديد عدد اللغات في العالم ، رغم تطور علم الأجناس والإحصاء ، ورغم مساعدة الأمم المتحدة وتخصص منظمات علمية عالمية بمعرفة ذلك ، والسبب الأساسي في هذه الصعوبة يعود إلى عدم القدرة على التفرقة بين اللهجات العديدة واللغات في مناطق مختلفة من العالم . ولذلك يمكن إعطاء رقم نسبي لعدد اللغات في العالم . وهذا العدد يتراوح بين 2500 و 3000 لغة .

إن التصنيف الجنسي أو العرقي أو السلالي هو أكثر التصنيفات انتشاراً وتعارفاً بين علماء اللغة . وقد قسِّمت اللغات على هذا المبدأ إلى مجاميع وعائلات ؛ إلى أصول وفروع ووضعت لها شجرات أنساب . ومن هذه المجموعات مثلاً : « السامية » (ولنا اعتراض على هذه التسمية سنعرضه لاحقاً) والآرية ، الهندية — الصينية والملايوبولونيزية ، الأسترالية ، الأميركية وغيرها . ويتفرع عن كل مجموعة عدد كبير من التجمعات اللغوية الأخرى . ونذكر على سبيل المثال المجموعة « السامية » والتي تدعى أحياناً « السامحامية » محتوية لغات « حامية » إفريقية حيث يصعب فصل بعض

(1) انظر أعمال علي عبد الواحد وافي محمد المبارك وصبحي الصالح وإبراهيم السامرائي ومحمود السعران وكمال بشير . ومحمود حجازي ومحمد أبو الفرج وعباس حسن ، وعثمان أمين ومهدي المخزمني وإبراهيم أنيس وعبده الراجحي ومراد كامل ، أنيس فريحة ، عبد القادر الفاسي الفهري وغيرهم من الأساتذة والباحثين الجدد .

اللغات « الحامية » عن « السامية » لعلاقات القرابة في ميادين لغوية مختلفة . وتتفرع « السامية » إلى ثلاثة أقسام أساسية :

القسم الشرقي : البابلية ، الآشورية (الكلدانية) ، **والقسم الغربي** : الكنعانية ، الفينيقية ، العبرية القديمة ، الآرامية ، السريانية ، التدمرية ، النبطية وغيرها .

القسم الجنوبي : ويتفرع إلى فرعين : العربي والحبشي ويضم الفرع العربي : العربية القديمة ، القحطانية ، الحميرية المعينية السبئية ، العدنانية المغربية أو القرشية (اللغة العربية الفصحى) ، والحبشية تضم الأثيوبية والنيجرية والجفرية والهررية . وجميع هذه اللغات المسماة بالسامية تستند إلى أساس لغوي هو اللغة الأم أو اللغة العربية الأولى التي نشأت في شبه الجزيرة العربية والتي انقسمت في المدى التاريخي البعيد إلى بضع لهجات ، ثم تكونت هذه اللهجات على شكل لغات مستقلة ، سرعان ما تفرعت عنها أيضاً لهجات جديدة ، ومن ثم تحولت إلى لغات مستقلة من جديد ، وهكذا استقر الوضع اللغوي على الحال القائم اليوم . وقد ماتت لغات كثيرة ، وتطورت لغات أخرى ، والجدير بالذكر ، أن عدد اللغات في العالم ينقص باستمرار ، وأن حياة اللغات مرهونة بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية وإعادة تكون الدول على أساس اتحاد تجمع الشعوب . ولهذا فإن لغاتاً ضعيفة وغير منتشرة بشكل واسع ستندثر تدريجياً . ولنأخذ مثلاً ، الاتحاد السوفياتي ، حيث يعيش في هذه الدولة أكثر من 130 قومية كبيرة وصغيرة ، ورغم المحافظة على اللغات القومية ، فإن الروسية تصبح رويداً رويداً اللغة الأم لجميع هذه القوميات ، ويصعب على الجيل الناشيء معرفة لغته الأساسية . وكذلك الحال في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تصبح الانكليزية اللغة الأم لمختلف الأجناس البشرية القاطنة هناك . وقد تحولت العربية منذ عدة قرون إلى لغة أم لشعوب مختلفة الألسنة في شبه الجزيرة العربية وبعض مناطق أفريقيا . ورغم أن العلم الحديث قد يحافظ على جميع اللغات في العالم ، لا بل يساعد على تنظيم وتطوير بعضها ، غير أن التوجه العام للعالم في تكتله واتحاداته وتطوره الطبيعي المحتم والموجه نحو الوحدة الكاملة سيجعل عدد اللغات يتقلص بشكل كبير . والمجموعات اللغوية الأكثر انتشاراً في العالم هي الهندو أوروبية والصينية — والتبيتية والأوسترانيزية و « السامحامية » . ومن أهم لغات الهندو أوروبية الهندو إيرانية والسلافية والإيطالية والكيلتية والجرمانية والبلطيقية

وغيرها . وقد دُرست هذه الفروع ولغاتها دراسة جيدة في الآونة الأخيرة ، ووضعت أبحاث عديدة في مقارنة هذه اللغات ، ونعرض شجرة لمجموعة الهندو أوروبية ذاكرين بعض لغاتها .

الهندو أوروبية

شجيرة اللغات الهندو أوروبية وتضم أهم اللغات

وفي الآونة الأخيرة ساعدت أبحاث المستشرقين والعلماء العرب واليهود على كشف علاقات القرابة بين اللغات « السامية » و « الساحامية » ، وتحتاج الأبحاث في هذه اللغات إلى جهد كبير من قبل الناطقين بها ودراسة تاريخها . ومقارنة لغاتها تعتبر من أهم القضايا اللغوية الملحة ، إذ أنه من الغريب جداً أن تكون لغة عظيمة الانتشار كالعربية غير مدروسة بشكل جيد من ناحية تاريخها ومقارنتها مع اللغات السالفة . إن الملاحظات العامة حول تاريخ هذه اللغة غير كافية لمتطلبات العلم اللغوي الحديث . ونعرض شجرة اللغات المنتسبة إلى العربية الأم أو الأولى ذاكرين أهم اللغات المنتمية إلى ما يسمى « السامية » .

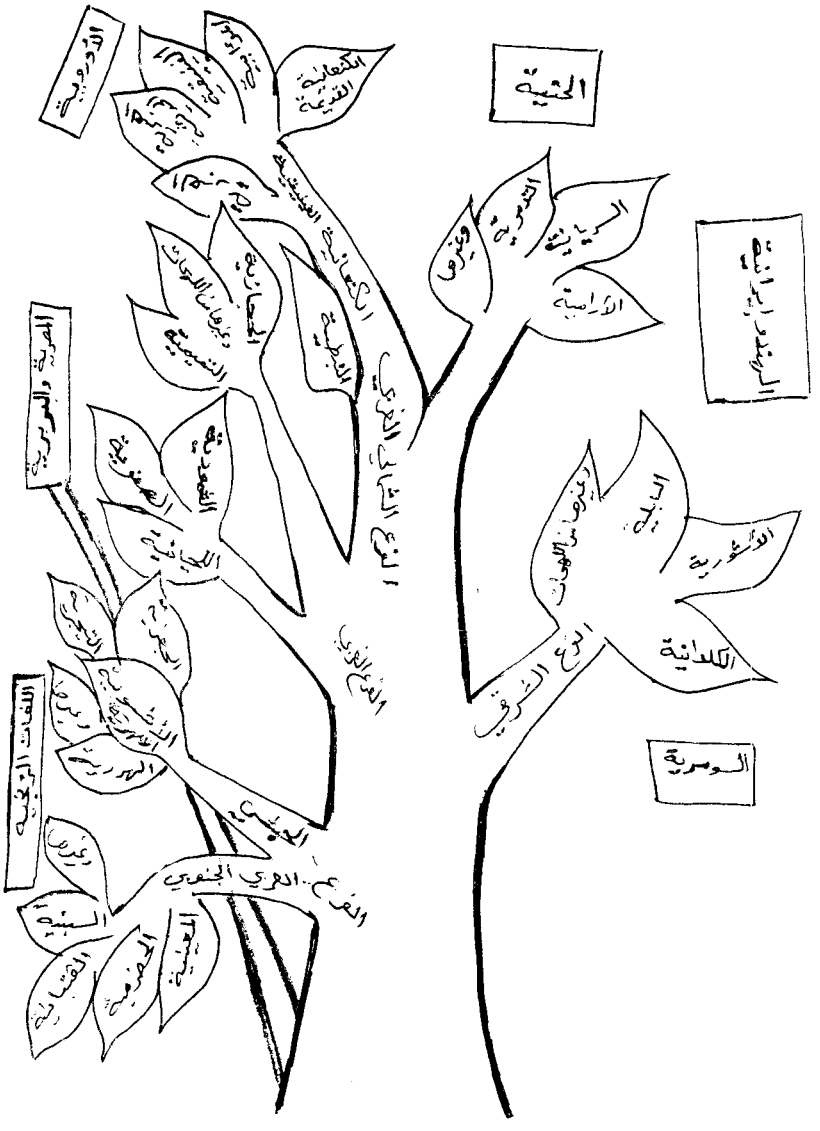

العربية الأولى

شجرة اللغات المتفرعة عن العربية القديمة وقد ضمت بعض اللغات المهمة وقد أشير في المربعات إلى اللغات المحيطة والمجاورة .

التصنيف الجغرافي :

ويعتمد دراسة اللغات ومجموعاتها في مناطق جغرافية محددة . كالدول والقارات والجزر وغيرها ، ويرسم خرائط جغرافية لتوزع اللغات على البقع الجغرافية في العالم .

التصنيف الوظائفي :

ويتوقف جلياً على بحث علاقة اللغة بالشعب الذي يتكلمها والوظائف التي تؤديها هذه اللغة في المجتمع المعين ، وانتشار اللغة خارج المناطق الخاصة بنشوء اللغة . فمن حيث علاقة اللغة بالشعب ، عادة يتم إبراز المراحل التالية لتطور اللغة : لغة القبيلة ، لغة الشعب ، ثم لغة الأمة . أما من الناحية الوظيفية ، فيمكن عرض اللغة الأدبية (لغة الكتابة) واللغة دون المرحلة الكتابية . وكذلك يمكن في هذا المجال عرض الأساليب اللغوية . أما من جهة انتشار اللغة ، فهناك اللغة المحلية اللغة الضيقة الانتشار ، والواسعة الانتشار ، لغات الأمم المتحدة ، اللغات العالمية وغيرها . وإلى جانب هذه التصنيفات هناك تصنيفات هامة تعتمد على المستويات اللغوية وتشابهها (مثل القواعد ؛ من نحو وصرف وقوانين تركيب الجمل وغيرها) .

التصنيف النوعي :

ويعتمد على الأنواع اللغوية في أنظمتها الداخلية : فليس مهماً لهذا التصنيف قرابة اللغات أو تباعدها سلالياً (عرقياً) أو جغرافياً أو وظائفياً ، إنما يتم التصنيف على أساس تشابه القوانين اللغوية في مجال الاشتقاق مثلاً ، أو النحو ، ولذلك يعتمد هذا التصنيف على تقارب الأشكال اللغوية ويعتبر الأخوان ف . شليغيل Schlegel وأ . شليغيل من الأوئل في تصنيف لغات العالم على مبدأ جديد . وذلك في بداية القرن التاسع عشر ، وقد قسمت اللغات بموجب هذا المبدأ إلى لغات تحليلية وأخرى تركيبية ، ولغات غنية تعمر طويلاً ، ولغات لواحقية تمتاز بالفقر والصنعة . وقد تطورت هذه النظرية فيما بعد على يد مجموعة من العلماء مثل هومبولت وشليخر وفينك وسيبير وسيريبرينيكوف وميشانينوف وغيرهم . وقد أخذ في تصنيف اللغات بمقارنة جميع المستويات بما فيها الأصوات والمآخذ الأساسية على هذا التصنيف أنه يوجد في كل اللغات من أغناها إلى أفقرها ومن أكثرها تعقيداً إلى أبسطها علامات وظواهر مشتركة ، إلا أن التقسيم يأخذ

بما هو أساسي ويحاول مقابلته تاركاً النواحي الجانبية الأخرى . وهذا الأسلوب أفاد كثيراً من الأسلوب التاريخي المقارن واعتمد عليه ، إلا أنه شمل نواح أكثر اتساعاً وخلق أبحاثاً جديدة اعتمدت الشمولية .

الاتجاه اللغوي العمومي :

ويعتمد على أخذ العام والمشترك بين اللغات المختلفة وقد نشأ هذا الاتجاه قديماً وتطور حديثاً وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين ، حيث عقد مؤتمر خاص بدراسة هذا الاتجاه في نيويورك في عام 1961 . والاتجاه اللغوي العمومي يساعد في مقارنة القواعد وتقسيم الكلام إلى أجزاء ودراسة وجود هذه الأجزاء أو عدمه في اللغات المتنوعة في العالم كالفعل والاسم والصفات ، وضمن هذا الاتجاه غالباً تجري مقابلة المنطق اللغوي العامل الأساسي في جسم كل نظام لغوي . وتجري دراسة القوانين والظواهر اللغوية ومقابلتها . وتكون هذه الدراسة بسيطة بحيث تُقابل لغتان ، أو عدة لغات والاتجاه العمومي يأخذ بدراسة اللغة بواقعها الحاضر وبتطورها التاريخي ويعتمد ثلاث عموميات تتوزع على المستويات اللغوية الثلاثة : المستوى العمومي الصوتي ، والقواعدي والدلالي المتعلق بالمعاني والمفردات .

علم النفس اللغوي :

لقد تطورت العلوم في القرن العشرين تطوراً سريعاً ، وشملت مختلف مجالات الحياة وتطور بشكل خاص علم النفس ، حيث تشابكت فروعه واتصلت بشتى العلوم ، وقد نشأ في الخمسينات علم النفس اللغوي في الولايات المتحدة ثم انتشر في أوروبا والاتحاد السوفياتي وسائر دول العالم . وعلم النفس اللغوي يعتمد على نظرية الرموز والمصطلحات المنتقلة لجهاز الدماغ والرد عليها . إن النشاط الكلامي يقوم عند الإنسان على أساس الناقل أو المتكلم والمتلقي أو المستقبل للكلام بواسطة أجهزة تصدر الكلام وتتلقاه . إنها بصورة أخرى عبارة عن المتكلم والكلام والسامع ، أو عبارة عن مراحل ثلاثة : الكلام ، أو الكتابة ، الإدراك ثم الفهم .

وعلم النفس اللغوي هو علم ناشيء ؛ وفي مرحلة تطوره المعاصرة يساعد على كشف جوانب هامة من لغة الطفل ونموها ، ويساعد كذلك على فهم المترادفات المعينة

في لغة الأفراد والمجموعات البشرية . إنه يعالج الأساليب وغيرها من مجالات علم اللغة . وينتظر أن يتسع مجال علم النفس اللغوي ليطال كل جوانب اللغة .

علم الاجتماع اللغوي :

وينطلق هذا العلم من خلال علاقة اللغة وأشكال الكلام بالمجتمع وبالبناء الاجتماعي وبالوضع الاقتصادي والحضاري ، بالوضع الفكري والديني والأخلاقي . ويتعلق كذلك بالسياسة وتغير الأشكال السياسية والإدارية في الدولة ، وبالطبقات الاجتماعية ، وبكل ما يتعلق بالإنسان ، كونه كائناً اجتماعياً ، ومع أن اللغة خاصة اجتماعية بشرية ، فإنه من الخطأ جعل اللغة خاصة بفئة بشرية معينة ، أو الحكم على المجتمع وتطوره وتخلفه من خلال لغته ، لأن اللغة لا تملك طابعاً عرقياً . وإن كان التصنيف اللغوي على أساس جنسي عرقي يصح غالباً ، إلا أن شعوباً عديدة اتخذت لغاتٍ غير لغاتها الأصلية ، وتطورت بشكل منفرد عن تطور أبناء اللغة هذه . وعلى سبيل المثال : لغات الشعوب المستعمَرة التي اتخذت الفرنسية أو الانكليزية أو الإسبانية أو البرتغالية ، وكذلك لغة بعض الدول الاتحادية ، التي تصبح لغة الدولة والشعب بمختلف قومياته ، مثل الروسية ، وكذلك الحال بالنسبة للقبائل العبرية التي اتخذت من الكنعانية لغة لها ، وكذلك الفلسطينيون القدماء الذين أقاموا في بلاد كنعان وتخلوا عن لغتهم الأصلية كالقبائل العبرية . إن تاريخ هذه الشعوب والقبائل يختلف عن تاريخ اللغة المتخذة ، غير أن الفترة اللاحقة تصبح هامة ومعبرة عن مراحل تطور الشعب المعين ، وهذا ينطبق على اللغة العبرية التي اشتقت عن الكنعانية وأصبحت في المراحل اللاحقة تعبر عن حياة اليهود وتاريخهم وتطور علاقاتهم مع الشعوب المجاورة .

ونتيجة لهذه الظروف فإنه من الصعب تعميم الرأي القائل بأن اللغة تعتبر روح الأمة وكذلك يقتضي بنا القول ، بأن البناء الصوتي والنظام اللغوي بشكل عام لا يعبران عن مراحل تطور المجتمع اقتصادياً وسياسياً . إن تطور الأنظمة اللغوية أبطأ بكثير من تطور الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية . وقد تحصل قفزات وطفرات في التطور اللغوي لا ترتبط بمثلها في الميادين الاجتماعية والسياسية والطبقية . إن تطور البناء اللغوي هو ثمرة لحركة القرون العديدة من الزمن . ولربما مرور مئات السنين لا يحرك النظام اللغوي قيد أنملة في حين أن عشرات السنين تقلب قواعد لغة رأساً على عقب . إن

عملية التطور هذه لا تخضع لقانون ثابت . وإنما تعتمد قوانينها الخاصة ، التي تعتبر في أغلب الأحيان عشوائية ، حتى إن اتخاذ لهجات وإقرارها كلغات قومية يعتمد على وضع قواعد لنظام اللهجة (اللغة المقرة) حديثاً والتي يتضح تدخل المجتمع أو الأفراد في صنعها ، لكنها تغدو بعد إقرارها وحدة تنمو وتتطور ببطء وبواسطة قوانين تخرج عن قدرة صانعيها وإرادة مقريها . وذلك يعود لكون اللغة ليست ملكاً لفرد بعينه . إنها ملك الجماعات والمجتمعات البشرية التي تتفاعل فيما بينها بعوامل نفسية واجتماعية وترابط بعلاقات اقتصادية وسياسية وثقافية وغيرها .

المكتبات وتطوّرها

د. يونس عزيز
كلية الآداب — جامعة قاريونس

إن المكتبات قديمة قدم التاريخ المسجل ، حيث أن الإنسان عندما بدأ يسجل ملاحظاته وطقوسه الدينية ، وعلاقاته وارتباطاته مع الآخرين كان يحتفظ بتلك الوثائق المسجلة في معابده ، وبهذا يكون قد أولاها أهمية مقدسة . فكانت بداية مكتبات المعابد كما تدل الحفريات التاريخية في وادي الرافدين ، ووادي النيل . تلك كانت المكتبات الأولى والتي استمرت تمارس نشاطاتها في حفظ مصادر المعلومات ، وإدارتها ، وخدماتها إلى أن ظهرت أنواع أخرى من المكتبات ، كمكتبات القصور للأسر المالكة ، وغيرها من الطبقات المترفة . فتفنن هؤلاء الأثرياء في بناء مكتبات نفيسة كمكتبة الاسكندرية في وادي النيل ، ومكتبة البركاموم في آسيا الصغرى ، ومكتبة آشور بانيبال في نينوى . وبزغ غيرها في ظل الحضارة الهيلينية ، والامبراطورية الرومانية . ثم سطعت شمس الحضارة الإسلامية المترامية الأطراف ، والممتدة من الصين حتى الأندلس ، حيث ظهرت مكتبات لم يشهد التاريخ لها مثيلاً . وبدأت هذه المكتبات تمارس الكثير من إجراءات علم المكتبات الحديث . وإني أذكر جملة لأحد المؤلفين باللغة الانكليزية تقول : « يوم كانت المكتبات الإسلامية في الأندلس تمارس علم المكتبات الحديث كالتصنيف الموضوعي ، والفهرسة ، وحفظ الوثائق على الرفوف ، والإعارة السمحة بأعداد كبيرة للمواطنين كافة ، كانت مكتباتنا في أوربة مقتصرة على الأديرة بالدرجة الأولى ، وإن مقتنيات تلك المكتبات كانت لا تتجاوز عدد الأصابع من المخطوطات

محفوظة في صناديق مغلقة ، لا تفتح إلا للكهنة والقلة من المحظوظين الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة » :

ولكن الحظ لم يحالف تلك المكتبات الإسلامية حتى النهاية ، إذ امتد إليها يد المنون وهي في أوج عظمتها وازدهارها . لأن الفساد السياسي الذي أصاب القصور والمتحكمين برقاب المسلمين ، لم يصب العلماء ومراكز الإشعاع الفكري من مدارس ومكتبات . ففي الشرق العربي حلت الأقدار على شكل موجات مغولية لا تكن للعلم والحضارة أي احترام ، فحرقت العلوم ، ودمرت العمران ، وقتلت الإنسان المترف التافه ، الذي لا يقوى على حماية نفسه ومنجزات أسلافه . وهذا ما حل ببغداد ، ودمشق وغيرها من المدن العريقة بمكتباتها ، ومدارسها وحضارتها .

أما المغرب العربي ، فكان قد بنى مكتبات ومعالم حضارية شتى لا تقل شأناً عن نظائرها في المشرق العربي ، إلى حد أن القليل المتبقي منها جعل من إسبانيا قبلة السواح في العالم . وبعد تلك المأساة المحزنة والتي حلت بالمكتبات الإسلامية ، انطفأت أنوار المكتبات ، وبقيت تتخبط في دياجير التخلف والإهمال باستثناء الجهود الفردية المبعثرة بين أوربا والشرق الأوسط .

وبحلول الربع الأخير من القرن الماضي ، ظهرت مهنة المكتبات كعلم جديد له نظرياته العلمية ، وإجراءاته الفنية في بناء مقتنيات المكتبات من مختلف مصادر المعلومات . وتبنت برامج مختلفة في خدمات المعلومات وتوصيلها[1] . وتنوعت المكتبات بتنوع قرائها ، وأقيمت الجمعيات المهنية ، ووضعت التقنيات لتوحيد إجراءات المكتبات في كل مكان ، وعقدت الندوات والمؤتمرات لدراسة مشاكل توصيل المعلومات وإدارتها ، وتطوير الخدمات والإجراءات . وفتحت مراكز التأهيل والبحث العلمي لتطوير المهنة وإعداد المتخصصين ، وإبداع المزيد من النظريات الضرورية لدعم دور المكتبة في عملية التنمية والتطور الاجتماعي ، والثقافي ، والعلمي .

وبدأت نشاطات البحث العلمي ، وإصدار الدوريات ونشر الكتب ، وغيرها من تقارير البحوث المتخصصة في علم المكتبات والمعلومات لاستخدامها من قبل القراء والمكتبيين في أقسام علم المكتبات وخدمات المعلومات . ثم طورت المكتبات أهدافها ، وقننت برامج خدماتها ووظائفها ، لتلعب دوراً فعالاً في رفع المستويات الثقافية بين

المواطنين عامة ، بالإضافة إلى دعم حركة البحث العلمي التي تهدف إلى تنمية المجتمع .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ظهرت تكنولوجيا المعلومات التي استغلتها مختلف المؤسسات الرسمية وغير الرسمية في إدارة المعلومات بصورة أفضل ، كالمصارف ، والشركات ، والدوائر الحكومية . وبعد أن تأكدت المكتبات من نجاحها ، استغلتها هي الأخرى ، وسخرتها في إدارة الملايين من مصادر المعلومات ، بغرض تسهيل مهمة استعمالها والاستفادة منها بكل كفاءة . فطورت إجراءاتها لتواكب التكنولوجيا الحديثة ، فتحسنت خدماتها بعد أن تمكنت بفضل هذه التكنولوجيا من تحسين إجراءاتها الفنية مثل التحليل الموضوعي المتعمق الذي يهدف إلى استغلال كل معلومة من ملايين المعلومات المدونة في المقتنيات العملاقة ، فتحولت المكتبة من مكتبة تقليدية أشبه ما تكون بمقبرة للمعلومات إلى مركز معلومات ناجح في تقديم خدمات معلومات تستغل أعلى نسبة من المعلومات المخزنة في مقتنياتها ، وبأعلى صلاحية . فازداد احترام الباحثين لها بعد أن أدركوا نجاحها في إدارة المعلومات ، والتمسوا فوائد خدماتها ، لا سيما بعد أن وسعت رقعة خدماتها بإقامة نظم المعلومات على مختلف المستويات .

وكلما ازداد اعتماد الإنسان على المعلومات ، كما هو الحال في مجتمعاتنا الحديثة ، ازداد اهتمامه بالمكتبات ومصادر معلوماتها ، بعد ظهورها كقوة علمية فعالة في تحقيق خطط التنمية ، وتحسين مشاريعه وبرامجه من صناعية وزراعية وغيرها .

وها نحن اليوم نشهد المكتبات العملاقة في شرق العالم وغربه ، من موسكو إلى لندن ، وباريس ، وواشنطن ، وطوكيو . وهذه بعض الأمثلة فقط ، فهناك العديد من المدن الكبيرة والصغيرة حول المعمورة ، أصبحت مراكز ثقافية يقصدها طلاب العلم من كل صوب ، للتأهيل في جامعاتها الحديثة ، والاستفادة من مكتباتها التي جمعت ونظمت ويسرت للقراء والباحثين الملايين من مصادر المعلومات بمختلف أشكالها ، وفي كل فرع من فروع المعرفة . ونتيجة لهذه النشاطات والمنجزات العلمية فإن هذه المدن أو المراكز الثقافية ، أصبحت تحاكي ما كانت تقوم به بغداد والقاهرة ، وقرطبة وغيرها من مراكز الإشعاع العلمي والإسلامي ، خلال القرون الوسطى . فطلابنا اليوم يشدون الرحال إلى المدن الغربية للتهذيب في جامعاتها كما كان الأوروبيون يشدون الرحال إلى الأندلس والشرق العربي ، للاستفادة من علومها وعلمائها ، يوم

كانت مجتمعاتهم تتخبط في دياجير الظلم والجهل والتخلف . فسبحان الذي يغير ولا يتغير !..

إن المكتبات الحديثة بعد أن وصلت أحجامها إلى ما هي عليه اليوم ، جعلت التطور أمراً لازماً ، فحل استخدام تكنولوجيا المعلومات مكان الإجراءات اليدوية البطيئة ، والتي فشلت في تنظيم هذا السيل العارم من مصادر المعلومات التي تنشر كل عام ، ولنا شواهد كثيرة على ذلك . ويقول البعض بأن ما ينشر اليوم من النتاج الفكري ، حول الكرة الأرضية ، يقدر بعشرين مليوناً من العناوين[2] . فكيف يمكن تسجيل ، وتنظيم ، وتخزين ، ثم الاستفادة من هذه الملايين بالطرق التقليدية ؟ فحلت تكنولوجيا المعلومات رحمة للمكتبيين والباحثين على حد سواء ، فحل النظام مكان الفوضى ، وأصبح بالإمكان استعراض الملايين من مصادر المعلومات المخزنة في مراصد المعلومات الحديثة عند الحاجة ، واسترجاع المطلوب منها بكل سرعة ويسر ، بدلاً من التخبط اليدوي ، وإهدار الوقت القيم للباحثين والمكتبيين ، وضياع المعلومات في ظل المكتبات التقليدية . ثم واصلت المهنة تطورها . بتبنيها التعاون مكان التبعثر والأنانية ، والمركزية مكان اللا مركزية ، بهدف تنسيق المقتنيات ، والتشارك بمصادر المعلومات لخدمة المواطنين كافة ، وتحقيق تكافؤ الفرص الثقافية والعلمية بين الباحثين وغيرهم من القراء ، بغض النظر عن أماكن وجودهم أو إقامتهم ، وأوضاعهم الاجتماعية ، ومستوياتهم الثقافية والعلمية . فتمكنت المكتبة ومهنتها من رفع مكانتها في المجتمع ، وفرضت احترامها ، وشعر الجميع بأهميتها في إقامة المشاريع الحضارية في الصناعة والزراعة وغيرها في المجتمع ككل ، بعد هذا التطور الذي حققته ، ونوعية الخدمات العلمية التي تقدمها الآن في تنمية المجتمع ، زاد اهتمام المواطنين بها ، وسخروا لها مختلف الإمكانيات ، كالميزانيات المفتوحة ، كما في الكثير من الدول المتقدمة ، وجندت لها مختلف التخصصات والمهارات لتحقيق استغلال أفضل للمعلومات ، بعد أن اقتنع الجميع بأهمية المعلومات ودورها في تصميم وتنفيذ خطط التنمية .

وفي أعقاب الحرب الثانية ، ظهرت المكتبات قوة ثقافية حيوية لا بديل لها في سبيل إحراز أي تقدم تكنولوجي أو علمي . وأن مرحلة الحرب الباردة ، أو التنافس بين الشرق والغرب ، كانت مرحلة نمو سريع بالنسبة للمكتبات ومراكز البحث العلمي .

فتفننت هذه المؤسسات الثقافية في تصميم وإقامة مبان ذات طابع خاص بكلفة الملايين من العملات المحلية في شتى أنحاء العالم . واستخدمت أحدث المستحدثات من تكنولوجيا المعلومات . ووضعت الخبرات العلمية المتنوعة لغرض إدارة مصادر المعلومات بصورة فعالة ، بهدف استغلال أعلى نسبة من المعلومات المخزنة والاستفادة منها في خدمة البحوث الوطنية .

ثم حل عصر نظم المعلومات على مختلف المستويات : المحلية ، والجهوية ، والوطنية والدولية ، مكان الجهود الفردية والشبكات التقليدية . وأصبحت هذه النظم ولا سيما الوطنية منها هدفاً سامياً ، لتحقيق أقصى فائدة ممكنة من المعلومات المنشورة بشتى الأشكال من المصنفات ، ومختلف اللغات الحية في هذا العصر ، وإعدادها لخدمة المواطنين كافة ، دونما استثناء .

ومن البرامج الحديثة التي توصلت إليها المهنة مؤخراً هي مركزية الإجراءات الفنية ، وتنسيق المقتنيات الجارية على مستوى القطر ، بحيث يمكن اقتناء أعلى نسبة ممكنة من المصنفات المنشورة حول العالم . والمتاحة في الأسواق المحلية والدولية ، على حساب الازدواجية العالية ، فحققت هذه النظم بناء مراصد معلومات غنية في كل فرع من فروع المعرفة ، بدلاً من مكتبات ضعيفة ملئى بالازدواجية . وبفضل هذا البرنامج وغيره كإقامة مراكز معلومات متخصصة ذات مقتنيات متعمقة تيسر خدماتها للجميع ، تمكنت هذه النظم الحديثة من سد أعلى نسبة من حاجات البحث العلمي ، في طول البلاد وعرضها .

إن المعلومات دولية الملكية ، وتنشر في أوعية ذات أشكال مختلفة ، ثم تعرض في الأسواق متاحة لكل الشعوب والأمم . وإن أكثر هذه الشعوب تقدماً ، هي التي تجني أقصى فائدة من الثروة العلمية التي تجود بها قرائح الأفذاذ من المؤلفين والباحثين حول العالم .

ومن بين الخدمات التي تقدمها مركزية الإجراءات الفنية هي فهرسة مصادر المعلومات وتصنيفها ، وإعداد البطاقات كاملة من قبل خيرة المفهرسين والمصنفين ، وتعد جاهزة لمن يروم اقتناءها من المكتبات حول العالم . وإن لهذه المهمة ، أهمية قصوى ، مثل : (1) احتوائها على أدق المعلومات الببليوغرافية . مرتبة ترتيباً يعكس

أحدث التقنيات التي تم الاتفاق بشأنها في المؤتمرات الدولية المهتمة بالموضوع ، (2) عامل مهم لتوحيد الفهارس وغيرها من أدوات البحث العلمي في المكتبات ، فتزول العقبات التي تعترض الباحثين أثناء بحثهم أو تفتيشهم عن المعلومات في الفهارس الدولية ، حيثما حلوا وارتحلوا . لأنهم سوف يصادفون نفس التقنيات ، والأدوات التي اعتادوا عليها ، مستخدمة في كل مكان .

ومن أدوات البحث العلمي ، الكشافات والمستخلصات والقوائم الببليوغرافية ، والفهارس الوطنية الموحدة . وبفضل الميكنة ، أصبحت هذه الأدوات توضع بصورة أفضل : أي أكثر تعمقاً ، وشمولاً ، وحداثة ، وأقل كلفة ، بعد استخدام تكنولوجيا المعلومات في إعداد الكثير من إجراءاتها . وهذه هي الميكنة ، أي استخدام التكنولوجيا في بناء الأدوات الببليوغرافية ، وتنفيذ الإجراءات الفنية ، بعد أن كانت تتم يدوياً ، لبناء أدوات تقليدية . إن الهدف من هذا التطور الكبير ، هو توفير خدمات أفضل . لأن الأدوات المميكنة تقدم خدمات أفضل من نظيراتها التقليدية : البطيئة ، والملئى بالأخطاء . وهناك عوامل كثيرة تجعل الأدوات الحديثة أفضل من الأدوات التقليدية منها :

1 — إن الأدوات الحديثة تشارك في وضعها خيرة الخبرات والمهارات ، وتعدها جاهزة مخزنة في مراصد المعلومات ، لاستخدامات جميع المكتبات الأعضاء ، لتحقيق خدمات سريعة لتوفير أوقات الباحثين في التفتيش عن المعلومات واسترجاعها لحل مشاكلهم العلمية ، وإعداد بحوث أجدى ، بعد استعراض الملايين من مصادر المعلومات المخزنة ألكترونياً في مراصد المعلومات الوطنية ، وحتى الدولية .

2 — إن إعداد الإجراءات المميكنة أسرع بكثير من الإجراءات اليدوية ، والواقع لا يوجد وجه للمقارنة بين السرعتين ، وبذلك يمكن إعداد هذه الأدوات الحديثة بصورة سريعة وتقديمها للباحثين للاستفادة من المعلومات الجديدة ، بدلاً من الانتظار لشهور طوال للحصول على الأدوات التقليدية والتي تستغرق الأشهر العديدة ، وفي بعض الحالات تبقى أكثر من عام وهي رهن الإجراءات اليدوية . وإن سرعة الحصول على المعلومات عامل مهم جداً في التنافس الدولي ، ونيل قصب السبق في تحقيق التقدم التكنولوجي والعلمي بين الشعوب والمؤسسات .

3 — إن الأدوات الحديثة أكثر عمقاً وحداثة من نظيراتها التقليدية . والواقع أن هذا هو من أهم الأسباب التي حتمت الميكنة ، وهجر التقليد . لأن لا يمكن تحقيق التحليل الموضوعي المتعمق في ظل الإجراءات اليدوية مطلقاً . في حين أن التحليل المتعمق ضروري لاستغلال أعلى نسبة من المعلومات المنشورة . والتحديث ، هو الآخر من المشاكل الكبيرة بالنسبة للأدوات التقليدية ، وإن كلفته المالية العالية ، تجعله من الإجرءات المستحيلة . فجاءت الميكنة منقذاً للمكتبات ومشاكل المعلومات .

وبذلك تمكنت الدول الصناعية من التغلب على الكثير من المشاكل التي تجابه خدمات المعلومات ، ونشاطات البحث العلمي . وبفضل الميكنة وإجراءاتها الدقيقة والسريعة ، تمكنت هذه الدول من إبداع أحدث التكنولوجيا ، والتي لا تزال لغزاً للكثير من شعوب الأرض ، ولا سيما دول العالم الثالث منها .

نظم المعلومات الوطنية :

إن نظم المعلومات تعني إعادة ترشيد الأهداف الأساسية لمهنة المكتبات والمعلومات وإجراءاتها اليدوية البطيئة بعد أن بان عجزها أمام ثورة المعلومات العارمة ، على ضوء تصميم وبناء مصادر المعلومات الوطنية حسب خطة مركزية مدروسة ، بحيث يمكن اقتناء أعلى نسبة من العناوين المنشورة بالموارد المالية المتاحة لهذا الهدف ، ثم تنظيم ، وتخزين ، وتعبئة هذه المصادر لخدمة المواطنين كافة ، في طول البلاد وعرضها . فنظام المعلومات هو تشكيل منظم ومدروس مكون من مصادر المعلومات وتكنولوجيا المعلومات ، وأشخاص هم مكتبيين وباحثين بهدف بث المعلومات وتوصيلها من المؤلف إلى الباحث ، وهذه وظيفة اجتماعية علمية[3] .

الوظائف الأساسية للمكتبات :

إن للمكتبات من الوظائف الثقافية ، والعلمية ، والاجتماعية ، ما لا حصر لها ، وفيما يلي بعضاً منها :

1 — تزويد القراء من أفراد وجماعات ، بمصادر المعلومات التي هم بحاجة إليها ، وإعداد الإجابات على استفساراتهم العلمية والثقافية .

2 -- من المعروف أن إشباع حاجات القراء العلمية والثقافية من الوظائف الأساسية ، ولكن أهم من هذه جميعاً ، ترغيب القراء ، ولا سيما صغار السن منهم ، بالقراءة ومصادر المعلومات ، لخلق مجتمع يهوى القراءة والثقافة ومتابعة الأحداث . وفي سبيل تحقيق هذا ، على المكتبة أن تهتم ببرنامج العلاقات العامة مع مجتمعها ، وإقامة مكتبة الطفل .

3 -- تعتبر المكتبات عامة ، ولا سيما العامة منها ، مراكز ثقافية ، مؤآتية جداً لإقامة معارض الكتب وغيرها من مصادر المعلومات ، لترغيب الناس بالكتاب وقراءته . ثم ليكون الحديث الدائر على ألسنة الناس هو العلوم ومصادر المعلومات ، الأمر الذي يثري ثرواتهم الفكرية ، ويرفع من مكانتهم الثقافية .

4 -- من البرامج الأساسية في الكثير من المكتبات العامة حول العالم ، ولا سيما في بعض الدول النامية ، تنظيم مواسم ثقافية ، لإلقاء المحاضرات العلمية والاجتماعية ، وغيرها حول المواضيع الحيوية بالنسبة لمجتمع المكتبة ، لكي يفهم المواطنون مشاكلهم ، ويعرفوا كيفية حلها والتغلب عليها بصورة منطقية .

5 -- تنظيم الدروس التعليمية للراشدين كربات البيوت ، على سبيل المثال ، بالإضافة إلى عقد الندوات الثقافية ، وحلقات النقاش ، وعرض الأفلام الثقافية والصحية ، وغيرها من النشاطات والبرامج الثقافية التي تعالج المشاكل القائمة في المجتمع .

6 -- إن نجاح المكتبة في تنفيذ وإدارة البرامج المدرجة أعلاه ، يعتمد على كفاءة المدير وغيره من المكتبيين العاملين في إدارة مختلف الأقسام في المكتبة . لأن المكتبي الجيد يتمكن من أن يستغل مصادر مكتبته الضعيفة لتقديم إجابات مرضية على أسئلة القراء واستفساراتهم . في حين أن المكتبي الضعيف يجهل كيفية استغلال مقتنيات مكتبته القوية لإعطاء إجابات موفقة ، لأنه يجهل الاستفادة من مصادرها . فالمكتبي الجيد يفهم مصادر معلومات مكتبته ، ويعرف مواقعها بالنسبة لبعضها البعض ، ومحتوياتها . وبالتالي ليس من الضروري أن يعرف الإجابة على أي سؤال يرد إليه ، ولكن من الضروري أن يعرف أين يجد الإجابة في مقتنيات مكتبته وغيرها من المكتبات المجاورة والمتعاونة .

7 ــ إن خدمات المكتبة هي ثقافية اجتماعية . وهذه يجب أن تكون مجانية للمواطنين أجمع[4] .

8 ــ اختيار مصادر المعلومات من الكم الهائل الذي ينشر حول العالم ، لبناء مراصد معلومات وطنية ، تهدف إلى سد الحاجات العلمية للباحثين في القطر ، ثم تنظيمها ، وحفظها في ظروف بيئية سالمة لخدمة الحاضر والمستقبل .

9 ــ وبالنسبة للجامعات ، فإن نجاحها في تحقيق أهدافها يتوقف على مدى اهتمامها بمكتبتها ، وكيفية معاملتها لها . إن المكتبة الجامعية هي الجهاز المركزي للتعليم والتعلم والبحث العلمي ، لذلك لا بد من أن توفر الجامعة مختلف الاحتياجات المالية لمكتبتها لغرض إدامة مقتنياتها عن طريق تزويدها بالجديد من مصادر المعلومات . لكي يمكن أن تواكب تقدم الركب العلمي في العالم لفائدة القراء والباحثين . ولذلك تم الاتفاق على أن المكتبة الجامعية الضعيفة . دليل قاطع على جامعة ضعيفة ، عاجزة عن خدمة مجتمعها ، وبالتالي فهي فاشلة في تحقيق مهامها بصورة مرضية[5] .

وفي عام 1967 شكلت لجنة في المملكة المتحدة لدراسة المكتبات الجامعية[6] ، في ذلك البلد ، برئاسة توماس باري ، ثم أصدرت اللجنة تقريراً بعنوان « تقرير باري » يتضمن عدداً من التوصيات ، ومن بينها توصيات تتعلق بوظائف وواجبات المكتبة الجامعية :

إن المكتبة الجامعية هي مركز الاحتفاظ بمصادر المعلومات ذات الأشكال المختلفة : كالمخطوطات ، والمطبوعات ، والمصغرات ، والمسجلات وغيرها . فهي جميعاً تحفظ وترفف في مبان مكيفة لحمايتها من أعداء الورق ، كدرجة الرطوبة العالية ، والجفاف ، ودرجات الحرارة المتباينة ، والغبار ، والأرضة ، وأشعة الشمس المباشرة وغيرها من آفات الكتب والمكتبات . لكي يمكن استخدامها لفترة أطول ، والاستفادة منها بحالة سليمة . ثم تنظم هذه المقتنيات وترفف في مقصورات مفتوحة لاستقبال القراء والباحثين .

فالمكتبة تقتنى من أوعية المعلومات المنشورة ، والتي تمت بصلة لحاجات قرائها ، أي أنها تقع في المجالات الموضوعية لمختلف أقسام الجامعة ، وليس من الضروري

الاستفادة من مقتنيات المكتبة عند اقتنائها . ولكن جميعها سوف تؤدي خدماتها بطريقة أو أخرى . فمنها ما تستعمل كمصادر مقررة في العملية التعليمية ، وهناك القسم الأكبر منها ، وهو ما يستعمل في خدمة البحث العلمي حاضراً ومستقبلاً . فتنظم هذه المقتنيات لاستخدامات منتسبي الجامعة بالدرجة الأولى ، إما عن طريق الإعارة ، وهذه لا بد من أن يكون برنامجاً سمحاً ، لمساعدة الطلاب في تهيئة واجباتهم اليومية ، وكتابة تقاريرهم . ولكي يمكن أن تقوم المكتبة بدورها بنجاح ، لا بد من أن تتمتع بدعم مالي ومعنوي لبناء مقتنيات غنية ، ومواكبة الركب العلمي المتطور . ولكن الدعم المالي السخي لا يكفي لبناء مكتبات ناجحة ، مهما ارتفعت مواردها المالية . لأن المشكلة لا تكمن في الحصول على الموارد المالية الكافية فقط ، ولكن توفير المباني الكافية لإيواء الملايين من مصادر المعلومات التي تنشر كل عام . لذلك أصبح لزاماً على مكتبات البحث العلمي الانضمام إلى بعضها البعض في برناج تعاوني لغرض إقامة نظام معلومات وطني ممكن يحقق التشارك بمصادر المعلومات الوطنية لخدمة المواطنين كافة .. وفي حالة غياب مثل هذا النظام ، على هذه المكتبات التعاون فيما بينها ، ولا سيما المتجاورة منها ، لغرض الرفع من نوعية خدماتها العلمية . فالاتجاه الحديث في مهنة المكتبات والمعلومات هو التعاون ، أو إقامة نظم المعلومات الوطنية وحتى الدولية . وإن التجارب أثبتت فشل أية مكتبة منفردة في سد حاجات قرائها العلمية مهما ارتفعت مواردها المالية ، وكذلك الحال مع نظم المعلومات الوطنية ، ولذلك أخذت مختلف المؤتمرات الدولية والوطنية توصي باستغلال التعاون على مختلف المستويات الوطنية والدولية ، لتوفير خدمات معلومات أفضل . وإن هذا الاتجاه ، أي إقامة نظم المعلومات الدولية هو لصالح شعوب العالم الثالث ، لأنها أفقر ما تكون لمصادر المعلومات العلمية والثقافية .

إن الانضمام إلى نظم المعلومات غير كاف بحد ذاته ، فعلى الجامعات وغيرها من المؤسسات توفير الإدارات العلمية الكفؤة ، لكي تتمكن المكتبات من تنفيذ برامجها العلمية والثقافية بكل دقة ونجاح . وإن توفير الأثاث الجذاب والمريح ، للموظفين والقراء ، في غاية الأهمية ، لتسهيل القيام بالإجراءات الفنية ، وتقديم الخدمات بصورة أفضل ، ومساعدة القراء على التركيز الذهني المتواصل لساعات عديدة وهناك عوامل أخرى منها : نوعية المبنى وسعته ، والإضاءة وهذه يجب أن تكون حسب مواصفات

صحية معروفة تشمل نوعية المصابيح ، وكيفية بنائها . إن الهدوء من ضروريات التركيز الذهني ، والبحث العلمي المثمر ، لذلك لا بد من أن تعمل المكتبات على توفير الجو الهادىء ، بعد كل هذا الإنفاق المالي الهائل لتوفير الخدمات المكتبية الناجحة . إن شعوب العالم على مر التاريخ قد أدركت أهمية المعلومات ومصادرها ووفرت الجو الملائم لبنائها والاستفادة منها . وإن الدراسات التاريخية تبين أن ظهور المكتبات وازدهارها كان ملازماً لبزوغ الحضارات ونشوئها . كما أنه لم تقم حضارة على وجه البسيطة من دون المكتبات العملاقة ، ولنا شواهد كافية في التاريخ القديم والحديث .

وفي عام 1961 ، كتب المفكر الفرنسي أندري موروا André Maurois[7] بأن لا شيء أكثر أهمية للجنس البشري من توفير مصادر المعلومات لتوسيع أفق تفكير الإنسان ومداركه لمزيد من الإبداع والاختراعات التي تطور حياته نحو الأفضل ، وتجعل الفرد أكثر قيمة لمجتمعه ، وهذا هو المواطن الصالح . إن الطريق الوحيد لتحقيق هذا الهدف ، هو بث المعلومات ونشرها بين الشعوب عن طريق إقامة المكتبات . باعتبار أن المكتبة هي مركز لإدارة المعلومات وتوصيلها ، أو أنها الحلقة الوسطى في السلسلة الثقافية والعلمية ، من المؤلف إلى القارىء .

إن المكتبة تفتح الفرص الثقافية والمهنية أمام المواطنين من أطفال وشيب وشباب وغيرهم من الراشدين ، وتبقيهم على اتصال مستمر مع مشاكل عصرهم ، ليكونوا في مراكز الأحداث . ويتفاعلوا في الحياة العامة من جوانبها المختلفة . وتتمكن المكتبة من تحقيق هذا الهدف عن طريق مدهم بالمعلومات الحديثة والكاملة . فالمكتبة تقدم المعلومات خالصة دونما تحيز لكي يتمكن القراء من معرفة الحقيقة ، وإصدار قراراتهم البناءة ، بعد الاطلاع على وجهات النظر المختلفة . ففي مثل هذا الجو السليم يتمكن المواطنون من صياغة آرائهم الخاصة بعيداً عن التلقين أو التدخل القسري . فيتمكنوا من تنمية حاسية النقد البناء في الحياة العامة ، ويعبروا عن آرائهم دونما خوف أو وجل . وهذه هي الحرية الفكرية ، وكيفية تنميتها في المجتمع . بالإضافة إلى رفع مستويات ثقافاتهم ، وتوسيع مداركهم ، وصقل مهاراتهم المهنية . فالمكتبة مركز ثقافي يعمل على دعم التفاهم بين الشعوب ، لكونها تعمل بعيداً عن الدعاية والتحيز السياسي أو الفكري ، فهي مؤسسة ديمقراطية تخدم السلام ، والوئام بين الشعوب قاطبة .

إن المكتبة مركز حضاري حقيقي ، لكونها تعمل على بث المعرفة الإنسانية بين المواطنين لتنير لهم طريق التقدم . فهي قناة عامة تعمل على بث الأفكار الحرة النافعة ، وتوفر الجو الملائم للمواطنين لكي يقضوا أوقات فراغ ممتعة مع الكتاب والمجلة وعباقرة العصور المختلفة . فينموا ثرواتهم الفكرية ، والعلمية ، والمهنية وغيرها . في حين أن منظمة اليونسكو[8] تعتقد بأن المكتبة ، ولا سيما العامة منها ، هي قوة حضارية حية ، تعليمية وعلمية ، بالإضافة إلى أنها أداة جوهرية لدعم السلام ، وتشجيع التفاهم بين الأفراد والشعوب . ولكي تتمكن المكتبة من تحقيق هذه الأهداف السامية ، عليها أن تكون يقظة لترقب تطور الأحداث ، وتغير الحاجات العلمية والثقافية بين القراء والباحثين ، والإلمام بما يستجد من اهتمامات وأولاع ، وما ينشر من مصادر المعلومات ، لكي تعمل على اقتنائها على ضوء المتغيرات في الحاجات ، والاهتمامات والأولاع ، ثم تعد هذه المقتنيات جاهزة لخدمة القراء والمواطنين عامة ، حاضراً ومستقبلاً .

المراجع

1. Glfand, M. A. **University libraries for developing Countries.** Paris: Unesco, 1968. pp. 16-23.
2. Arntz, H. **Planning of national overall documentation, library and archives infrastructure,** Paris: Unesco, 1974. pp. 10-11.
3. Vickery, B. C. **Information Systems.** London: Butter Worth, 1973. p. 1.
4. Harrison, K. C. **the library in the Community.**3rd. ed. London: Grafton Book, 1977. p. 18.
5. "Unesco Regional Saminar on the development of University libraries in Latin America". **Unesco Bulletin for libraries,** vol. 17, Supplement (March - April, 1963), 123-126.
6. Harrison, K. C. **the library in the Community.** op. cit. p. 19.
7. Maurois, André. **Public libraries and their mission.** Paris: Unesco, 1961.
8. Unesco, The Manifesto. Paris: 1972.

المنهج العلمي في التراث العربي

د. محمد خليفة الدنّاع

يتناول البحث المتقصى في هذا المجال حياة الألفاظ وتطور دلالاتها وفق مستويين هما :

المستوى الاجتماعي والمستوى المعجمي .

والذي دعانا إلى هذا الفصل اعتبار المعاجم غير متحكمة في وجوه الاستعمال اللغوي « وإذا أريد بالمعاجم أن تتحكم هذا التحكم في وجوه الاستعمال لم تصبح وصفاً للاستعمال الفعلي للغة ، وإنما أصبحت معايير يقاس بها خير استعمالات الكلمات » .

ووصف الكلمات ورصفها في المعاجم العربية لم يتأت له المنهج العلمي الذي يجب أن يتبع في دراسة مراحل تطور دلالات الألفاظ ، لأن منهج البحث اللغوي على المستوى المعجمي يتطلب أمرين :

1 — الدراسات التاريخية المقارنة في مجال اللغة .

2 — مراعات المستويات الأربعة الآتية :

أ — الوحدة اللغوية المعنوية أو الوحدة الاشتقاقية — كما يسميها الأستاذ الشيخ عبد الله العلايلي وتهتم بالبحث عن الدلالات التطورية للكلمة .

ب — التفرعة بين أبواب الأفعال تبعاً للمعاني .

جـ — إفراد التعدية واللزوم في حد الوارد معجمياً .

د — النص على ميزان الكلمة تمييزاً للزيادة من الأصالة وتوكيداً لنزعة الاشتقاق .

ونقصد بالاشتقاق هنا الاشتقاق اللغوي الذي يراعي التطور التاريخي للكلمات تحت ظروف تغيير مجال الدلالة بالتضييق أو الاتساع وتخصيصها وتعميمها حسب مقتضيات الاستعمال والبحث التاريخي عن الزمرة اللغوية التي تندرج في سمتها طائفة من الألفاظ ، لأن كل لفظين — كما يقرر الإمام أبو إسحٰق الزجاج في كتاب الاشتقاق — اتفقا في بعض الحروف وإن نقصت حروف أحدهما عن الآخر . هما مشتقان ، فالرجل مشتق من الرجل والعقل من العاقول وهذا كله حسب ظهور المعنى ووضوحه بين المشتقين .

وجاء الشاطبي فقرر بإطلاق جواز اشتقاق المجرد من المزيد ، وساق له أمثلة هي أكثر من أن تحصى .

ولا أنكر أننا وقفنا على قضايا دلالية في تراثنا العربي تهتم بتطور الألفاظ وتتبع مراحلها تاريخياً ، ولا نعني بهذه القضايا ظاهرة توقيف اللغة وتواضعها مثلاً ولكننا نريد أن ننبه إلى أن هناك عدة قضايا تناولت كيفية اكتساب اللفظ لمعناه وعلاقته به ودلالته عليه . كما أن هناك قضية أخرى تتمثل فيما يسمى بعوامل نمو الألفاظ مثل الاشتراك اللفظي والتضاد والترادف ، وهناك إضافة إلى ذلك ظاهرة الحقيقة والمجاز ، ولكن هذه القضايا لا يمكن أن تؤخذ على علاتها بل وفق منهج جديد في التناول فعندما يقول ابن جني في الحقيقة والمجاز مثلاً : « الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة والمجاز ما وضع بضد ذلك » يكون قد وضع سؤالاً أمام واضعي المعاجم وهو : كيف يتم تحديد المعنى الأصلي لكلمة ما ؟

ويقدم إجابة هذا السؤال كل عالم معجمي قام بحصر مفردات اللغة وفق طريقة استقرائية تعتمد على المسح والتتبع لأن المعجم يعكس استعمالات الألفاظ عبر عصر أو عصور مختلفة ولا يقوم على الافتراض والتأويل ، ويصدق هنا إلى حد بعيد ما ذهب إليه الأستاذ فيشر إذ يرى أن المعجم يجب أن يشتمل على كل كلمة وجدت في اللغة بلا استثناء وأن تعرض حسب وجهات النظر السبع التالية :

التاريخية — الاشتقاقية — التصريفية — التعبيرية — النحوية — البيانية — والأسلوبية .

فتدرس الكلمة بناءاً على هذه الأسس من حيث :

التطور التاريخي عبر العصور المختلفة لأن الكلمات تحيا وتكتسب دلالات قد تكون متباينة أو مختلفة ، وتندثر وتموت ، ويحصل هذا كله عبر أجيال وأجيال ، وينبغي أن يراعى حتى نتوصل إلى المعنى المراد في حقبة تاريخية معينة ، انظر إلى مادة « ص و م » في معجم موسع مثل لسان العرب لابن منظور ولاحظ تطور دلالتها وأنت تعلم أن لسان العرب حوى مادة كتب خمسة بالإضافة إلى استعمالات عصر مؤلفه :

صام الفرس صوماً وصياماً إذا لم يعتلف ، والصائم من الخيل القائم الساكن الذي لا يَطعَم شيئاً قال النابغة الذبياني :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج وأخرى تَعلُك اللُّجما

ومصام الفرس مقامه وموقفه قال امرؤ القيس :

كأن الثريا عُلقتْ في مصامها
بأمراس كتان على صُمِّ جَنْدَل

وصامت الريح ركدت والصوم ركود الريح وصام النهار صوماً إذا اعتدل ، وصامت الشمس استوت وصامت البكرة لم تدر قال الراجز :

* والبكرات شرهن الصائمة *

يعني التي لا تدور ، وصام النعام صوماً ألقى ما في بطنه والصوم ترك الطعام والشراب والنكاح قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ .

والصوم الامتناع عن الكلام قال تعالى : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ .

وتناول الاشتقاق وفق المنهج العلمي الاستقرائي بمعنى تفريع المعاني والوقوف على الأصول التي تنتمي إليها الفصائل اللغوية ، ويتطلب هذا المنهج الوقوف على علم اللغات

المقارن في حالة تطبيقه على منهج المعجم العربي لأن اللغة العربية تنتمي إلى فصيلة تنقسم إلى شمالية وجنوبية ، والشمالية تنقسم إلى شرقية وغربية ، فالشرقية — كما يقرر جرجي زيدان في كتابه الفلسفة اللغوية — تضم الأكدية — الآشورية البابلية ، وتشمل الغربية الأوجريتية والكنعانية والفينيقية والآرامية ، أما القسم الجنوبي فيضم العربية بأقسامها .. .

ولا بد أن يكون واضع المعجم الذي يتبع المنهج العلمي السليم ذا إلمام بالناحية التصريفية ليقف على تحديد تغيير الصيغ للفظ الكلام أي تصريف الأفعال وتصريف الأسماء . وقد ينتج عن ذلك :

1 — وجود صيغتين أو أكثر في تصريف الفعل أو الاسم وفي تمييز جنس الكلمة من حيث التذكير والتأنيث . وليس من النادر أن تختلف باختلافها معاني الكلمة .

2 — عدم وجود بعض الصيغ التي يمكن استعمالها وفق القياس المتوقع .

ومن الممكن بناء على ذلك ، تحديد المعنى المعجمي ودراسة منهجه وفق معطيات الصيغة الصرفية ، لأن بين الصيغ والتصريف لحمة ونسباً إذ « نجد كثيراً من دلالات الأبنية كما اصطلح عليها الصرفيون تشبه دلالات الأبنية عند اللغويين ، فكلا الجانبين يتحدث في باب الأفعال عن استعمال صيغة فاعل للدلالة على المشاركة الحقيقية للفاعل والمجازية للمفعول نحو خاصم وجاذب والتكثير في نحو ضاعف والموالاة في نحو تابع ثم إن لكل كلمة مفردات من نوعها ومثيلات من نسبها تلتقي معها في مادتها ومعناها فكلمة قطع مثلاً مع تصاريفها الفعلية ومشتقاتها الاسمية هي والأفعال المشتقة منها اقطع وقطع وقاطع وتقطع وتقاطع وانقطع واقتطع واستقطع .

وتصاريفها ومشتقاتها ومصادرها ومصغرات أسمائها تزيد عن مائة وخمسين كلمة .

نلاحظ من خلال هذا السرد أن مفردات العربية تتكون من مجموعات وكل مجموعة تنتمي إلى أصل واحد وتشترك في جزء من مادتها وجزء من معناها وفق البيان التالي :

1 — إنها تشترك في مقدار من حروفها وجزء من أصواتها ، وهي الحروف أو الأصوات الأصلية التي تحافظ عليها ولا تغيرها وهذه الحروف الثابتة في تركيبها والثابتة

في أصواتها تكون عنوان نسبها ودليل ارتباطها بأصلها واشتراكها مع أخواتها ويضع المنهج العلمي لإقامة بناء معجمي سليم يتضح فيه تحديد المعنى معاني الأشكال النحوية في اعتباره ، لأنها صيغ تجدد كل قسم من أقسام الكلام من حيث المعنى وتعطي له مفهوماً يتفق وفصيلته وإن لم يكن ذلك ضمن نظم من الكلام — سياق — إلا أنها تعطي مفهوماً للفصائل والأشكال النحوية لأن « النظام الداخلي للعلاقات هو أساس الوصف النحوي السليم وهو نظام يقرر المعاني على المستوى النحوي في مصطلحات وظيفية مناسبة للغة .

ويجب أن ننبه هنا إلى أن هناك فرقاً بين الصيغة والاشتقاق والبنية والوزن .

أما الفرق بين الصيغة والاشتقاق فيتضح في أن الاشتقاق يصف الكلمات بحسب اشتراكها في الحروف الأصلية أو الزائدة ، أما الصيغة فتصف الكلمات حسب البناء الذي يؤدي إلى المعنى وإن كان متقارباً فهناك كلمات تشترك في أصل اشتقاقي واحد وتختلف في بنائها ، ومن هنا جاء اختلافها في المعنى .

ووفق هذا الرأي نجد أمامنا منهجاً يرسم طريقين لتصنيف الألفاظ في اللغة العربية وهما :

1 — أن تصنف وفق حروفها الأصول ، وقد سار أصحاب المعاجم وفق هذه الطريقة .

2 — أن تجمع المواد التي تتساوى في أوزانها وصيغها وأبنيتها مهما اختلفت في أصولها وموادها .

والرابطة في الطائفة الأولى المادة الأصلية أو الأحرف الثلاثة ، وأما في التصنيف الثاني فالرابط بين الألفاظ المجتمعة في زمرة واحدة ، والعنصر المشترك بينها هو شكل البناء والتركيب والمعنى الذي يتحصل من هذا البناء أو الوزن كما أن هناك منهجاً يعتمد على القسمة الرياضية إلى حد ما ، وقد لجأ أصحابه في كثير من الأحيان إلى الافتراض أي أنه يستبعد الاستقراء اللغوي في بعض الأحيان أو قل لا يركن إليه ، وهو ما يعرف بالاشتقاق الأكبر ، ومن أهم أعلامه أبو الفتح عثمان بن جني ، وإن وجدت جذوره عند الخليل وأحمد بن فارس ، وملخصه أننا إذا وقفنا على الجذر الأصلي للمادة اللغوية أمكننا أن نشتق منه أو نفرع عنه مشتقات أخرى لمواد لغوية قد تكون مستعملة ،

وألا يفرغ كتب سابقيه إلا فيما يخدم منهجه وأن يقوم بتبويب معجمه بطريقة سهلة المأخذ ميسرة للبحث ، وإذا راعينا هذه النقاط وغيرها من النقاط التي ذكرت في ثنايا هذه الورقة ووضعنا معجماً يحمل هذه المواصفات ساعدنا ذلك على تصويب كثير من الاستعمالات التي عدت من لحن العوام .

د . محمد خليفة الدناع

العروبية وأسماء الأعداد (البربرية)

د. علي فهمي خشيم

تثير أسماء الأعداد في اللهجة (البربرية) اهتماماً كبيراً بين الباحثين الذين يحاولون معرفة أصولها ومعانيها ونشأتها الأولى . وهي كانت لدى فريق ذات صلة بالعروبية (السامية) ولدى فريق آخر من دعاة (البربرية) دليلاً على انعدام هذه الصلة حين خُيِّل إليهم أن بعضاً منها لا يمكن العثور على مقابله في العروبية . في هذه الدراسة نتتبع هذه الأعداد ونشأة تسمياتها ونبحث عن أصول هذه التسمية حتى يتبين الحق .

سنتغاضى هنا عن الفروق اللهجوية بين فروع اللهجة (البربرية) ذاتها (ما بين أمازيغية ، شلحية ، ريفية ، طارقية ، جبايلية .. إلخ) حسب النطق وحسب النقحرة (نقل حرفي = Translitiration) من مؤلف إلى آخر . ونعتمد مقالة الأستاذ « زافادوفسكي » المعنونة : (أسماء الأعداد البربرية في ضوء الدراسات الحامية/السامية المقارنة)* إذ يقدمها ، باعتبار جذورها ، من العدد (واحد) إلى (عشرة) كما يلي** : yiWe (une), SNa (deux), KRa T (trois), KKuZ (quatre), SaMMuS (Cinq), SDiS (six), Sa (sept), TaM (huit), TZa (neuf), MRaW (dix).

ونقابلها بالحرف العربي مع حذف الصوائت كما يلي :

و ، س ن ، ك ر ط ، ق ق ظ ، س م م س ، س ض س ، س ، ت م ، ت ز ، م ر و .

(*) Ju. N. Zavadovskij; les noms de nombre berbere à la lumiere des êtudes comparées chamito - Sémitiques, Actes du primier congrés international de linguistique Semitique et chamito, Paris 16 - 19 Juillet, 1964. Mouton, Paris, 1974, pp. 102 - 111.

(**) وضع الباحث تاء التأنيث t في آخر اسم كل عدد وقد حذفناها تسهيلاً على القارىء العربي

(نلاحظ أن القاف المعقودة في « **ق ق ظ** » ليست قافين بل هي قاف مشددة « **قّ ظ** » وكذلك الميم في « **س م م س** » هي ميم مشددة كذلك « **س مّ س** » .

وليست ثمة مشكلة في مقابلة الأعداد (9, 8, 7, 6, 5, 2) فهي تكافأ بالعربية على النحو التالي :

(2) **س ن** (الطارقية essin ، الجبايلية sine الشلحية sin) . العربية : **ث ن** (إ) **ثنـ** (ان) / (إ) **ثنـ** (ين) قارن : النسبة ؛ **ثنائيٌّ/ثنّي** .

(5) **س م س** : الطارقية semmus ، الجبايلية semmous ، الشلحية semmus العربية : **خ م س** < خمش/خمس . أُبدلت الخاء في (خمس) سيناً .

(6) **س ض س** : الطارقية sedis ، الجبايلية sedice ، الشلحية sdis . العربية : **س د س** < ست / ستة .

(7) **س** : الطارقية essa ، الجبايلية euseuea ، الشلحية sa . العربية : **س** (**ب ع**) . سقطت الباء والعين ، كما سقطت الياء (الباء المهموسة) من اللاتينية sept في الإيطالية sette وهي سقطت نطقاً في الفرنسية se(p)t .

(8) **ت م** : الطارقية ettam ، الجبايلية eutame ، الشلحية tam/ttam . العربية : **ث م** (ن) . أُبدلت الثاء المثلثة تاءً ثنائية (قارن اللهجات العربية الحديثة : تمانية = ثمانية) وأُسقطت النون في (**ثمن**) .

(9) **ت ز** : الطارقية tezza ، الجبايلية teuzzeua ، الشلحية tza/ttza . العربية : **ت س** (ع) . أُبدلت السين زايا / أو زايا ثقيلة — وأُسقطت العين من (**تسع**) .

تبقى لدينا الأعداد (1), (3), (4), (10) ، وهي محل النظر .

العدد (1) :

يذكر الأستاذ « زاڤادوڤسكي » صورتين لاسم العدد (1) في حالة المذكر هي عنده : الجبايلية YiW-en والشلحية Ya-n (ونحن نجدها في الطارقية في صورة iyen . انظر : (Cortade, p. 26) . أما في الجبايلية (حسب Hanouz, p. 106) فهي (elli-weune) .

وقد استخلص الأستاذ « زاقادوفسكي » أن الجذر الأصلي لتسمية العدد (1) مكونٌ من (ياء) و (واو) بافتراض إضافة الدال YW(D) — ليقربه من العربية « **و ح (د)** » < « واحد » / « أحد » ، وأن للتسمية صلة بالمصرية « **و ع** » Wc = **واحد** ، وذلك على النحو التالي في حالة التأنيث :

YiWa (D)-t > YiWatt > yiwa - t, **égyptien** Wc (D) - t > Wc - t, **arabe** Wḥd-t ~ aḥd-t.

وتعليقنا على هذا القول يتلخص في النقاط التالية :

أ — لا جدال في صلة العربية (**و ح د**) بالمصرية (**و ع**) ؛ فإن الأولى ليست إلا ثلاثي الجذر الثنائي (**و ح**) الذي يكافىء بالضبط المصرية (**و ع**) بتعاقب الحاء والعين ، ومؤنثها (**و ع ت**) ونجدها في القبطية : **أوحا** ، **أوحاى** ، **أوحاق** (معجم « بدج » ، ص 153) .

ب — هذا الجذر (**وح/وع**) نجده حتى الآن جذراً أحادياً في اللغة النوبية للدلالة على العدد (1) : « وي » wee « وي » /wê (بدر ، اللغة النوبية ص 88 ,163) .

ج — يتبع هذا أن الجذر الأصلي للتسمية (البربرية) ليس الواو والياء ، كما ذهب الأستاذ « زاقادوفسكي » بل **الواو فقط** أما الياء فهي إبدال من الواو ، إسوة ببقية اللغات المذكورة ، المصرية والعربية والنوبية . فالشلحية Ya-n أصلها Wa-n والطارقية iyen أصلها i-we-n ، والياء في الجبايلية YiW-en (طبقاً لزاقادوفسكي) سابقة تقابل الهمزة (i) في الطارقية وليست جذراً أصلياً-يبرهن على هذا ما يذكره Hanouz من صورة الجبايلية elli-Weune كما سبقت الإشارة .

يمكننا القول إذن إن (البربرية) — في مختلف صورها-« كانت أساساً « **و (ن)** » w-n (= wa-n) تقابل بالمصرية (W) ، النوبية (Wee/Wê) والعربية (وح [د]) .

فهل كانت النون في (w-n) أصليةً — رغم أنها لا تظهر في حالة التأنيث* ؟ إننا نجدها في جميع اللهجات ، وأوضحها ما أورده Hanouz (ص 106) : elli-weune (= eL-WN) .

ولنا أن نعتبر هذه النون إبدالاً من اللام ، لقرب مخرج الصوت ، فهي إذن (eL-WL) وهي تكافىء بالضبط العربية « **الأول** » .

نردف هذا التحليل بأن ثمة تسميةً أخرى للعدد (1) في اللهجة الأمازيغية هي (إج) iğ (زافادوفسكي ، ص 105) وتؤنث « **إشت** » iš-t . وهو يقارنها بالأكادية išten (= الأول/العدد "1") وتؤنث في الأكادية « **إشْتِيَتْ** » (išt̆iat) . وهذا مثيرٌ جداً للاهتمام في الواقع وينبغي أن يكون محل بحث وتمحيص ، فإن صلة (البربرية) باللغات العروبية أعمق وأوثق مما هو معروض على المستوى العام .

العدد (3) :

طبقاً لزافادوفسكي (ص 107) هناك صورتان لتسمية العدد (3) في (البربرية) : أولاهما « **كْرَضْ** » kraḍ ومؤنثها « **كْراطْ** » kraṭ-t وهي شلحية ، وثانيهما « **شْرْضْ** » sarḍ ومؤنثها « **شْرْطْ** » šarṭ في اللهجة الأمازيغية (نلاحظ في الطارقية : المذكر : « كِرَاضْ » keraḍ والمؤنث : « كِرَاضِتْ » keraḍet والجبايلية : المذكر : « قِيرَادْ » querad والمؤنث « قِيرَادِيتْ » queradethe .

نحن هنا أمام جذر ثلاثي ، الصوت الأول منه « ك » (k) أو « ش » (š) أو « ق » (Q) . والثاني مشترك « ر » (R) والثالث : « ض » (ḍ) أو « ط » (Ṭ) أو « د » (D) — مع التنبيه إلى اختلاف الحركات ما بين « شَرْضْ » šarḍ حيث تتبع الفتحةُ الصوتَ الأولَ والصوتان اللاحقان ساكنان ، « كْرَاضْ » kraḍ و « كْرَاطْ » kraṭ البادئتين بسكون وتتبع الفتحةُ الصوتَ الثاني ، أما الثالث فهو ساكن ، و « كِرَاضْ » kerad و « قِيرَادْ » querad حيث تتبع الفتحةُ (e) الحرفَ الأولَ ، والثاني مفتوحٌ والثالث ساكنٌ .

(*) هذا ينطبق على الأكادية : العدد (1) عند التذكير هو išten وعند التأنيث : išt̆iat . والعدد (2) المذكر šena والمؤنث šitta .

خلاصة رأي الأستاذ « زاقادوفسكي » أن الأصل الأول للكلمة في (البربرية) كان « **خ ر ت** » ḤRT وأن الراء مبدلةٌ من الميم في المصرية « **خ م ت** » ḤMT التي تعني « ثلاثة » . المصرية ذاتها على صلة بالعربية « **ث ل ث** » بحسب قوانين الإبدال (خ = ث) — (قارن المصرية) **خ م ن** = العربية **ث م ن** < ثمانية) والميم = ل ، والتاء الثنائية = ث . وبذا : **خ م ت** = **ث ل ث** = (البربرية) الأولى « خ ر ت » < ك ر ت < « كِرَاضْ/كْرَطْ/قِرادْ » (kerad, krat, querad) — وحتى « شَرْطْ » šarṭ حسب اللهجة الأمازيغية .

إذا سلمنا بأن الأصل (البربري) البعيد المفترض « **خ ر ت** » يقابل صوتيّاً المصرية « **خ م ت** » كما يكافىء العربية « **ث ل ث** » فإن السؤال الآن هو : ما الأصل الحسي لتسمية العدد (3) ؟

هنا جملة ملاحظات :

(1) من العسير جداً تتبع نشأة « **ثلث** » العربية ، ولكننا نلاحظ أن هذا الجذر الثلاثي نشأ عن الجذر الثنائي « **ث ل** » — وهو إذاً ثُلّث أدّى ، في الغالب ، إلى معنى **الشق والكسر والخرق** . (راجع مواد : **ثلب** ، **ثلع** ، **ثلغ** ، **ثلل** ، **ثلم**) . وترجيحاً فإن مادة « **ثلث** » ينبغي أن تفيد هذا المعنى كذلك ، وان فقد في المعاجم والقواميس .

(2) يؤيد هذا أن مادة « **خ م ت** » في المصرية القديمة تعني « ثلاثة » كما تعني « الصولجان » أو « الرمح بثلاث شعب » Trident* (معجم بدج ، ص 548) كما يؤيده أن العدد (30) يسمى في المصرية « م ع ب ء » m'b' (الهمزة = ل) — وتعني كذلك « حربون » harpoon** (معجم بدج ، ص 281) — العربية « معبل » (مادة : **عَبَلَ**) = « معول » .

(*) تعرَّف في (معجم أكسفورد) بأنها : أداةٌ بثلاث شعب ، أي رمح صيد السمك ، تنسب إلى إلّه البحر (بو سيدون) أو (نبتون) من اللاتينية : سن Tri = 3 + dentis (الثلاثي الأسنان) .

(**) صنارة أو حربة كبيرة لصيد الحيتان ، وهي من اليونانية harpē = منجل . لاحظ وجود الأسنان الكثيرة في المنجل ، وقارن اليونانية harpē بالعربية الجنوبية « **خرف** » = قطع ، والعربية الشمالية « **حَرَبَ** < **حَرْبة** » .

(3) في المصرية أيضاً تفيد مواد « **ك ر ت** » « **ق ر ت** » ، « **ق ر د** » ونحوها معنى : **القطع** ، **والشق** ، **والخرز** . وهذا ما ينطبق على العربية . فإذا أخذنا الأصل المفترض لتسمية الرقم (3) في (البربرية) عند (زاقادوقسكي) وهو « **خ ر ت** » يمكننا ببساطة القول إنه يكافىء العربية « **خَرَتَ** » بالضبط وهو مثلّثٌ من الثنائي « **خ ر** » ويفيد القطع (قارن : **خرب** ، **خرف** ، **خرق** ، **خرم** ، **خرق** ، **خرز** ، **خرط** ، **خرد** ، **خرج** ، **خرع** ... إلخ) ، ويمكننا تطبيق الشيء نفسه على أية صورة من صور نطق تسمية العدد (3) في البربرية المذكورة فيما سبق :

= القطع ، والشق
- krad, ḳeraḍ : كَرَضَ / قَرَضَ
- kraṭ, ḳeraṭ : كَرَطَ / قَرَطَ
- querad : كَرَدَ / قَرَدَ
- šaraṭ : شَرَطَ

وبالإبدال البسيط نجد أن « **خرت** » تفيد القطع في العربية كما تفيده « **كرت** » وكذلك « **حرت** » (بالتاء الثنائية) و « **حرث** » (بالتاء المثلثة) ومنها « المحراث » الذي لا يبعد عن « الرمح » أو « النصل » أو « الحربون » ونحوها ، إذ هو يشق الأرض ويقطعها .

هذا كله يبين أن تسمية العدد (3) في (البربرية) تتفق تماماً مع الدلالة المفترضة للعربية « **ث ل ث** » (= قطع) والمصرية « **خ م ت** » (رمح ثلاثي الشعب Trident) وهي قريبة جداً من العربية « **خمش** » قارن : خمس*) .

العددان (4) ,(10) :

يبدي الأستاذ « زاقادوقسكي » (ص 109 - 111) دهشته من استحالة المقارنة ما بين تسميتي العددين (4) ,(10) في (البربرية) باللغات (السامية) . فجذر الأولى في (البربرية) هو « **ق ظ** » (ḲẒ) ولا صلة له بالجذر العروبي « **ر ب ع** » ،

(*) لا يُستغرب أن تستعمل « خمس » للدلالة على العدد (3) : ففي النوبية تستعمل kemso (= خمس) للدلالة على الرقم (4) . أنظر : بدر ، **اللغة النوبية** ، ص 127 ، أما العدد (5) في المصرية فيسمى idw (العربية : **يد**/ « إيد ») .

وجذر الثانية هو « م ر » (MR) ولا مشابهة له بالجذر « ع ش ر » من قريب أو بعيد . لكن هذا لم يمنعه من محاولة المقارنة بالنسبة لـ « ق ظ » (= 4) مرتين :

أ ــ في الأولى استند إلى الإبدال والتغيُّر الصوتي في ḳ (= k) التي صارت (F) و (Ẓ) التي صارت (D) وبينهما (W) افتراضاً .

[KuẒ]* Wuẓ <* (f) wẓ/ṭ < * FWaD

ويضيف :

"La forme (F) WaD ne contrait pas les données chamito - Semitiques;

égyptien: i FDw

Copte: FTou

Tchadien commun: *PHwa Da

haussa: Hu'Dū~Fu'Du

bolewa: PoDo

bedja: FaḌ ig

margi: Fwá'Dy etc."

ب ــ في الثانية ربط ما بين ḲḳẒ (وقد أُبدلت القاف عنده كافاً = KKẒ) ولهجة فساطو في الجبل الغربي بليبيا KKaḌ (الظاء تنطق هنا ضاداً) وتعني « أصابع اليد » (ص 110) وكذلك ما في اللهجة الجبايلية (جبال الأطلس) ṭi FaD-nin (= أصابع القدم) . ورغم أن جذري الكلمتين صوتياً مختلفان فإن من الجائز استعمال أي منهما للدلالة على العدد (4) وذلك بإهمال إبهام اليد أو القدم ، وبذا نرى أن ḲḳẒ/KKḌ = FD من حيث الدلالة (ص 111) .

ولا شك في أن المحاولة الأخيرة أقرب إلى المنطق ، ولكنها تظل مع هذا تدور في نطاق المقارنة داخل اللهجة (البربرية) بمختلف فروعها ، ولا تبين عن الصلة بالجذر العربي « ر ب ع » الذي جاءت منه « **أربعة** » وهي في (البربرية) : « (أ) ق (و) ظ » ، هذه الصلة ، في الواقع ، ليست **صلة صوتية** ، ولكنها **صلة دلالية** اقترب منها الأستاذ « زاڤادوفسكي » قليلاً ولكنه لم يمض إلى آخر الشوط .

هنا نعود إلى المصرية القديمة (وهي ذات صلة باللغات الأفريقية التي وردت فيها تسمية العدد (4) منذ قليل) . فالعدد (4) يسمَّى في المصرية « **ف د (و)** » Fd(w) ويفيد الجذر « **ف د** » FD : العرق ، الذي هو مرتبط بالحرارة طبعاً . (قارن : لهجة زواوة : أَنِـ/بْـدُو ane/bdu ، ولهجة غدامس : أَنِـ/فْـدُو ane/fdu = صيف/حرارة . Bates, p. 76) هذا الجذر الثنائي في المصرية « **ف د** » هو مقلوب الجذر العربي « **د ف (ء)** » (= حرارة) الذي يقلب « **ف (أ) د** » (= **ف د**) ويفيد الحرارة ، ومنه « **الفؤاد** » أي القلب الذي سُمي كذلك لحرارته « **وفأد** اللحم » = شواه (بالحرارة) .. إلخ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يؤدي الجذر « **ف د** » في المصرية إلى معنى الإحاطة والشمول :

« **إ ف د** » : صندوق ، تابوت — **ifd:** box, chest, sargophagus

« **إ ف د** » : قطعة أرض مربعة — **ifd:** a rectangular plot of land

(معجم « بدج » ، ص 43)

ونستطيع أن نفهم من « صندوق » ، « تابوت » معنى الإحاطة وكذلك معنى التربيع ، كما نستطيع المقارنة في « قطعة أرض **مربعة** » بالعربية : « **فَدَّان** » وفيها كذلك معنى الإحاطة و « التربيع » .

هناك أيضاً :

« **إ ف د** » : يستريح يسكن ، يجلس ifd: to rest, to repose, to sit ونقارنها بالعربية : « ربَّع ، تربَّع ، ربَّخ » /**فطَّى/وطَّى** = قَعَدَ .

لدينا إذن ثلاثة جذور أصلية :

(1) — المصرية « **ف د** » — عربيتها : **د ف (أ)/ف (أ) د** .

(2) — **العربية** « **ح ر ر** » .

(3) — العربية « **ر ب ع** » .

(*) قارن العربية « **عَقَدَ** » ، العقدة : المفصل ، مفصل الإصبع ، والفعل (عَقَدَ) لا يكون إلا بالأصابع .

من المصرية « **ف د** » : « ف د و » = 4 . « إ ف د » : استراحة/سكن . وكذلك « إ ف د » : فدان من الأرض . إلى جانب : عرق ، حرارة ، دفء . ومن العربية « ح ر (ر) » :

(1) حرارة = دفء ، (2) في لهجة شمال أفريقيا (من ليبيا حتى المغرب الأقصى) : حارة = 4 (حارة دَحْي = 4 بيضات) .

(3) في أغلب اللهجات العربية : حارة = مجموعة مساكن ، حي ، جزء من مدينة (حارة اليهود = مجموعة من بيوت اليهود ، مدينة اليهود(*)) .

من العربية « **ر ب ع** » :

(1) ربيع = فصل الدفء والحرارة . (2) رَبْعٌ = مسكن . (3) رَبْعٌ = مرعى ، حقل ، فدّان . (4) رَبَع < أربع/أربعة ... إلخ . (5) رَبَعَ < الحُمَّى الرَّبْعية = شديدة الحرارة .

ثمة إذن صلة وثيقة بين (« ف د »/دفأ/فأد) و (حرر) و (ربع) وتسمية العدد (4) في المصرية والعربية من جهة ، ودلالة الحرارة من جهة أخرى.ويمكننا ، قياساً ، تطبيق الشيء نفسه على (البربرية) التي نجد فيها جذر تسمية هذا العدد : « **ق ظ** » kẓ وهو الذي يقابل بالضبط العربية « **قيظ/قوظ** » (جذرهما الثنائي المشترك : **ق ظ**) . وهو جذر عروبي يفيد : الدفء/الحرارة/الربيع :

السبأية : « **ق ي ظ/ق ي ض** » = صيف (معجم بييلّا ، ص 453) .

الكنعانية : (نقوش أوغاريت) : « **ق ي ظ/ق ظ** » = صيف .

(معجم غوردن ، ص 266) .

العربية : « **قَوَظَ** : ... **القوظ** في معنى **القيظ** » .

« **قَيَظَ** : القيظ صميم الصيف ، وهو حاقُّ الصيف .. **والمقيظ** والمصيف واحد .. **والقيظ** حمارَّة الصيف » . (ابن منظور : لسان العرب) .

(*) وفيها معنى الإحاطة (من : حَيَطَ/حَوَطَ < حائط = جدار ، مدينة ... إلخ) . وفي اللهجة العامية المصرية « **طورا** » Ṭōrā (بتاء ثقيلة) = 4 ، وقد حاول بعض الباحثين ربطها باليونانية Tettare(s) وأيضاً Tessare(s) = 4 لكننا نقرنها بجذر العربية « طَوَرَ » (= أحاط) ، فهو أقرب .

المسألة إذن مشتركة الدلالة في تسمية العدد (4) والاختلاف لا يتعدى استعمال لفظٍ مكان لفظ والمعنى واحدٌ : (« **ف د / دفء** ») في المصرية ، « **ر ب ع** » في العربية ، و « **ق (ي/و) ظ** » في (البربرية) .

السؤال الآن : ما هو سر العلاقة بين تسمية العدد (4) **والحرارة** — كما رأينا ؟

والإجابة عن هذا السؤال ليست هينة ، فقد يكون هذا السر كامناً في المعنى الحسي لدفء المسكن المحيط ، المربع الشكل عادةً ، وقد يكون في « الزيادة الدافئة » التي حدثت في عدد فصول السنة ، إذ من المعروف أن عدد فصول السنة كان في مصر القديمة ثلاثةً فقط ، يحوي كل منها أربعة أشهر . والظاهرة نفسها نلحظها في ما هو مسجل عند عرب الجزيرة : إذ يبدو أنه كان ثمة ثلاثة فصول فقط في السنة ؛ فصل الشتاء (= المطر) ثم فصل الدفء والحرارة ، وفصل الخريف (= قطف الثمار . مادة « **خرف** » = قطع وقطف) . ولعل هذا هو السر في أن **معنى** « **الصيف** » **و** « **الربيع** » **واحد** (= الدفء) أما ما نعرفه اليوم باسم « الصيف » فقد كان يسمى فصل « **القيظ** » (= الحرارة الشديدة) .

يقول ابن منظور في مادة (**قَيظَ**) :

« ... فصول السنة : منها فصل الصيف وهو فصل ربيع الكلأ ، آذار ، ونيسان ، وأيّار . ثم بعده فصل القيظ حزيران ، وتموز ، وآب ، ثم بعده فصل الخريف أيلول وتشرين (أول) وتشرين (ثاني) ، ثم بعده فصل الشتاء كانون (أول) وكانون (ثاني) وشباط » .

وطبقاً للتقسيم المصري القديم فإن **السنة ثلاثة فصول** ، كل فصل به أربعة أشهر ، ويبدو أن الشيء نفسه كان عند عرب الجزيرة وبذا يكون « الصيف » أربعة أشهر ، أوائله « الربيع » (= الدفء) وأواخره « القيظ » (شدة الحرارة) والدلالة في الاثنين واحدة وإنما الاختلاف في الدرجة ليس غير .

العدد (10) :

يبدي الأستاذ « زاڤادوڤسكي » حيرته أمام انعدام الصلة الصوتية ما بين الجذر (البربري) (**مرو**) mrw والجذر العروبي « **ع ش ر** » cŠR . وهذا واقعٌ ، غير

أن بحثنا ينبغي أن ينصب على **الصلة الدلالية** ، كما حدث في تسمية العدد (3) . وهو أشار إلى أن العدد (10) يُسمَّى في المصرية القديمة « **م ذ** » MḌ وفي المصرية الجديدة « **م د** » MD وهو في القبطية « **م ت** » MT . غير أنه لم يتعرض للمقارنة **الدلالية** ، كما سنفعل ، وإلا كان وصل إلى غاية واضحة .

الرقم (10) نجده حسب النقحرات المختلفة :

في الطارقية : meraw (Cortade, p. 26)

في الشلحية : mraw (Aspinon, p. 252)

في الجبايلية : merawe (Hanouz, p. 106)

وهي لا تخرج عن الجذر MR (w) .

السؤال هو : من أين جاءت العروبية « **ع ش ر** » ومنها العربية : « عشرة/عشر » ؟

إنها أساساً تعني **الكثرة والوفرة والاجتماع** . ومن ذلك : العشيرة والمعشر ، أي الجماعة والجمع ، والتعشير : زيادة وتمام (انظر مادة « **عَشَرَ** » في اللسان) . كما تفيد الإحاطة والشمول أي **التمام والكمال** .

(قارن القرآن الكريم : تِلْكَ عَشَرَةٌ **كَامِلَةٌ** — البقرة : 196) .

هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن ما يسمَّى « الأعداد الدوَّارة » أو « الكاملة » (1000, 100, 10) تفيد أساساً الكثرةَ والإحاطة ، خاصية **الماء** في التصوُّر القديم ، والمعاصر أيضاً ؛ ذلك لأن التصور القديم يرى الماء « محيطاً » باليابسة في شكل دائري ، وهذا هو الواقع فعلاً ؛ فإن الماء محيطٌ بالقارات والجزر وهو يمثل أربعة أخماس سطح الكرة الأرضية . والملاحظة الثانية أن كلمةً تفيد الماء تستعمل في لهجة لتدل على أحد العددين (10) ,(100) بينما تستعمل كلمة أخرى تفيد المعنى ذاته بلفظٍ مختلف .

خذ العربية « **مائة** » (100) . وليس من جدال في أن أصلها « **ماءة** » (مؤنث « ماء »)* وهي كانت تنطق هكذا ، ثم كُسرت الميم نُطقاً بينما ظلت الألف الدالة

(*) لسان العرب ، مادة « مَأَى » : « مَأَى » = بالغ ، وسَّع = أَكْثَرَ . وكذلك مادة « مَوَهَ » .

على النطق الأصلي مكانها . وفي المصرية استعملت « **ش ن . ت** » Šn.t (مؤنث « **ش ن** » = محيط ، ماء) . (قارن العربية « **شنـ (ن)** » لتسمية العدد (100) .

في المصرية أيضاً استعملت « **م ذ (و)** » و « **م د (و)** » للدلالة على العدد (10) وتفيدان في المصرية (المائية) كذلك . (قارن العربية في مادتي « **مذي** » و « **مدي** ») بينما استعملت (البربرية) الجذر « م ذ/م د » بدال مفخمة حتى تبلغ الضاد في الطارقية « تِمْضَا » Te/mḍa (Cortade, p. 26) لتعني (100) ، واستعملت الجبايلية medah لتعني (1.000) (Hanouz, p. 107) .

نعود إلى الجذر MR(w) الذي استعملته اللهجة البربرية في مختلف فروعها للدلالة على العدد (10) فنجده في المصرية القديمة يعني « **الماء** » في مختلف حالاته* ، وهو في العربية في مادة « **مَوَرَ** » .

« **المَوْرُ** : الموج ... ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ . قال في الصحاح : تموج موجاً .. ومَارَ الدمع والدم : سالَ » (لسان العرب) .

ويضيف (اللسان) أن « **المَوْر** : **الدوران** » . وهذا ينطبق على دلالة الإحاطة والشمول التي أشرنا إليها من قبل .

ملاحظة أخيرة :

في تسمية العدد (100) استعملت الشلحية « مْيَا » mya (Aspinion, p. 253) كالعربية « مائة »/« مِيَّة » ، واستعملت الطارقية « تِمْضَا » temḍa (Cortade, p. 26) والتاء في بدايتها للتأنيث والجذر هو « **م ض** » = (م ذ/م د) . بينما تستعمل الجبايلية Te.wineuste (حسب Hanouz, p. 107) .

وقد تبدو هذه الكلمة غريبةً أول الأمر ، ولكن الغرابة جاءت من نقحرة الكلمة بالحروف اللاتينية ، فإن الجذر الساكن في الواقع هو « **ت — و ن س ت** » T.wnst وتحليلها كما يلي :

(*) انظر الجذر MR ومشتقاته في « معجم بدج » مثلاً .

« ت » علامة للتأنيث بادئة .

« و ن س ت » : مكوَّن من مقطعين :

(1) « و ن » = واحد (قارن تحليل تسمية هذا العدد فيما سبق) .

(2) « س ت » = المصرية القديمة s(n)t < > Š(n)t .

(« س ن ت » = 100)* .

الطريف أن الجبايلية استعملت ta medah للدلالة على العدد (1.000) بينما هو في الشلحية « أَلْف » alf كالعربية . لكننا نجده في الطارقية « أجم » aǧem (نفس المصادر السابقة) وفي الطارقية « أجم ن أجم » تعني : مليون ، ألف ألف .

الألف المهموزة في بداية الكلمة سابقة زائدة ، والجذر هو « ج م » ǧm**. قارن مادة « جم » في العربية تجد أنها تفيد الماء ، وكثرته بالذات ، ومادة « جمي » تفيد الاجتماع (قارن « أَلْف » من مادة أَلَف » < الائتلاف ، التآلف = الاجتماع) .

(*) عند (غاردنر) šnt = šṯ = حبل (دائر) ، العدد (100) .

(Gardiner; Egyptian Grammar).

قارن الانلكيزية centuary ومشتقاتها (= قرن ، مائة سنة) ، والفرنسية cent = مائة . وكذلك ceinture = نطاق ، حزام/دائري .

(**) من المرجح أن تكون الجيم هنا مبدلة من الياء ، وهذا ما يسمى في لهجات بعض قبائل الجزيرة العربية : العجعجة (انظر مثلاً : عبد الصبور شاهين ، في التطور اللغوي ، ص 62) . وعليه فإن « (أ) جم » التارقية هي « يم » العربية = بحر ، أي : كثير ، غزير . و « (أ) جم ن (أ) جم » = « يمُّ اليمِّ » ، أي : بحر البحور = كثرة الكثرة = ألف ألفٍ .

المراجع

بالإضافة إلى دراسة الأستاذ « زاقادوفسكي » المشار إليها :

(1) ابن منظور ، **لسان العرب** .

(2) بدر ، محمد متولي ؛ **اللغة النوبية** ، القاهرة 1955 م .

(3) Biella J. C.; **Dictionary of old south Arabic**, Harvard, USA, 1982.

(4) Budge, W.; **An Egyptian Hieroglyphic Dictionary**, Dover Publications, New York, 1978.

(5) Cortade, J. M., **Essai de Grammaire Touareg**, Alger, 1969.

(6) Dallet, J. M.; **Dictionnaire Kabyle - Français**, SELAF, Paris, 1982.

(7) Gardiner, A.; **Egyptian Grammar**, Oxford, 1973.

(8) Hanouz, S.; **Grammaire berbère**, Paris, 1968.

(9) **Oxford Classical Dictionary**.

(10) Riem schnieder; **Lehrbuch des Akkadischen** (English Translation: **An Akkadian Grammar**, Marquette University Press, Wiscounsin, USA, 1975.

وثائق غير منشورة عن الثورات الداخلية في ليبيا
(1836 — 1858 م)

د . ابراهيم أحمد المهدوي

تشير بعض الوثائق الأرشيفية المحفوظة في ارشيف ليفورنو والمتعلقة بمراسلات قناصل دوقية توسكانة المقيمين بطرابلس[1] بالإضافة إلى نوابهم المقيمين في بنغازي خلال تلك الفترة الزمنية الممتدة من 1836 م إلى 1858 م أي مع بداية تولي طاهر باشا حكم طرابلس وتنتهي مع نهاية حكم عثمان باشا لطرابلس . إذ تشير مراسلات أولئك القناصل التوسكانيين إلى تصاعد رياح الثورة في البلاد ضد الحكم التركي البغيض .. كما أن تلك الوثائق ترجع أسباب اندلاع الثورات الداخلية الأهلية في ليبيا إلى أسباب سياسية واقتصادية . هذا بالإضافة إلى أن هذه الوثائق تورد أيضاً معاملة الأتراك القاسية والمتغطرسة لأبناء البلاد من الثوّار .

إن غطرسة الأتراك وقهرهم لأبناء الشعب ساعدت في الواقع على ازدياد النقمة وانتشار التذمر ضدهم ، إذ كان الأتراك سواء كانوا جنوداً أو حكاماً قياديين ينظرون إلى أبناء الشعب الليبي نظرة فوقية مليئة بالتكبر والغطرسة ، وكانوا يعتبرون أنفسهم سادة لأولئك المقهورين .. وقد ساعدت هذه المعاملة السيئة على نشوء طبقة اجتماعية جديدة عليا دخيلة في تركيبة المجتمع العربي الإسلامي الليبي ، مما جعل المواطن البسيط يشعر بأن أولئك الأتراك ليسوا حماة للإسلام كما يدّعون .. فالإسلام ضد الطبقية

---

(1) كانت أغلبية الوثائق أو المراسلات تحمل توقيع جوفاني روسوني قنصل توسكانة بطرابلس .. ونائبه فيليب روسوني المقيم في بنغازي .

الاجتماعية ولا فرق بين المسلمين فكلهم سواسية ، ولا يستبعد أن ذلك راجع إلى أن أغلبية الحكام الأتراك في ليبيا خلال تلك الفترة التي اندلعت فيها الثورات الداخلية قد استعانوا بجنود الانكشارية الذين كان أغلبهم من أصل ألباني كان معظمهم قد اعتنق الإسلام حديثاً فهم لا زالوا خلال تلك الفترة الزمنية يضمرون حقداً للمسلمين والإسلام ، خاصة وأن معظمهم قد أجبر على اعتناق الإسلام منذ صغره ... هذا على الرغم من وجود شخصيات بارزة عديدة منهم يعتبرون من المسلمين المتمسكين بالدين الإسلامي قولاً وعملاً ، إن سلوك كثير من أولئك الجند كانتهاك الحرمات والسرقة[2] والإعتداء على الأفراد قد أدى بالتالي إلى نفور كثير من القبائل منهم . وقد تكبدت البلاد الليبية ديوناً ضخمة بسبب سوء تصرف الحكام الأتراك ، وكان القره مانليون من بينهم ... وعلى الرغم من أن يوسف باشا في بداية حكمه كان من أبرز البشاوات القره مانليين الذين قاموا بإصلاحات كثيرة في البلاد مما أدى إلى انتعاش .. بل وازدهار الحالة الإقتصادية فيها .. إلاّ أن إسرافه وبذخه كذلك طمعه وسوء معاملته لمواطنيه الليبيين قد أدى بالتالي إلى فرض كثير من الضرائب الباهظة على السكان المحليين وذلك بعد أن أجبرته بعض الدول الأوروبية على اتفاقية تحريم الجهاد البحري دولياً « القرصنة البحرية » . التي كان يستخدم فيها مثل درغوت سابقاً المواطنين المحليين للبلاد من قبائل ترهونة[3] وورفلة بصفة خاصة كبحارة على متن تلك السفن البحرية . وقد أصاب توقف تجارة القوافل بسبب تحريم تجارة الرقيق بالإضافة إلى تحريم الجهاد البحري في البحر المتوسط دويلات الشمال الإفريقي ومنها ليبيا بنكسة اقتصادية حادة أدت إلى ندهور الوضع الإقتصادي مما أدى إلى ازدياد ضخامة ديون البلاد .. وقد حاول الباشا يوسف القره مانلي في أواخر حكمه للبلاد التخلص من تلك الديون بكافة الوسائل

---

(2) يروي أحد شهود العيان ، أن الجنود الأتراك كانوا خلال أواخر الحكم التركي في ليبيا .. يقومون بسلب الفلاحين البسطاء في الأرياف ، حيث كانوا يستولون على مواشيهم .. هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا غالباً ما يطلبون من أولئك الفلاحين الفقراء إقامة وليمة غذاء لهم .. وعندما يقدم لهم الأكل .. يمتنعون عن تناوله حتى يُدفع لهم مبلغاً من المال مقابل مضغ أسنانهم للطعام المقدم إليهم من المضيف .

(3) CAMILIO MANFRONI, L'Italia Nelle Vicende Marinare della Tripolitania, Milano, A. Airoldi. 1934, pp. 71-72.

باللجوء دائماً إلى عدة حلول منها سك عملات نقدية جديدة للبلاد واستبدالها بأخرى بسرعة بعد طرحها في السوق مباشرة[4].. ولكن هذه الحيلة وغيرها لم تسعفه فأصبح يعاني من الديون مما جعله يلجأ إلى فرض ضرائب على السكان ... كانت في الواقع ضرائب باهظة ساعدت على انتشار التذمر بين سكان البلاد خاصة سكان الأرياف .

إن سوء الحالة الاقتصادية للبلاد التي كانت تعاني في الواقع من قلة سقوط الأمطار راجع إلى ذلك الجفاف الذي تسبب في بعض السنوات في انتشار المجاعة بين السكان مما أدى إلى ظهور جماعات مسلحة من أفراد القبائل تحترف النهب والسلب ... وبالتالي خرق قوانين الأمن في البلاد ، والخروج عن طاعة الباشا نفسه الذي حاول إعادة الأمن إلى البلاد فلم يستطع فتلاشت قوته التي حاول مراراً بسطها على القبائل من السكان ، هذا بالإضافة إلى ما كان يعانيه البيت الحاكم بالقلعة من مشاكل وخلافات سياسية حول تولي السلطة مما أدى إلى تنازع الأخوة فيما بينهم ... ذلك النزاع الذي شطر البلاد إلى قسمين هما الريف والمنشية .. مما جعل زعماء القبائل يستغلون هذه الفرصة التي كانت مواتية للإمتناع عن دفع الضرائب إلى السلطات وبالتالي التخلص من حكم القره مانليين الذي كان في الواقع قد أخذ يجر البلاد إلى الهاوية ، كل ذلك جعل الباب العالي في القسطنطينية يسرع في إتخاذ تدابير صارمة للتخلص من حكم القره مانليين في البلاد وذلك بتعيين باشاوات جدد ، وقد سارعت سلطات الباب العالي بالفعل إلى تعيين مصطفى نجيب باشا و لم يبق سوى بضعة أشهر في الحكم حتى تم تعيين محمد رئيف باشا عام 1835 م وعزمي أفندي كمساعد له .. وترحيل أسرة الباشا يوسف القره مانلي السابق إلى تركيا .. وذلك للتخلص منهم بعد أن أنهارت البلاد اقتصادياً وسياسياً ، مما جعل كثيراً من الدول الأوربية ومن بينها بريطانيا تسارع للمطالبة باسترجاع ديون رعاياها ، حيث يورد السنيور جيوفاني روسوني في رسالة موجهة إلى حاكم ليفورنو بتاريخ 16 مايو 1836 م مجيء القنصل البريطاني السيد هـ . وارنجتون H. WARINGTON إلى طرابلس على ظهر الطراد الإنجليزي Favorite بقيادة الكابتن ر . موندي R. MUNDY للمطالبة بديون الرعايا الإنجليز على أيالة طرابلس والتي

(4) **G. Cimino: Storia E Numismatica dell'Africa del Nord. LIBIA, Anno 3. N. 3. Maggio-Giugno. 1927.** pp. 223-224.

بلغت قيمتها حوالي 400.000 ريال (أربعمئة ألف ريال) والتي تراكمت على البلاد خلال عهد أواخر باشاوات القره مانلية ، حيث كان الأمراء القره مانليون يعيشون في حياة البذخ والإسراف بينما كان الشعب في ليبيا يعيش حياة الفقر وعرضة لفتك الأمراض .

وفي عهد الباشا محمد رئيف ومساعده عزمي أفندي ازداد انتشار التذمر بين سكان البلاد فاندلعت ثورة القبائل التي استمرت حوالي 23 عاماً (1835 — 1858 م) .

ان ازدياد تذمر القبائل الليبية في دواخل البلاد جعل الباشا محمد رئيف يخشى الوقوع في قبضة تلك القبائل أو عرضة للإغتيال من قبل رجال أحد تلك القبائل الثائرة ضده .. مما جعله يختار مسكناً خاصاً به خارج المدينة وذلك وسط حراسة جنوده حيث اختار فيلقاً من القوات الخاصة المدربة لحراسته من نقمة سكان المدينة أيضاً .. على الرغم من وصول إمدادات هائلة له من الباب العالي بالقسطنطينية .. وقد حاول الباشا محمد رئيف أثناء فترة حكمه للبلاد إخضاع تلك القبائل العربية الثائرة ضد السلطة التركية ... فاعتمد على أسلوب تكتيكي هدفه اخضاع القبائل تدريجياً ، إذ بدأ بإرسال حملة عسكرية بقيادة طاهر باشا لإخضاع قبائل مصراتة عام 1836 م ، وقد تم تدعيم تلك الحملة العسكرية التركية التي كانت مكونة من ستمئة جندي من جنود الخيالة بامدادات وجنود آخرين وذلك من أجل احتلال مصراتة ، كما أن الباب العالي قد أرسل إمدادات عسكرية إلى طرابلس بهذا الخصوص ، حيث وصلت هذه الإمدادات بناء على طلب الباشا إلى مدينة طرابلس في 27 يونيه 1836 م[5] وكانت عبارة عن مجموعة من القطع البحرية الحديثة التي كانت تتكوّن من : فرقاطتين ، أربع سفن حربية متوسطة الحجم سريعة ، سفينتين طراد بحرية ، سفينة كبيرة حربية ، سفينة سكونير بالإضافة إلى تسع عشرة سفينة نقل وتموين كان على متنها حوالي ثلاثة آلاف جندي نظامي من بينهم ثلاثمئة فارس . وقد اشتركت القوات البحرية في حملة الأميرالاي العثماني طاهر باشا ، حيث شاركت ثلاثة زوارق حربية سريعة بالإضافة

(5) رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 10 يوليو 1836 م .

Doc. N. 215.

A. S. L. F. Governatore F. N. 889.

إلى ثماني سفن نقل وتموين .. وقد ازداد جنود تلك الحملة العسكرية ضد مصراتة حتى وصل تعدادهم إلى أربعة آلاف جندي كان معظمهم من الأتراك بالإضافة إلى العرب المجندين .. وقد تم إنزال القوات التركية على ساحل مصراتة بينما تمت محاصرة مصراتة بقوات برية بلغ تعدادها ثلاثة آلاف جندي . ان حشد هذه القوات الهائل — برية وبحرية — قد جعل زعماء العرب المتمردين غير قادرين على مواجهة هذا الزحف ، فسقطت مصراتة بعد شن ثلاث هجمات شرسة من قبل قوات الحملة العسكرية التركية بعد أن خسر الأتراك في تلك الهجمات حوالي أربعمئة جندي كان من بينهم بعض المجندين العرب ، وقد استطاع عثمان الأدغم آغا قائد الثورة في مصراتة الإلتجاء إلى الجبل ثم الهروب فيما بعد إلى مصر .. وبعد تلك الحملة التركية ضد مصراتة انتشر التذمر بين سكان ليبيا في كل من بنغازي وغريان بالإضافة إلى مصراتة نفسها حيث أخذ المواطنون من الأهالي يقاومون السلطات التركية والامتناع عن دفع الضرائب الطائلة التي كانت تفرضها تلك السلطات عليهم .

وعندما جاء الباشا حسن (1837 — 1838 م) إلى الحكم بطرابلس حاول بإيعاز من نائبه عسكر باشا سحق الثورة بكل قوة بالإضافة إلى أن الباشا نفسه حاول اتخاذ اجراءات صارمة للحد من تذمر المواطنين داخل طرابلس وذلك بمنع المواطنين العرب من الخروج ليلاً خوفاً من التحاقهم ببقية الثوّار ، هذا كما منع سكان مدينة طرابلس من حمل الأسلحة أو حيازتها ، أما الخروج إلى الصيد فكان يتم بموجب تصريح من الباشا نفسه ، وغير ذلك من الأوامر التي بدأ سريانها في مدينة طرابلس ابتداء من يوم الأحد الموافق 26 نوفمبر 1837 م[6]. ولكن هذه الأوامر التي كان يهدف الباشا حسن من ورائها إلى المحافظة على الأمن والاستقرار داخل مدينة طرابلس التي كان يتمتع فيها الرعايا الأجانب والمقربون من الباشا العربيد ونائبه باحتكار التجارة ، مما جعل السكان يقاومون بكل صلابة وعناد أوامر الباشا حسن ونائبه اللذين كانا قد قررا ضرورة سحق الثورة الأهلية والانتقام من قادتها[7] في جميع مناطق البلاد بكل قوة وعنف ... ذلك

(6) رسالة القنصل التوسكاني في 28 نوفمبر 1837 م .

Doc. N. 108. A. S. L. F. Governatore F. N. 890.

(7) استطاع الباشا حسن القبض على قائد الثورة في مصراته عثمان الأدغم آغا .. حيث أرسله مع

الأسلوب الذي أدى إلى سخط الأهالي وتمسكهم بجدية المقاومة .

ولقد أدى عدم استقرار الأمن في البلاد إلى تدهور الحالة الاقتصادية بحيث لم يبق لدى التجار الأوربيين ما يشترونه وما يبيعونه .. وذلك بسبب تعنت سكان البلاد وعدم خضوعهم للحاكم التركي على الرغم من انتشار الأوبئة كالطاعون بالإضافة إلى المجاعة والفقر بين أولئك السكان الذين كانوا يكرهون حسن باشا ونائبه عسكر باشا اللذين لم يستطيعا إيجاد حلول عاجلة للمجاعة والفقر المنتشر بين السكان .. مما أدى إلى دفع بعض القبائل للإغارة على المناطق والمدن الخاضعة للأتراك فانتشرت الفوضى والإخلال بالنظام وعدم الاستقرار والطمأنينة في البلاد .. حيث قام الشيخ عبد الجليل زعيم قبيلة أولاد سليمان وغيرها من القبائل المتحالفة معه بشن هجمات شرسة على مصراتة مما أدى إلى قتل كثير من المجندين المصراتيين مع السلطات العثمانية وغنيمة خمسة آلاف رأس ماشية[8] (أغنام ، أبقار ، خيول .. ابل .. الخ) ولم تستطع قوات الحامية التركية في هذه المنطقة مقاومتهم لمنعهم من عمل ذلك .

وعندما فشل حسن باشا في القيام بأيّة إصلاحات ترضي سكان البلاد وإعادة الاستقرار والأمن بين المواطنين .. تم استدعاؤه إلى القسطنطينية ، حيث تم تعيين بدلاً منه عسكر علي باشا ليحكم البلاد . وكان عسكر علي كما يصفه روسوني قنصل توسكانه بطرابلس في مراسلاته مع حكومة بلاده .. رجلاً فظاً قاسياً ماكراً أنانياً ، يبلغ من العمر 45 عاماً عندما تولى حكم البلاد[9] — وقد ترك الباب العالي له حرية التصرف لإخضاع السكان في ليبيا للسلطة العثمانية ... وعلى الرغم من أن القبائل العربية في ليبيا كانت غير راضية عن تعيينه باشا جديداً لطرابلس .. وقد حاول الباشا عسكر

= ابنه ونفر من اتباعه إلى تركيا ...

للمزيد انظر :

Rossi, E. Storia di Tripoli... op. cit., p. 302..

(8) Doc. N. 9. A. S. L. F. Governatore F. N. 890.

رسالة القنصل التوسكاني في 1838.8.4 م .

(9) Doc. N. 10. A. S. L. F. Governatore F. N. 890.

رسالة قنصل توسكانة في 1838.8.31 م .

علي في البداية كسب مودة زعماء القبائل بالمودة واللين فأغدق الهدايا عليهم حتى يقبلوا الخضوع والإستسلام للسلطة ، ولكن انتشار الثورة حال دون ذلك ، فأمتدت الثورة لتشمل القبائل التي كانت تسكن المناطق المجاورة لمدينة درنة[10]. وقد سارع الباشا عسكر علي لمصالحة كافة القبائل العربية الثائرة في دواخل البلاد ... وذلك لأنه كان يخشى أن تمتد الثورة إلى مناطق أخرى ، وبالفعل فقد استطاع عقد مصالحة ودية مع زعماء تلك القبائل المجاورة لمدينة درنة مقابل دفع ضريبة سنوية جديدة للحكومة التركية بطراح تتراوح قيمتها ما بين أربعين إلى خمسين ألف ريال شرط أن يتولى السلطة تركي شرقي في تلك الأقاليم الثائرة ... أما فيما يتعلق بمسئولية الحفاظ على الأمن في تلك الأقاليم فيجب إسنادها إلى بعض الشخصيات المحلية[11] ، وبالرغم من التوصل إلى اتفاق ودي مع السكان العرب ... إلاّ أن الثورة لم تتوقف بل استمرت في الانتشار حتى عمت بنغازي مع بقية المناطق المجاورة لها .. ويختتم القنصل التوسكاني رسالته المؤرخة في 23 نوفمبر 1839 م حول هذا الموضوع قائلاً « إني أشك في مقدرة الباشا عسكر علي وقواته في إخضاع هؤلاء العرب المتمردين على الحكومة العثمانية ... لأن القيام بذلك العمل يحتاج إلى وقت طويل كاف ... هذا بالإضافة إلى أن الأتراك لا يستطيعون التصرف والتحرك ضد الثوار الذين كانوا يتوغلون في المناطق الصحراوية الداخلية للبلاد ... مما يجعل من المستحيل جداً على الباشا عسكر علي أو غيره إخضاعهم بسهولة .. »[12] وفي الواقع فإن قسوة وغطرسة الباشا عسكر علي لم تفده في تقريب زعماء القبائل للإلتفاف حوله ومساندته .. بل أدت إلى نفور أولئك منه مع الإستمرار في مقاومته ... حيث قام الشيخ عبد الجليل زعيم أولاد سليمان مع بقية القبائل المتحالفة معه بشن هجوم على الأتراك في تاجوراء وقام رجاله بسلب مدخرات السكان من الحبوب والزيوت ... وسكب كميات هائلة من زيت الزيتون على الأرض وذلك للتخلص من الكميات الهائلة من الزيت التي كانوا قد حملوها معهم[13] .

(10) نفس الوثيقة السابقة .

(11) نفس الوثيقة السابقة .

(12) Doc. N. 46. A. S. L. F. Governatore F. N. 891.

(13) Doc. N. 48. A. S. L. F. Governatore F. N. 891.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 31 ديسمبر 1839 م .

أما في المناطق الشرقية من البلاد فقد استطاع طوسون باشا الحاكم التركي في بنغازي إستدراج زعماء القبائل الثائرة ، حيث طلب منهم المجيء إليه لغرض التشاور والتصالح لإيجاد كافة الحلول التي سوف ترضي الطرفين التركي والعربي .. وبالفعل استطاع بهذه الحيلة خداع بعض زعماء القبائل الذين حضروا إليه .. فقام على الفور بسجن سبعة وعشرين شيخاً وذلك مقابل عدم دفع الضرائب المتأخرة على قبائلهم[14] .

كما حاول الباشا عسكر علي الحاكم العام للبلاد تحقيق انتصار بواسطة عصابة من العرب الموالين للأتراك ضد الشيخ عبد الجليل سيف النصر بخيانته والالتفاف حول الجماعة التي يقودها بنفسه .. ولكن خطته فشلت حيث استطاع الشيخ عبد الجليل زعيم قبيلة أولاد سليمان والقبائل الأخرى المتحالفة معها الإفلات من تلك المكيدة التي دبرها الباشا عسكر علي الذي كان قد شغل نفسه أيضاً بإخماد الثورة التي اندلعت في ترهونة فقام بإرسال فرقة عسكرية من الشاميين الشرقيين تتكوّن من سبعمئة جندي نظامي تساعدهم جماعة من العرب المجندين لإخضاع سكان ترهونة وبني وليد للسلطة التركية بطرابلس حيث استعان الكولونيل باريي قائد الفرقة العسكرية بأربعة مدافع لإتمام ذلك الغرض ، وتوجهت الفرقة العسكرية بقيادة باكيربي ليس لإخضاع ترهونة .. بل اخضاع التمرد في كل من غريان وبني وليد أيضاً . وقد عارض الشيخ أرحومة زعيم غريان[15] توغل الفرقة العسكرية التركية في منطقته ودفعه ذلك للهجوم عليها فجرت معركة بين الطرفين انضم فيها مجموعة من المجندين العرب وعددهم ثمانون جندياً مسلحاً إلى قوات ارحومة شيخ غريان ، أما بقية الفرقة التركية التي توجهت بعد ذلك إلى بني وليد فقد تم سحقها بواسطة الشيخ عبد الجليل سيف النصر . ومن الممكن القول أن ثورة القبائل الداخلية في كل من مناطق غريان وبني وليد وترهونة خلال عام 1840 م جعلت من طرابلس المدينة الوحيدة التي ظلت خاضعة للسلطة التركية في البلاد ، وأدت استمرارية الثورة في المناطق الداخلية من البلاد إلى تكرار

---

(14) Doc. N. 50. A. S. L. F. Governatore F. N. 180.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 15 يناير 1840 م .

(15) Doc. N. 56. A. S. L. F. Governatore F. N. 180.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 17 أبريل 1840 م .

الصدام المسلح ما بين الليبيين العرب والأتراك فساعد ذلك على تأزم الحالة الإقتصادية للبلاد ... خاصة بعد تحالف تلك القبائل معاً ضد الحكم التركي ... مثل تحالف ترهونة مع أولاد سليمان بقيادة الشيخ عبد الجليل وبقية القبائل المتحالفة معه لمقاومة الأتراك في كل من مصراتة والقرى المجاورة لها ... وأدى الصراع الدموي بين الطرفين المتحاربين إلى مضاعفة أسعار المنتوجات الزراعية حيث وصل سعر الوبية[16] من القمح إلى حوالي اثني عشر مجيدي « ريال » خلال شهر أغسطس 1840 م .. مما مهد لحدوث مجاعة فظيعة خلال عام 1841 م ... جعلت السكان في اقليم طرابلس يقدمون على بيع ذهب وفضة نسائهم من أجل الحصول على ما يسد رمقهم من غذاء .

ووجد الباشا عسكر علي في تلك المجاعة التي أصابت البلاد فرصة ثمينة لإذلال السكان وإخضاعهم ... فقام بإصدار أوامره بمنع استيراد الحبوب والأرز وغيرها من المواد الغذائية الأخرى للبلاد .. مما ساعد على إعادة بسط نفوذه على سكان الإقليم من جديد ، حيث فرضت المجاعة استسلام سكان غريان وخضوعهم للأتراك بعد أن هرب الشيخ أرحومة[17] الذي كان يقود التمرد ضد الأتراك من غريان .. كما استطاعت قوات الباشا عسكر علي الحاق هزيمة بالشيخ عبد الجليل وقواته ، حيث تم القبض على الشيخ عبد الجليل وقطع رأسه في يوم 31 مايو 1842 م كما يورد قنصل توسكانة في رسالته المؤرخة في 5 يونيه 1842 .. إذ أصدر الباشا عسكر علي منشوراً بخصوص هذا الأمر تم تعميمه على كافة السكان والقناصل الأجانب المعتمدين بطرابلس .. وبالفعل فقد تم إرسال جميع رؤوس زعماء القبائل المتحالفة مع قبيلة أولاد سليمان والذين كان الباشا عسكر قد أمر بقطعها بعد أن استطاعت قواته أسر معظم أولئك الزعماء الذين كانوا جميعاً بصحبة الشيخ عبد الجليل وأخيه سيف النصر لمقابلة القنصل الانجليزي بالقرب من سرت ، وذلك بعد المعركة التي حدثت بين القبائل العربية والقوات التركية التي كانت بقيادة حسن بي البلعزي في ابو نجيم . وتم عرض

---

(16) الوبية مكيال يستخدمه السكان المحليين في كيل الحبوب .
أو أنها تساوي 8 كيلات = 8 مرطات أو « ثمان موازير » بالعامية الليبية .

(17) Doc. N. 76. A. S. L. F. Governatore F. N. 193.
رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 7 أغسطس 1841 م .

جميع الرؤوس المقطوعة للزعماء مع رأس عبد الجليل وأخيه سيف النصر في مدينة طرابلس ، وتم الطواف بها في الميادين الرئيسية بالمدينة ثم تعليقها أمام القلعة فيما بعد . وكان الباشا عسكر علي يهدف من وراء ذلك ليس إلى معاقبة زعماء الثوار ضد السلطة التركية في البلاد .. بل إلى تخويف وإرهاب بقية السكان العرب في الاقليم الذين يعارضون فيه السلطة سراً وعلانية .

و لم يكتف الباشا عسكر علي بذلك الانتقام بل طلب إحضار بقية الأسرى وعددهم خمسون أسيراً كان من بينهم الشيخ أحمد المريض زعيم ترهونة وأخيه وأبناؤه[18].. وأمر الباشا عسكر علي بإعدامهم فوراً بمجرد وصولهم إلى طرابلس ، أما بقية الأسرى وعددهم 46 شخصاً فقد سمح لجنوده بالفتك بهم وتعذيبهم وكان من بينهم ثلاثة شبان أبرياء للشيخ سيف النصر أخ الشيخ عبد الجليل بالإضافة إلى رأس مصطفى الأدغم إبن آغا مصراتة السابق ..

وقد قوبلت هذه الأعمال التعسفية الهمجية التي قام بها عسكر علي باشا طرابلسي ضد خصومه من الثوار العرب بالإقليم بعاصفة حادة من الاستياء والامتعاض من بعض الدول الأجنبية كفرنسا وبريطانيا . كما زادت تصرفات الباشا الوحشية ضد الزعماء الوطنيين في البلاد من اشتعال الثورة التي استمرت بزعامة أخي الشيخ عبد الجليل الذي تولى قيادة أولاد سليمان في فزان ... أما في ترهونة تولى أحد أبناء الشيخ المريض الزعيم السابق لترهونة قيادة حركة مقاومة السلطة التركية ، كما استمر الشيخ غومة في قيادة المحاميد بالجبل ، مما أدى إلى ازدياد القلاقل ضد حكم الباشا عسكر علي الذي تم استدعاؤه إلى القسطنطينية وتم تعيين المشير محمد أمين باشا (1842 — 1847 م) الذي وصل إلى البلاد في يوم 15 يوليو 1842 م لتولي مهام منصبه يرافقه اثنان من أبنائه ، تم تعيين أحدهما حاكماً لبنغازي — أما الثاني فقد تم تعيينه دفتردار بطرابلس ، وقد قام المشير محمد الباشا الجديد بإطلاق سراح المساجين السياسيين العرب الذين بقوا على قيد الحياة ، وكان من بينهم محمد بو عيشة سكرتير الشيخ عبد الجليل السابق ... حيث تم تعيينه كمساعد للبي التركي بفزان ... وذلك ضمن المساعي الحميدة للتقرب

(18) Doc. N. 7. A. S. L. F. Governatore F. N. 204.

وتطييب خواطر سكان الإقليم الذين لا زالت أفئدتهم تغمرها الثورة ومقاومة الحكم التركي .

وقد حاول باشاوات طرابلس زرع بذور الفتنة بين القبائل العربية في ليبيا ، وقد استطاعوا بالفعل تحقيق ما أرادوا في كثير من الأحيان حيث أصبحت القبائل تتطاحن فيما بينها لأسباب تافهة وساعدهم في ذلك تفشي الأمية بين أغلبية السكان وانتشار الخرافات والأساطير وكثرة المشعوذين « المرابطين » الذين كانت تستخدمهم السلطات التركية أحياناً في الدعاية لسياسة الباشاوات حكام البلاد الذين كانوا يعاملون سكان البلاد بكل قسوة وهمجية ، فسقط ستار التدين الذي كانوا يتظاهرون به أمام السكان بعد أن فضح رغبتهم في تكديس الأموال واقتناء الحريم والخصيان ... وهذا السلوك المتطرف الشاذ البعيد عن الإسلام جعل أغلبية باشاوات البلاد ينصرفون تماماً عن القيام بأيّة اصلاحات تنقذ البلاد من الانهيار الاقتصادي والسياسي الذي تنجرف إليه ... بالإضافة إلى أن المعاملة السيئة للأتراك جعلت أغلبية المتعاونين معهم من سكان البلاد يختارون الانسحاب إلى مواقعهم الطبيعية مع الثوار في دواخل البلاد .. و لم يبق معهم سوى المنبوذين[19] والفاسقين كالسكارى والمتشردين حيث أصدر الباشا محمد أمين أوامره بالسماح لهم بالإنضمام إلى الجيش التركي بالبلاد .

أن نفي غومة المحمودي زعيم الثوار في الجبل إلى تركيا كان له تأثير سيء في نفوس كافة سكان البلاد ، حيث رفض رفاقه الثوار في الجبل الإستسلام للسلطة التركية وقرروا المطالبة بعودته إلى الجبل ... مما جعل الباشا محمد يغضب بشدة من أولئك الثوار ويقوم بإرسال فرقة عسكرية نظامية يساعدها بعض المجندين المحليين تتكوّن من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف جندي تقريباً .. بقيادة أحمد باشا[20] لتأديب وإخضاع ثوار الجبل الذين قاموا بقتل حاكم غدامس أحد مماليك الباشا يوسف القره مانلي السابق ، وكان قد أجبر سكان غدامس على دفع الضرائب السنوية إلى باشا طرابلس .. على الرغم

---

(19) Doc. N. 23. A. S. L. F. Governatore F. N. 221.

رسالة القنصل فيليب روسوني المؤرخة في 10 فبراير 1843 م .

(20) Doc. N. 26. A. S. L. F. Governatore F. N. 221.

رسالة القنصل التوسكاني فيليب روسوني المؤرخة في 5 أبريل 1843 م .

مما يعانون من المعاملة القاسية من ذلك الحاكم ، هذا بالإضافة إلى أن سكان الجبل أصبحوا يضايقون تجارة القوافل القادمة إلى طرابلس عن طريق غدامس ... حيث قاموا بتحويل بعض القوافل التجارية التي كانت تحمل بضائع قادمة من افريقيا إلى تونس .. مما أدى بقائد الحملة التركية العسكرية إلى الإسراع في إخضاع سكان الجبل ، فارضاً دفع عشرة ريالات على كل رأس من السكان المحليين الجبليين كضريبة يجب دفعها للسلطات التركية بطرابلس ، وقد بلغ مجموع المبلغ المالي الذي تم تحصيله من سكان الجبل بواسطة قائد الحملة العسكرية حوالي مئة ألف مجيدي . كما طلب أحمد باشا قائد الحملة التركية إلى الجبل تسليم أسلحتهم ، ولما رفض السكان أوامر قائد الحملة أمر بالقبض على عدد كبير من قبيلة المحاميد[21] ، حيث تم قطع رؤوسهم لتحريضهم السكان على معارضة أوامره .. ثم بعد ذلك أمر بإرسال الرؤوس المقطوعة لبقية الزعماء من شيوخ العرب بالجبل .. وذلك لتخويفهم ودفعهم لقبول تسليم سلاحهم والخضوع للسلطات التركية بالإضافة إلى دفع الضرائب التي كان قد فرضها عليهم بعد انتصاره في الجبل .. ولم يكتف أحمد باشا — الذي كان يلقبه سكان الجبل « بالجزّار » — بذلك بل أمر بالقبض على مزيد من الثوار في الجبل لأجل إرسالهم إلى السجن والنفي[22] في تركيا . كما قام أحمد باشا بإرسال فرقة من الجنود إلى غدامس لإعادة الأمن والاستقرار بها ، كما أنه أمر سكان غدامس بدفع مبلغ مالي مقداره مائة ألف مجيدي فتذمر الغدامسيون من تلك المعاملة السيئة لقائد الحملة أحمد باشا ، وأدى ذلك إلى تدهور نشاط تجارة القوافل التي كان يقوم بها الغدامسيون ما بين طرابلس وتونس وافريقيا ... بعد أن تم تعيين قائد تركي جديد لغدامس مهمته تحصيل بقية الضرائب السنوية المتأخرة على السكان بالإضافة إلى تحصيل الرسوم الجمركية على كافة البضائع الواردة إلى غدامس عن طريق القوافل التجارية .

وعندما عاد القائد أحمد باشا من حملته التأديبية لسكان الجبل إلى طرابلس ... ترك حامية عسكرية من الجنود الأتراك للحماية والأمن ومساعدة مصطفى قرجي رئيس

---

(21) Doc. N. 29. A. S. L. F. Governatore F. N. 221.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 30 مايو 1843 م .

(22) كان غومة من بين الذين تم القبض عليهم ونفيهم إلى تركيا عام 1843 م .

جباة تحصيل الضرائب من السكان الذين رفضوا بشدة دفع المبالغ المالية التي فرضت عليهم فأدى ذلك إلى حدوث معركة دامية ما بين سكان الجبل والجباة الشاميين الشرقيين الذين كان يساعدهم بعض الطرابلسيين المجندين مع الأتراك ، مما جعل الباشا محمد أمين يدرك أن سياسة قطع الرؤوس والتنكيل والنفي مع إرسال الحملات العسكرية التأديبية لم تفده في إيجاد حلول حاسمة لإخماد الثورة في البلاد ، فطلب في اجتماعه مع رؤساء القبائل المرموقين ضرورة تعيين حكام عرب بوظيفة بي لتولي إدارة شئون المتصرفيات مع احتفاظ السلطات التركية بفرق عسكرية تتكوّن من الجند الشاميين « الشرقيون » لمساعدة الحكام الجدد . وكان غرض الباشا من ذلك تلميع صورته لدى مشايخ وأعيان البلاد هذا مع المحافظة على خضوع واستسلام القبائل لحكمه وذلك للقضاء على الثورة بامتصاص غضب السكان في المناطق الثائرة تدريجياً ... لكن هذه البادرة في الواقع لم تؤد ولو إلى خروج البلاد من الأزمة الاقتصادية التي كانت تعاني منها .. بل ساهمت في اصرار الأهالي على الامتناع عن دفع المبالغ المالية التي فرضتها السلطة عليهم بسبب سنوات الجفاف التي كانت قد أصابت معظم المناطق في البلاد .. مما أدى إلى المجاعة التي ساعدت على انتشار غارات السلب والنهب في عهد الباشا محمد ، هذا بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الحبوب التي وصلت إلى سعر خيالي في نظر أغلبية السكان ، فدفع ذلك الباشا محمد في طرابلس إلى القيام بتجنيد أعداد هائلة من العرب لمقاومة تلك القبائل التي عكرت صفو النظام في البلاد كما كان يعتقد الباشا نفسه . وقد استغل الجباليون الثوّار تلك الظروف القاسية التي تمر بها البلاد ، فاستطاع عدد كبير من المنفيين خارج البلاد العودة إلى الجبل وقتل 12 جندياً من بين جنود الحامية التركية الذين كانوا قد بقوا في الجبل للمحافظة على الأمن والاستقرار في المنطقة . كما قام عدد كبير من المهاجرين الثوار بتونس بالتسلل عبر الحدود إلى الجبل بتحريض الشيخ ميلود مساعد الشيخ غومة والذي كان قد اجتمع بأولئك المهاجرين وعائلة المحاميد من سكان الجبل بعد رجوعه إلى تونس بحراً من منفاه بتركيا .. وقد قام العائدون إلى الجبل من الثوّار بالاستيلاء على مناطق كثيرة من الجبل بعد طرد الأتراك والموالين لهم من العرب[23] منها مما دفع الباشا محمد أمين إلى إرسال حملة عسكرية أخرى بقيادة أحمد

(23) Doc. N. 64. A. S. L. F. Governatore F. N. 232.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 9 أغسطس 1844 م .

باشا لإخضاع سكان الجبل ، كانت الحملة تتكوّن من خمسة آلاف جندي منهم حوالي سبعمئة جندي نظامي تركي وعدد خمسمئة فارس من فرق الخيالة الأتراك ، أما البقية فكانوا جميعاً من جنود الميليشيا العربية ، وقد استطاع أحمد باشا قائد الحملة استعادة كثير من المواقع التي كان قد احتلها الثوار في الجبل . وقد شرح الباشا محمد أمين في مقابلته لقناصل الدول المعتمدين بطرابلس مهمة وأهداف الحملة العسكرية التي تم إرسالها إلى الجبل .. وكيف استطاعت إخضاع أولئك الثوار ومعاقبتهم بكل قسوة وعنف .. بعد استرداد كافة المواقع الرئيسية في القرى والأرياف[24] مما دعا الشيخ ميلود إلى الهرب إلى جزيرة جربة بعد قيام سكان ككلة بخيانته وبعد أن استطاع قائد الحملة العسكرية تحقيق انتصار على الثوار في الجبل ، قام الباشا محمد أمين برفع قيمة الضريبة المفروضة على السكان إلى ثلاثة عشر ريالاً « مجيدي » على الفرد الواحد من سكان الجبل بدلاً من عشرة ريالات كما في السابق ، وقد تسببت عدم مقدرة سكان البلاد على دفع قيمة الضرائب الباهظة السنوية المفروضة عليهم من قبل السلطات التركية بالإضافة إلى خوفهم من بطش الأتراك بهم فدفعهم إلى البدء في الهجرة إلى الأقطار المجاورة خاصة إلى كل من مصر وتونس . أما بقية سكان البلاد الذين فضلوا البقاء في أقاليم ليبيا الثلاث (طرابلس ، فزان وبرقة) فقد تحالفت معظم قبائلهم معاً لمقاومة السلطات التركية ، ولإثارة المشاكل لها ، حيث قام سكان كثير من القرى في فزان بالثورة ضد الأتراك ، وأعلنوا استقلالهم عن البي الطرابلسي الذي كان قد تم تعينه بواسطة الباشا محمد أمين بعد طرد أبناء الشيخ عبد الجليل وقبيلتهم الذين التجأوا إلى برنو الواقعة في دواخل البلاد مما ساعدهم في مضايقة القوافل التجارية ومنعها من القدوم إلى فزان ، وجعل هذا بي فزان الذي كان من الطرابلسيين الموالين للأتراك يطلب نجدة من باشا طرابلس الذي قام بإرسال قوات عسكرية إليه استطاعت إخماد تلك الثورة المناهضة للحكم التركي في الإقليم بعد معركة دامية دارت ما بين الطرفين .. وقد امتدحت القسطنطينية ما قام به باشا طرابلس ضد سكان الجبل ، وأرسلت شخصية بارزة وصلت طرابلس عن طريق مالطة محملة بالهدايا الثمينة تقديراً للباشا ورجاله في

---

(24) Doc. N. 66. A. S. L. F. Governatore F. N. 232.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 5 سبتمبر 1844 م .

البلاد نظراً لما قاموا به من بطش وإرهاب ضد الثوار في مختلف مناطق ليبيا ... وتم إهداء سيف مطلي بالذهب إلى الباشا محمد أمين ومساعط تبغ مرصعة بالألماس والزخارف المختلفة إلى كل من باشا بنغازي وبي فزان الذي تمت ترقيته إلى باشا[25] . أما أحمد باشا قائد الحملات العسكرية التركية ضد الثوار في الجبل ، فقد اكتفى بما استطاع جمعه من أموال وذهب وفضة من سكان الجبل كضريبة وتعويض لما خسرته قواته أثناء قمع الثوار بالمنطقة المذكورة .

وعندما تم تعيين الباشا محمد رجب (1847 — 1848 م) حاكماً للبلاد بدلاً من محمد أمين الباشا السابق الذي تم تعيينه في منصب رفيع في القسطنطينية عام 1847 م ، عادت الاضطرابات إلى البلاد من جديد ، حيث اندلعت الثورة في كل من غريان والجبل .. مما جعل الباشا محمد رجب يسارع إلى إرسال قوات عسكرية بلغ تعدادها ثمانية عشر ألف جندي[26] كان معظمهم من القوات النظامية بينما البقية كانوا من جنود الميليشيا العربية بقيادة بشير باشا الذي استطاع بعد معركة دموية رهيبة إلحاق الهزيمة بالثوار الذين هربوا تاركين وراءهم أسلحتهم ومؤنهم ، مما شجع القائد بشير باشا على مطالبة سكان الجبل بضرورة دفع كافة الضرائب المتأخرة في السابق .

هذا كما قام الباشا محمد رجب أيضاً بطلب قوات عسكرية أخرى من القسطنطينية يبلغ تعدادها 4000 جندي « أربعة آلاف جندي ألباني » يتوقع أن تصله بسرعة وذلك لمساعدته في خنق بذور الثورة ضد السلطات التركية والتي أصبحت تنتشر في مناطق البلاد المختلفة ... كما أصدر الباشا أوامره بخصوص معاقبة كل المتعاونين والمتعاطفين مع ثوار الجبل وغريان . وبالفعل تم القبض على شخصيتين بارزتين من الشخصيات العربية كلاهما كان برتبة قائد في الميليشيا العربية ، أحدهما كان يدعى محمد الطبجي والآخر علي الصغير[27] ، حيث تم إيداعهما في السجن بسبب تورطهما في أحداث

(25) Doc. N. 70. A. S. L. F. Governatore F. N. 232.

رسالة القنصل في 1844.11.11 م .

(26) Doc. N. 235. A. S. L. F. Governatore F. N. 299.

رسالة القنصل التوسكاني في 10 فبراير 1848 م .

(27) Doc. N. 247. A. S. L. F. Governatore F. N. 299.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 4 أبريل 1848 م .

ثورة الجبل وغريان ، على الرغم من أن الطبجي كان قد تحصل على عدة نياشين تقديراً لخدمته سنوات طويلة في القوات التركية ، وذلك لإرسالهما إلى القسطينطينية للمحاكمة مع بقية الأسرى السياسيين .

ويؤكد القنصل التوسكاني فيليب روسوني في رسالته المؤرخة في 22 مايو 1850 م الموجهة إلى حكومته أن حركة التمرد والثورة قد عادت من جديد في ترهونة بعد قتل القائد التركي بمنزله منذ فترة قصيرة ... كذلك امتدت الثورة لتشمل الورشفان أيضاً ... لذلك فلم تؤدي محاولات الحكومة التركية المتعددة السابقة لإيجاد حلول حاسمة لإيقاف انتشار الثورة إلى بقية المناطق الأخرى في البلاد إلى نتيجة .. فقام الأتراك في سبيل تحقيق ذلك الغرض بالاعتماد على بعض القبائل الموالية لهم والخاضعة لهم في محاربة بقية القبائل الثائرة ضدهم ... وقام الباشا محمد رجب بإرسال حملة عسكرية مكونة من ستمئة فارس من مصراته[28] لإخضاع ثورة سكان بني وليد وتحصيل الضرائب المتبقية عليهم في السابق . هذا كما أن الباشا في طرابلس أصدر أوامره بضرورة القبض على كبار أعيان ومشايخ البلاد بالإضافة إلى أبناء الزعماء الثوار وأقاربهم وسجنهم بالقلعة بطرابلس كرهائن ... حتى يقبل أولئك الثوار وقبائلهم بدفع المبالغ المستحقة عليهم والتعهد بعدم إثارة القلاقل ومقاومة الحكومة التركية . وبالفعل استطاع الباشا في طرابلس أن يجمع مبلغاً مالياً قدره مئتان وخمسون ألف ريال خلال عام 1853 م على الرغم من الجفاف الذي أصاب البلاد خلال تلك السنة . وقامت باخرة عثمانية بنقل المبلغ المذكور بعد أن تم جمعه من متصرفيات بنغازي ، مصراته ، الجبل وفزان .

ولقد حاولت بعض الدول الأوربية مساعدة الثوار في البلاد ، وعندما عاد غومة المحمودي إلى الجبل من تونس التي كانت تؤيده منذ اندلاع ثورته في الجبل ، وجد صديقه القديم الشيخ المرموري قد تخلى عنه بعد أن تحصل على عفو صدر من الباشا شخصياً بإطلاق سراحه من منفاه بتركيا مع بقية أتباعه الأسرى الذين كانوا معه وانضم إلى جانب الحكومة التركية في البلاد وأصبح من حلفائها في الجبل ضد الثوّار .. مما

---

(28) Doc. N. 254. A. S. L. F. Governatore F. N. 414.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 21 أغسطس 1852 م .

جعل الباشا بطرابلس يهدي إليه البرنوس تقديراً لمواقفه تجاه الحكومة التركية ، بالإضافة إلى تزويده بالأسلحة[29] والمؤن اللازمة لمحاربة الثوار بالجبل .

وقد اهتمت كل من فرنسا وبريطانيا بثورة غومة المحمودي في الجبل خاصة بعد عودته من المنفى ، فأرسلت له بريطانيا مبعوثاً يدعى هملتون اجتمع بغومة في الزاوية ولكن القوات التركية استطاعت القبض عليه قبل عودته إلى طرابلس للاتصال بالقنصل الانجليزي ، ثم إرساله إلى القسطنطينية لمحاكمته هناك ، وفي يوم 20 يناير 1856 م حدثت معركة ما بين القوات التركية والثوار بقيادة غومة في الرومية بالجبل تكبد فيها الطرفان كثيراً من القتلى والجرحى وبلغ عدد القتلى من الأتراك حوالي مئة جندي ، أما الجرحى فقد بلغ عددهم مئتي جندي ، أما خسائر الثوار فغير معروفة .

ولما وجد غومة وأتباعه غير قادرين على مقاومة القوات التركية ، قام غومة مع رجاله الذين بلغ عددهم خمسمئة رجل بالإنسحاب نحو مطماطة بتونس ، أما القنصل الانجليزي الذي كان يراقب المعركة عن كثب فقد سارع بالعودة إلى طرابلس لإرسال أخبار المعركة التي جرت ما بين الثوّار والأتراك إلى حكومة بلاده بواسطة الفرقاطة الانجليزية التي كانت راسية منذ أسابيع قليلة في انتظار أخبار الثورة في الجبل .. حيث أبحرت الفرقاطة مباشرة ليلة 25 يناير بعد أن تسلمت تقريراً وافياً كتبه القنصل الانجليزي بنفسه عن تلك المعركة التي اشترك فيها حوالي ألف جندي ألباني .

ولما فشل الأتراك في القبض على غومة المحمودي وشل حركة أتباعه الثوار بعد تلك المعركة التي حدثت ما بين الطرفين أرسل الباب العالي في القسطنطينية شخصية بارزة يدعى عزمي بي ليتفاوض مع غومة وليعرض عليه منحه منصب باشا في الأناضول ، ولكن غومة رفض ذلك مما جعل عزمي بي يرجع بسرعة إلى طرابلس يوم 27 فبراير 1856 م بدون الوصول إلى اتفاق مع الثائر غومة الذي عاد إلى الجبل بعد رحيل القوات التركية ليقود الثورة من جديد ضد الأتراك ، حيث أصبح رجاله بمساعدة بعض القبائل المحلية كورشفانة وغيرها يضايقون القوافل التجارية المتجهة نحو طرابلس ، مما جعل باشا طرابلس عثمان باشا (1855 — 1858 م) يقوم من جديد

(29) Doc. N. 143. A. S. L. F. Governatore F. N. 551.

بإرسال حملة عسكرية لمقاومة الثوار ، حيث بلغ تعداد تلك الحملة حوالي ألفي جندي من الفرسان بالإضافة إلى المجندين العرب ، وقد حاولت تلك الحملة العسكرية القبض على غومة حياً ولكنه هرب مع أتباعه الذين بلغ عددهم أربعمئة فارس إلى منطقة الجريد في الجزائر ثم انتقل منها إلى تونس حيث استمر في مهاجمة القوات التركية ثم العودة بسرعة إلى الوراء للاختفاء وراء الحدود التونسية ، وقد بقيت القوات التركية في مواقعها لملاقاته ، بعد أن تم معرفة موعد قدومه إلى البلاد قبل ثمانية أيام من أحد المخبرين المتعاونين مع الحكومة التركية بطرابلس .. فاستعدت الحكومة لحسم المعركة مع غومة وقامت بحشد وتجهيز حوالي ثلاثة آلاف جندي بالإضافة إلى جماعة من الفرسان العرب المجندين مع الحكومة التركية ، وذلك تحت قيادة الخوجة باشا[30] الذي استطاع مقابلة قوات غومة على بعد ستين ميلاً من غدامس[31] ، وبعد مناوشات استمرت مدة ثلاث ساعات تقريباً بين الطرفين سقط غومة جريحاً حيث أصيب بجراح خطيرة مميتة .. فحاصره الأتراك وأطلق عليه الجنود النار فأردوه قتيلاً ثم أمر قائد الحملة العسكرية بقطع رأس غومة[32] لإرساله إلى طرابلس لغرض التعرف عليه وتعليقه أمام القلعة كالعادة . وعندما سمع ابن الشيخ غومة بمصرع والده ومعاملة القوات التركية السيئة له بعد استشهاده ، هرب من الميليشيا العسكرية التركية التي كان يعمل فيها كضابط برتبة كابتن ليعود إلى الجبل ولينضم إلى الثوار لمواصلة الثورة بعد التوقف الذي حدث بسبب استشهاد غومة من جديد ضد الأتراك .

(30) وكان يساعده أحمد الأدغم آغا مصراته الذي كان يقود فرقة الفرسان .

(31) Doc. N. 243. A. S. L. F. Governatore F. N. 628.

رسالة القنصل التوسكاني المؤرخة في 10 أبريل 1858 م .

(32) نفس الوثيقة السابقة .

أثر التجارة الخارجية على حصة الفرد من التمور في الأقطار العربية

د. ماهر النقيب
جامعة عمر المختار
قسم الاقتصاد الزراعي — ليبيا

أولاً : المقدمة :

لم يأخذ التمر نصيبه من التجارة العالمية بقدر ما أخذته السلع الزراعية الأخرى حيث تعرفت بلدان الغرب بمنتجات الشرق ، وبالعكس وبدأت تجارة السلع النادرة بين هذه البلدان ، وتعود المستهلكين في كافة أنحاء العالم تقريباً على استهلاك بعض السلع الجديدة مثل القهوة والشاي والتبغ ، ولم يكن للتمر مكاناً مهماً بين هذه السلع رغم أن بعض هذه السلع تعتبر مضرة بالصحة ... والسبب الأساسي يرجع إلى عدم اهتمام الدول المنتجة بتحسين الجودة إنتاجياً وتطوير طرق تسويقها فنياً . وانعكس عدم الاهتمام هذا على البلدان المنتجة للتمر حيث لم يعد التمر سلعة استهلاكية أساسية .

نلاحظ في عالمنا الحضاري اليوم أن مصير أية سلعة زراعية أو صناعية يرتبط بمدى بمدى طلب الأسواق العالمية على تلك السلعة لأن الأسواق المحلية غير كافية لإدامة حياة سلعة معينة مثلما كانت في الأزمنة السابقة فالسلع التي تبقي استهلاكها على نطاق محلي وضيق معرضة للاختفاء والانقراض من السوق وترك مكانها للسلع البديلة . لذا فإن دراسة تجارة التمور الخارجية والاهتمام بها أمر يؤثر على مستقبل إنتاج التمور في الأقطار

العربية وتطوره كماً ونوعاً . وبناء على هذا قمنا بدراسة الجوانب التجارية وكيفية جلب أنظار المستهلك المحلي والخارجي إلى هذه السلعة .

ثانياً : هدف الدراسة :

الهدف الأول من هذه الدراسة التعرف على مستقبل إنتاج التمور في الأقطار العربية وحصة الفرد العربي من هذا الإنتاج ثم التنبؤ لسنة 2000 م .

من المعروف أن بعض الدول المنتجة تمنع تصدير بعض سلعها الزراعية وذلك استجابة للطلب المحلي وبالتالي السيطرة على الأسعار المحلية من الارتفاع أو التقلب فتصدير السلع الزراعية النادرة بغير تخطيط يقلل حصة الفرد من الاستهلاك بالفعل ، ولا يؤدي إلى ارتفاع سعر السلعة فحسب بل وحتى يؤدي إلى ارتفاع أسعار السلع البديلة أيضاً . والهدف من منع التصدير في هذه الحالة هو حماية المستهلك بالدرجة الأولى وتأمين الاستقرار السعري في السوق بالدرجة الثانية .

مقابل هذا هناك بعض الدول المنتجة تتخذ عكس هذه الخطوات فتمنع استيراد سلعة زراعية تنتج محلياً لحماية المزارع المحلي ودعم الإنتاج الوطني ، إذن نلاحظ أن هذه الإجراءات الاقتصادية تعتمد على عوامل مختلفة بحيث تؤدي هذه العوامل إلى اتباع إجراءات تختلف من بلد إلى آخر إلا أنها يجب أن تستند على أسس علمية سليمة بحيث لا تؤثر على اقتصاد البلد ككل .

فعلى ضوء علاقة التجارة الخارجية بحصة الفرد من التمور في الأقطار العربية يمكن تقديم بعض الاقتراحات مستندة إلى تحليلات إحصائية للوصول إلى اتخاذ إجراءات صحيحة بشأن تجارة التمور في الأقطار المنتجة . فالهدف الثاني من هذه الدراسة تحديد علاقة الإنتاج والتصدير والاستيراد بحصة الفرد من التمور في الأقطار العربية وصياغة مقترحات على أساس هذه العلاقات .

ثالثاً : منهج الدراسة :

تعتمد هذه الدراسة على البيانات الإحصائية الموجودة في الكتاب السنوي للإحصاءات الزراعية والمنشورة من قبل المنظمة العربية للتنمية الزراعية جامعة الدول العربية — في الخرطوم خلال الفترة الواقعة ما بين 1981 م — 1987 م[1] .

الخطوة الأولى عبارة عن تصنيف الأقطار العربية إلى أربعة مجاميع :

أ — أقطار منتجة للتمور ، ب — أقطار منتجة ومصدرة للتمور ، ج — أقطار مستوردة للتمور ، د — أقطار متجارة بالتمور .

الخطوة الثانية هي التنبؤ بكميات التمور المنتجة لسنة 2000 م وكذلك حصة الفرد العربي من التمور بطريقة المربعات الصغرى .

والخطوة الثالثة عبارة عن الاستعانة بمعادلة الانحدار الخطي البسيط في تعيين العلاقة ونسبة الارتباط بين : أ — الإنتاج « كمتغير مستقل » وحصة الفرد « كمتغير تابع » بالنسبة لأهم الأقطار المنتجة للتمور ، ب — الكمية المصدرة وحصة الفرد بالنسبة للأقطار المصدرة للتمور ، ج — نسبة الكمية المصدرة إلى الإنتاج وحصة الفرد بالنسبة للأقطار المصدرة للتمور ، د — الكمية المستوردة وحصة الفرد بالنسبة للأقطار المستوردة للتمور[2] .

وقد تم حساب حصة الفرد من التمور بالشكل التالي :

$$\text{حصة الفرد} = \frac{\text{كمية الإنتاج} + \text{الكمية المستوردة} - \text{الكمية المصدرة}}{\text{عدد السكان}}$$

رابعاً — أهم الأقطار المنتجة للتمور وحصة الفرد :

كل الأقطار العربية تعتبر منتجة للتمور عدا سوريا ، لبنان ، جيبوتي والصومال وفيما يلي إنتاج أهم الأقطار العربية المنتجة وحصة الفرد من التمور في هذه الأقطار :

« جدول 1 أهم الدول العربية المنتجة للتمور ونسبة الإنتاج »

« جدول 2 حصة الفرد السنوي من التمور في أهم الأقطار العربية المنتجة « كجم/فرد » ونسبة الزيادة السنوية »

رغم أن الترتيب في جدول (2) قد نظم وفق التسلسل الإنتاجي في جدول (1) فإن الإمارات تحتل المرتبة الأولى في حصة الفرد والسعودية المرتبة الثانية وعمان المرتبة الثالثة وليبيا المرتبة الرابعة والسبب ناتج عن اختلاف عدد سكان الأقطار العربية ووجود بعض الأقطار المنتجة تقوم باستيراد التمور في نفس الوقت .

الجدول (1) أهم الدول العربية المنتجة للتمور ونسبة الإنتاج

الأقطار	كمية الإنتاج « ألف طن »					نسبتها في الإنتاج العربي 1985 م
	1981 م	1982 م	1983 م	1984 م	1985 م	
مصر	441	540	470	485	509	% 24
السعودية	415	421	407	454	475	% 23
العراق	370	374	345	251	390	% 19
الجزائر	195	206	182	283	199	% 9
السودان	134	115	116	115	116	% 6
ليبيا	65	74	72	90	100	% 5
عمان	59	72	75	75	75	% 4
تونس	66	61	74	62	71	% 3
الإمارات	49	53	55	58	60	% 3
المغرب	101	110	110	40	43	% 2
باقي الأقطار	—	—	—	—	62	% 3
المجموع					2100	%100

المصدر : الكتاب السنوي للإحصائيات الزراعية ، المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، جامعة الدول العربية ، الخرطوم ، 1981 - 1987 م .

الجدول (2) حصة الفرد السنوية من التمور في أهم الأقطار العربية المنتجة « كجم/فرد » ونسبة الزيادة السنوية

الأقطار	حصة الفرد من التمور			نسبة الزيادة السنوية
	1983 م	1984 م	1985 م	
مصر	10	10	11	% 5
السعودية	41	40	39	% 2
العراق	17	11	20	% 9
الجزائر	9	13	9	% 0
السودان	5	5	5	% 0
ليبيا	19	25	28	%23
عمان	75	47	35	%27
تونس	9	7	8	% 6
الإمارات	23	2	2	%62
المغرب	5	2	2	%60
المتوسط الحسابي	24.3	21.2	20.8	% 7

نفس المصدر

أما نسبة الزيادة في حصة الفرد فهي ظاهرة موجودة في ليبيا ومصر فقط وفي باقي الأقطار فهناك تناقص ملحوظ في حصة الفرد أو ثبوت كما هو الحال في الجزائر والسودان . وهناك هبوط أيضاً في متوسط حصة الفرد في الأقطار المنتجة للتمور بنسبة 7% سنوياً .

إذن رغم زيادة الإنتاج في جميع البلدان العربية عامة وفي أهم البلدان العربية المنتجة خاصة ، فهناك هبوط في حصة الفرد السنوي . ومن الممكن مشاهدة زيادة الإنتاج وتناقص حصة الفرد في شكل[1] .

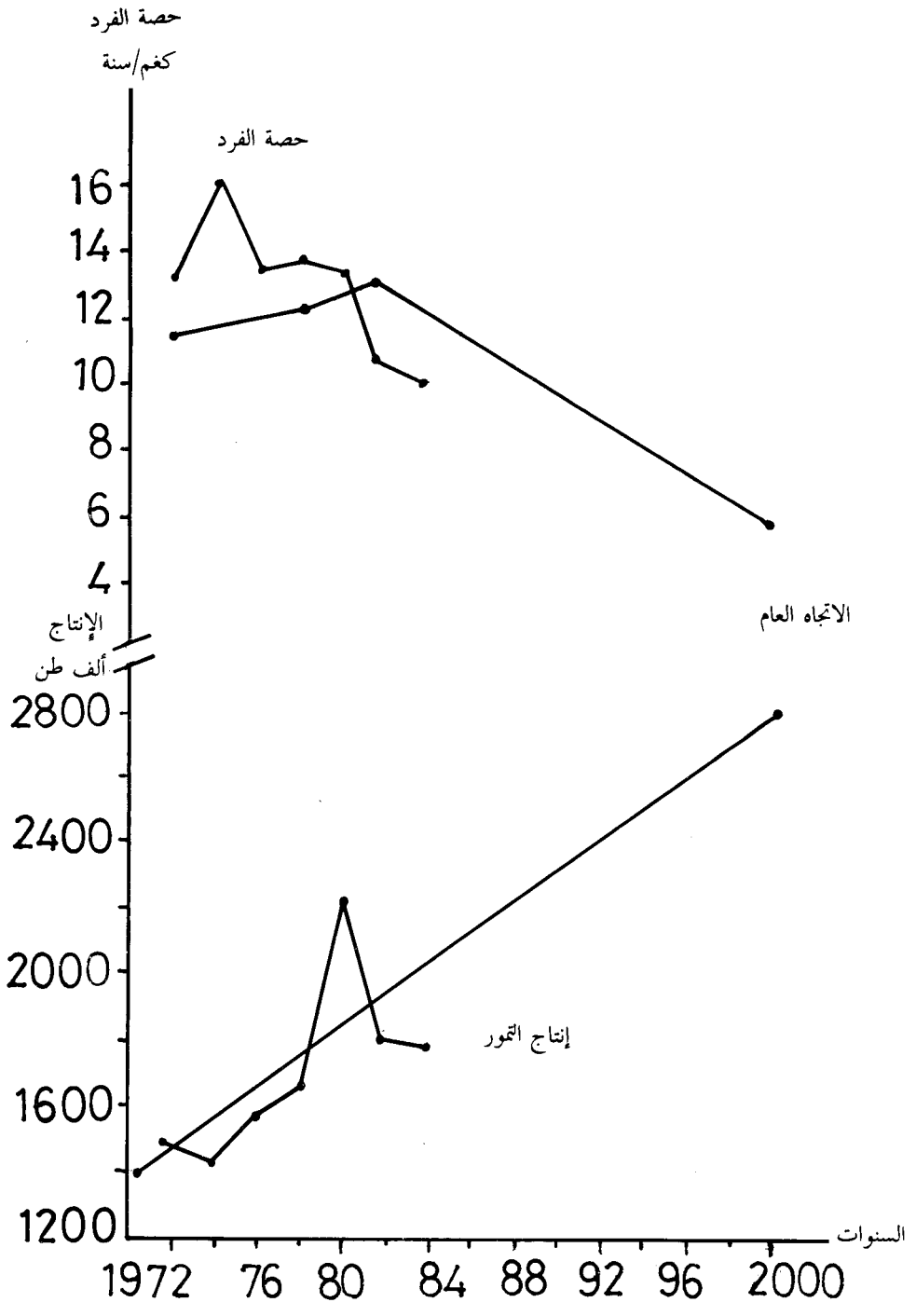

الشكل (1) إنتاج التمور وحصة الفرد في الأقطار العربية والتنبؤ لسنة 2000 .

وقد توصلنا إلى كمية الإنتاج « 2809000 طن » لسنة 2000 من خلال المعادلة $y = 1751 + 46\ x$ وإلى حصة الفرد العربي من التمور « 5 كجم/فرد » لسنة 2000 من خلال المعادلة $y = 13 - 0.4\ x$ والسبب الأساسي لتناقص حصة الفرد رغم زيادة الإنتاج في الوطن العربي هو أن الزيادة السكانية أكثر من زيادة الإنتاج فزيادة الإنتاج غير قادرة أن تغطي زيادة في السكان .

ومن أجل التعرف إلى نسبة الزيادة السكانية في الوطن العربي يستوجب تعيين التنبؤ من خلال المعادلة $y = 155 + 5.35\ x$ فسيكون عدد سكان الأقطار العربية المنتجة للتمور لسنة 2000 تقريباً 251 مليون نسمة . أي بزيادة سكانية قدرها 4% سنوياً ، أما زيادة الإنتاج في هذه الأقطار فهي تساوي 2% فقط أي نصف الزيادة السكانية .

لقد لاحظنا أن هناك صلة بارزة بين الإنتاج وحصة الفرد ولكن يستوجب معرفة :

أ — درجة هذه العلاقة .

ب — مدى اختلاف العلاقة من قطر منتج إلى آخر .

جـ — نسبة الارتباط بين الإنتاج وحصة الفرد .

فعند تطبيق المعادلة الانحدارية البسيطة $y = a + b\ x$ حيث y يمثل حصة الفرد و x يمثل الإنتاج نحصل على المعادلات الانحدارية الآتية لكل قطر عربي منتج للتمور[3] .

« جدول 3 علاقة الإنتاج بحصة الفرد من التمور في الأقطار العربية المنتجة للتمور »

يبين الجدول أن قيم t المحسوبة للأقطار مصر ، العراق ، الجزائر ، السودان ، ليبيا والمغرب أكبر من قيمة t الجدولية 2.57 وكذلك قيم F المحسوبة لهذه الأقطار أكبر من قيمة F الجدولية 6.61 لذا تعتبر نماذج هذه الأقطار نماذج مقبولة ، أي هناك علاقة بين الإنتاج وحصة الفرد . وتبين لنا نسبة الارتباط من جانب آخر أن هذه العلاقة طردية وعالية أي كلما زاد الإنتاج في هذه الأقطار زادت حصة الفرد فيها .

وظهر أن نسب معامل التحديد لهذه النماذج عالية أيضاً حيث تتراوح ما بين 0.67 - 0.99 أي أن الإنتاج يمثل نسبة كبيرة من حصة الفرد في هذه الأقطار .

الجدول (3) علاقة الإنتاج بحصة الفرد من التمور في الأقطار العربية المنتجة للتمور

الأقطار	النموذج	المعادلة	قيمة t	قيمة F	الارتباط	معامل التحديد
مصر	مقبول	= 2.26 + 0.018 x	3.16	9.98	0.82	0.67
السعودية	مرفوض	= 42.26 − 0.001 x	−0.03	0.001	−0.01	0.00
العراق	مقبول	= 1.94 + 0.042 x	7.25	.53	0.96	0.91
الجزائر	مقبول	= 2.24 + 0.04 x	4.29	.18	0.87	0.79
السودان	مقبول	= 3.16 + 0.08 x	3.29	.11	0.83	0.68
ليبيا	مقبول	= 7.55 + 0.19 x	4.30	.18	0.89	0.79
عمان	مرفوض	= 86.5 + 0.4 x	−0.59	0.35	−0.26	0.07
تونس	مرفوض	= 2.34 + 0.08 x	2.44	.6	0.74	0.54
الإمارات	مرفوض	= 16.4 + 0.58 x	1.56	.2	0.56	0.31
المغرب	مقبول	= −0.24 + 0.05 x	.20	.412	0.99	0.90
كل الأقطار	مقبول	= −3.38 + 0.008 x	3.72	.14	0.86	0.74

أما نماذج الأقطار السعودية ، عمان ، تونس والإمارات نراها مرفوضة أي أن العلاقة بين الإنتاج وحصة الفرد معدومة . وكما سنلاحظ في المواضيع القادمة أن هذه الأقطار متجارة التمور أي هناك عوامل غير الإنتاج تؤثر على حصة الفرد في هذه الأقطار .

خامساً : أهم الأقطار المصدرة للتمور وحصة الفرد :

إن صادرات الأقطار العربية بشكل عام بدأت بالهبوط بعد سنة 1980 م وواضح من الجدول (4) أن الهبوط المستمر في صادرات التمور أدى إلى هبوط في نسبة الصادرات إلى الإنتاج الكلي من 12% إلى 6% أي نسبة الهبوط خلال ست سنوات هي 50% .

الجدول (4) صادرات الوطن العربي للتمور ونسبة الصادرات إلى الإنتاج الإجمالي

السنوات	الكمية « ألف طن »	القيمة مليون $	قيمة الطن الواحد $	نسبة الصادرات إلى الإنتاج الإجمالي
1979 م	243	74	305	%12
1980 م	308	77	250	%14
1981 م	191	84	440	%10
1982 م	179	85	475	% 9
1983 م	153	80	523	% 8
1984 م	139	76	547	% 7
1985 م	139	98	705	% 6

نفس المصدر

ونتيجة قانون العرض والطلب نلاحظ أن هبوط كمية الصادرات قد أدى إلى زيادة سعر الطن من 305 دولار أمريكي في سنة 1970 م إلى 705 دولار أمريكي في

سنة 1985 أي بزيادة نسبتها 131% وإذا دققنا صادرات أهم الأقطار العربية المصدرة للتمور نلاحظ أن هناك زيادة ولو طفيفة في كمية الصادرات عدا العراق ، كما هو مبين في الجدول 5 إن صادرات العراق قد قلت 25% خلال السنتين 1983 - 1985 م علماً بأن العراق يغطي 45% من الصادرات العربية .

الجدول (5) أهم الأقطار العربية المصدرة للتمور ونسبة صادراتها إلى الإنتاج الإجمالي مع نسبة صادراتها لإجمالي الصادرات العربية

الأقطار	كمية التمور المصدرة			نسبة الصادرات إلى الإنتاج 1985 م	نسبة الصادرات إلى الصادرات العربية 1985 م
	1983 م	1984 م	1985 م		
العراق	100	80	75	%19	%54
السعودية	26	26	27	% 6	%19
تونس	11	16	15	%21	%11
عمان	1	3	4	% 5	% 3
باقي الدول	15	14	18	—	%13
المجموع	153	139	139	% 7	%100

نفس المصدر

أما نسبة الصادرات إلى الإنتاج لهذه الأقطار فتحتل تونس المرتبة الأولى والعراق المرتبة الثانية حيث تصدر تونس 21% من إنتاجها بينما يصدر العراق 19% من إنتاجه علماً بأن العراق كان يصدر 40% من إنتاجه من التمور قبل سنة الحرب 1980 م والجدير بالذكر أن نسبة الصادرات إلى الإنتاج مؤشر اقتصادي مهم في مجال التجارة الخارجية فجميع الدول المصدرة لأية سلعة كانت تسعى من أجل رفع هذه النسبة وهناك

عوامل أساسية تؤثر على رفعها أهمها .

1 - الخدمات التسويقية ، 2 - الإنتاج المحلي ، 3 - الأسعار المحلية ، 4 - الاستهلاك المحلي ، 5 - الأسعار العالمية ، 6 - الطلب الخارجي .

إذا ألقينا نظرة على حصة الفرد في هذه الأقطار المصدرة للتمور في جدول 6 نلاحظ أنها عالية في معظمها باستثناء الجمهورية التونسية .

الجدول (6) حصة الفرد من التمور في أهم الأقطار العربية المصدرة للتمور

الأقطار	حصة الفرد من التمور كجم / فرد		
	1983 م	1984 م	1985 م
العراق	17	11	20
السعودية	41	40	39
تونس	9	7	8
عمان	75	47	35

وعند دراسة أثر الصادرات على حصة الفرد في هذه الأقطار فنلاحظ أن العلاقة معدومة كما هو مبين في جدول 7 .

نشاهد أن نماذج السعودية وتونس وعمان مرفوضة أي أن العلاقة بين كمية الصادرات وحصة الفرد معدومة بسبب صغر قيم t وقيم F المحسوبة من القيم الجدولية . أما بالنسبة لنموذج العراق فهي مقبولة أي يظهر أن هناك علاقة بين كمية الصادرات وحصة الفرد ، ولكن العلاقة طردية أي كلما زادت الصادرات العراقية زادت حصة الفرد العراقي من التمور وهذه العلاقة غير منطقية فإما أن تكون العلاقة

الجدول (7) علاقة كمية صادرات التمور بحصة الفرد في الأقطار العربية المصدرة للتمور

الأقطار	النموذج	المعادلة	قيمة t	قيمة F	الارتباط	معامل التحديد
العراق	مقبول	= 1.94 + 0.042 x	7.25	.53	0.96	0.91
السعودية	مرفوض	= 42.26 − 0.001 x	−0.03	0.00	0.00	0.00
تونس	مرفوض	= 2.34 + 0.08 x	2.44	. 6	0.74	0.54
عمان	مرفوض	= 86.50 − 0.040 x	−0.59	0.35	−0.26	0.07

معدومة كما هو الحال في نماذج السعودية وتونس وعمان وإما أن تكون علاقة عكسية بين المتغربين .

حتى نسبة الصادرات إلى الإنتاج ليست لها أثر على حصة الفرد في الأقطار المصدرة للتمور . حيث أن زيادة هذه النسبة تعني زيادة ما تخصصها الدولة من الإنتاج للصادرات ففي بعض البلدان المنتجة لبعض السلع الزراعية تؤثر فيها زيادة هذه النسبة سلبياً على الاستهلاك الفردي بسبب تقلص العرض وزيادة أسعار السلعة ولكن هذه الظاهرة السلبية غير موجودة عند الأقطار العربية المصدرة للتمور فنماذج العراق والسعودية وتونس مرفوضة ، أن أن العلاقة بين نسبة الصادرات إلى الإنتاج وحصة الفرد معدومة بسبب صغر قيم t وقيم F المحسوبة من القيم الجدولية .

جدول (8) علاقة نسبة الصادرات إلى الإنتاج بحصة الفرد من التمور في الأقطار العربية المصدرة للتمور

نلاحظ من الجدول (8) أن سلطنة عمان تشكل استثناء بارز بين باقي الأقطار حيث نموذجها الانحداري مقبول ، وهناك ارتباط عكسي ملحوظ في النموذج حيث كلما زادت نسبة الصادرات إلى الإنتاج أثرت على حصة الفرد وأدت إلى انخفاضها ولربما هذه الظاهرة ناتجة عن قلة كمية الصادرات وقلة الإنتاج السنوي في هذا القطر ويجب إضافة أن حصة عمان من الصادرات العربية قليلة جداً وهي لا تتجاوز 3% من الجدول (5) لذا من الممكن إهمال هذه النتيجة .

وخلاصة هذا القسم هو أن الصادرات ونسبة الصادرات إلى الإنتاج ليست بعوامل سلبية تؤثر على حصة الفرد .

سادساً : الأقطار العربية المستوردة للتمور وحصة الفرد :

بلدان كثيرة في العالم تقوم باستيراد التمور ولكن بكميات تعتبر قليلة فأكبر دولة

الجدول (8) علاقة نسبة الصادرات إلى الإنتاج بحصة الفرد من التمور في الأقطار العربية المصدرة للتمور

الأقطار	النموذج	المعادلة	قيمة t	قيمة F	الارتباط	معامل التحديد
العراق	مرفوض	= 12 + 20 x	0.84	0.7	0.35	0.12
السعودية	مرفوض	= 54 − 238 x	−2.31	5.33	−0.72	0.52
تونس	مرفوض	= 7.7 − 0.97 x	−0.14	0.02	0.06	0.00
عمان	مقبول	= 87 − 908 x	−4.36	.19	−0.89	0.79

مستوردة للتمور هي الصين وتليها الهند ثم فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبعض بلدان الغرب ولا تتجاوز الكمية المستوردة لجميع هذه البلدان نصف مليون طن سنوياً وحصة الأقطار العربية المستوردة للتمور من هذه الكمية حوالي 8% سنوياً حسب تقديرات منظمة التغذية والزراعة أما أهم الأقطار العربية المستوردة للتمور فهي أقطار غير منتجة للتمور أو إنتاجها غير كافي لتغطية الطلب المحلي . وكما هو مبين في جدول 9 فالكميات المستوردة تعتبر قليلة قياساً بصادرات الأقطار المصدرة والسبب ناتج عن الكثافة السكانية فعدد سكان أهم الأقطار العربية المستوردة للتمور حوالي 16 مليون نسمة ونسبته داخل سكان الأقطار العربية لا تتجاوز 8% فقط .

الجدول (9) أهم الأقطار العربية المستوردة للتمور ونسبة استيرادها في الاستيراد العربي

الأقطار	الكمية المستوردة « ألف طن »			نسبة الاستيراد إلى الاستيراد العربي 1985 م
	1983 م	1984 م	1985 م	
الإمارات	9	8	10	% 23
الكويت	5	10	8	% 19
اليمن الجنوبي	7	7	5	% 15
اليمن الشمالي	5	5	5	% 12
البحرين	2	2	3	% 7
الأردن	3	1	3	% 7
باقي الأقطار	10	9	7	% 16
المجموع	41	42	42	%100

نفس المصدر

وعند المحاولة للتعرف على مدى أثر الاستيراد وقيمة المستورد على حصة الفرد في

الجدول (10) علاقة كمية الاستيراد من التمور بحصة الفرد في أهم الأقطار العربية المستوردة للتمور

الأقطار	النموذج	المعادلة	قيمة t	قيمة F	الارتباط	معامل التحديد
الإمارات	مرفوض	= 38 + 1.4 x	1.1	1.2	0.44	0.19
الكويت			البيانات غير موثوقة			
اليمن الجنوبي			البيانات غير كافية			
اليمن الشمالي	مقبول	= 0.95 + 0.09 x	0.4	.70	0.97	0.93
البحرين	مقبول	= 135 + 41 x	. 6	.32	0.93	0.87
الأردن	مقبول	= 0.05 + 0.4 x	.13	.166	−0.99	0.97

أهم الأقطار العربية المستوردة للتمور نلاحظ أن هناك علاقة طردية ومقبولة بين الكمية المستوردة وحصة الفرد .

جدول 10 علاقة كمية الاستيراد من التمور بحصة الفرد في أهم الأقطار العربية المستوردة للتمور

إذا استثنينا الإمارات نلاحظ أن هناك علاقة قوية بين الكمية المستوردة من التمور وحصة الفرد وهذه العلاقة طردية في الوقت نفسه ، أي كلما زادت الكمية المستوردة زادت حصة الفرد . وهذه العلاقة الوطيدة ناتجة عن قلة أو انعدام إنتاج التمور في هذه الأقطار .

سابعاً : الأقطار العربية المتجارة بالتمور :

هناك بعض الأقطار العربية تتاجر بالتمور مثل السعودية والكويت وعمان والإمارات والمغرب ، فهذه الأقطار تنتج وتستورد وتصدر التمور في آن واحد وما هي هذه العملية إلا المتاجرة بالتمور .

نلاحظ في هذه الأقطار أنها أقطار خليجية « عدا المغرب » وأنها تمتلك اقتصاد حر بحيث يسمح النظام باستيراد وتصدير التمور رغم وجود إنتاج محلي . وهذه الظاهرة ليست غريبة في علم الاقتصاد والتجارة الخارجية فمعظم الدول الأوروبية والأمريكية تنتج وتصدر وتستورد معظم السلع الزراعية وعلى رأسها التفاح والحمضيات وذلك للحصول على ربح أكبر .

ثامناً : الاستنتاج والاقتراحات :

لاحظنا من هذه الدراسة أن الزيادة في الإنتاج 2% أقل من الزيادة السكانية 4% وهذا هو سبب انخفاض حصة الفرد من التمور في الأقطار العربية فإذا استمرت هذه الحالة فستكون حصة الفرد في هذه الأقطار نسبة 2000 تعادل 5 كجم/فرد سنوياً بينما كانت هذه الحصة 16 كغم/فرد في سنة 1977 م فما هو الحل الأمثل لمنع هذا الانحدار

إذن ؟ هل غلق الأبواب التجارية على هذه السلعة ومنع تصديرها سيحافظ على مستوى حصة الفرد ، أم اتخاذ إجراءات مناسبة هو الحل الأمثل ؟

إن الحل الأمثل المستنتج من هذه الدراسة هو زيادة الإنتاج على الأقل بنسبة 4% من جهة وخلق طلب خارجي وداخلي موازياً للزيادة في الإنتاج زمنياً من جهة أخرى . وذلك للأسباب التالية :

1- من خلال هذه الدراسة تأكدنا أن للإنتاج تأثير إيجابي على حصة الفرد إذن بكل أمان يمكن اقتراح بزيادة الإنتاج بنسبة لا تقل عن 4% سنوياً لتغطية طلب الزيادة السكانية .

2- وجود مؤشر سلبي توصلنا إليه من خلال هذه الدراسة ألا وهو نسبة الصادرات إلى الإنتاج في الأقطار المصدرة للتمور والتي انخفضت 50% خلال ست سنوات أي بمعدل قدره 8.3% وهذا يدل أن الطلب الخارجي على التمور أيضاً بدأ يقل وقد أثبتت الدراسة بأنه لا يوجد للصادرات أي تأثير سلبي على حصة الفرد من جهة ، وأن حصة الفرد من جهة أخرى عالية في الأقطار المصدرة للتمور ، فلا خوف إذن من زيادة الصادرات على حصة الفرد من التمور .

3- من المسلمات في علم الاقتصاد والتسويق أن الزيادة في إنتاج سلعة ما لا تعني زيادة استهلاكها في نفس الوقت ، وخاصة بعد التجارب التي خاضتها البلدان الاشتراكية بعد الحرب العالمية الأولى حيث تكدست معظم السلع في المخازن بسبب عدم وجود رغبة المستهلك في الشراء فاتجهت الحكومات الاشتراكية آنذاك إلى بيع هذه السلع جبراً بجانب السلع الأساسية فإذا افترضنا بزيادة الإنتاج بما لا يقل عن 4% سنوياً يجب خلق طلب خارجي وداخلي بحيث يمتص هذا الإنتاج الفائض .

إن خلق طلب داخلي ربما أسهل بكثير من خلق طلب خارجي ولكن النظريات التسويقية الحديثة تمنع التفرقة بين المستهلكين وتصر على معاملة المستهلك الداخلي مثل المستهلك الخارجي حتى تصل السلعة إلى مكانتها المرموقة بأشباع كل المستهلكين بدون استثناء إلا أن السؤال : كيف سيتم خلق هذا الطلب في أسواق محلية وعالمية وقد شحنت أجواءها بالمنافسة ما بين آلاف السلع الغذائية المصنوعة والمنتجة ؟

هناك اقتراحات ناشئة من أسس تسويقية ممكن عرضها هنا لخلق هذا الطلب رغم الصعوبات منها :

1- تمحيص إنتاج التمور من جديد واستخدام أحدث الوسائل الإنتاجية وذلك رفع إنتاج أشجار النخيل في الأقطار العربية المنتجة للتمور .

2- تمحيص عملية تسويق التمور من جديد والتي تبدأ من جني الثمار لحد وصولها إلى المستهلك النهائي .

3- ترك الأساليب القديمة في الجني واستعمال الآلات الحديثة والتي هي عبارة عن أبراج مرفوعة علو النخيل تتواجد باستمرار في بساتين النخيل ، حيث تستعمل هذه الأبراج بكثرة في الولايات المتحدة الأمريكية ومن أهم فوائد هذا الأسلوب هو عدم وقوع أي خدش أو ضرر على التمرات خلال الجني .

4- الاهتمام بالتنويع السلعي أي عدم الاكتفاء بتقديم التمور كسلعة وحيدة فقط بل تعديد المنتجات المشتقة من التمور .

5- استبدال الأوعية المحلية التقليدية التي تستعمل في التعبئة مثل الخصف والجلود والصفائح المعدنية واستبدال الأساليب القديمة في التعبئة بالطرق الحديثة في تعليب الفواكه والمواد الغذائية .

ويستوجب أيضاً استعمال علب جميلة المنظر تحافظ على التمور من التلوث وتجلب الأنظار وانتباه المستهلكين وكتابة تاريخ الإنتاج والصلاحية على العلب هو الآخر أمر مهم يجب الاهتمام به .

6- الاهتمام بخزن ونقل التمور إن كان قبل التصنيع أو بعده في أماكن صحية ويستحسن استعمال المخازن المبردة والنقل المبرد في هذه المرحلة وقد أثبتت دراسات مختلفة أن للخزن والنقل المبرد فوائد عديدة[4] .

7- الاهتمام الكامل بتصنيف التمور العربية المختلفة إلى درجات وتعريف مواصفات كل صنف من هذه الأصناف وتطبيق معايير ودرجات التمور في التسويق بشكل دقيق .

8- شن حملات دعائية محلية وعالمية بعد رفع المستوى في الإنتاج والتسويق وذلك

بالاشتراك في المعارض الدولية والتركيز على البلدان الإسلامية باعتبار أن التمر مستحب دينياً أيضاً .

9- تأسيس شركة عربية تشارك فيها جميع الأقطار العربية المنتجة والمصدرة تتولى تنظيم وتصدير التمور بالطرق العلمية حيث تعمل هذه الشركة على توحيد الجهود التسويقية القائمة من قبل كل دولة مصدرة على حدى وتمنع المنافسة في الأسعار بين الأقطار العربية المنتجة والمصدرة وتسهل السيطرة على الأسواق العالمية من ناحية استهلاك التمور علماً أن هذه الفكرة ليست حديثة في مجال التسويق الزراعي في الواقع فمعظم الدول الأوربية الواقعة على حوض البحر الأبيض والمنتجة للخضار والفواكه قد أسست شركات تعاونية شاركت فيها مزارعين ومسوقين وهي المخولة بالتصدير والمقايضة وذلك للقضاء على المنافسة بين الشركات المصدرة المحلية والتي تؤدي إلى انخفاض الأسعار .

وأخيراً لاحظنا أثناء الدراسة تأثير الاستيراد الطردي وتأثير سعر الطن المستورد من التمور على حصة الفرد في الأقطار العربية المستوردة للتمور ونظراً لتأثير الاستيراد الإيجابي على حصة الفرد من التمور وبغض النظر عن كون بعض الأقطار منتجة ومصدرة للتمور فالسماح باستيراد هذه السلعة وفتح أبواب التجارة أمامها سيؤدي إلى خلق طلب جديد في الأسواق العربية المختلفة وبالتالي إلى رفع حصة الفرد العربي من التمور .

الملاحظات :

(1) هناك أخطاء ملحوظة في معظم أعداد المرجع فبالنسبة لإنتاج واستيراد وتصدير الكميات لسنة معينة تختلف من مجلد إلى آخر ، ومن جهة أخرى فصادرات دولة الكويت مثلاً أكبر بكثير من مجموع إنتاجها مضافاً إليه استيرادها من التمور لذا أهملنا البيانات التي تتعلق بدولة الكويت فعلى المنظمة تدقيق ومراقبة الأرقام بدقة لإزالة الأخطاء الإحصائية الموجودة في الأعداد .

(2)بلا شك إن هناك عوامل أخرى مهمة مثل سعر التمور وسعر السلع البديلة والدخل والسكان وذوق المستهلك تؤثر على حصة الفرد مباشرة ولكن نظراً لأن هدف الدراسة هو تعيين أثر التجارة الخارجية بالذات على حصة الفرد ، فاكتفينا باستعمال العوامل التي تتعلق بالتجارة الخارجية فقط .

(3) لقد اختبرنا معامل b فاختبار t والنموذج ككل باختبار F فلما كانت قيمة t المحسوبة أكبر من قيمة t الجدولية والتي هي 2.57 وقيمة F المحسوبة أكبر من قيمة F الجدولية والتي هي 6.61 اعتبرنا النموذج

ككل مقبول والارتباط يقيس لنا نسبة واتجاه العلاقة بين المتغيرين . أما معامل التحديد فهو نسبة تفسير أو شرح المتغير المستقل للمتغير التابع .

(4) البكر عبد الجبار ، نخلة التمر ، الدار العربية للموسوعات ، مطبعة العاني بغداد 1972 ص 921 .

الخلاصة :

بالرغم من زيادة إنتاج كميات التمور في الوطن العربي بنسبة 2% سنوياً فحصة الفرد العربي من التمور لم تتجاوز 12 كغم/فرد في سنة 1985 م ربما ستتدنى هذه الحصة لتصل بحدود 5 كغم/فرد في سنة 2000 لأن نسبة الزيادة السكانية في الوطن العربي هي 4% والتي تمثل ضعف نسبة زيادة إنتاج التمور .

وفي محاولة تعرف على مدى العلاقة بين الإنتاج والتصدير والاستيراد كمتغيرات مستقلة وبين حصة الفرد باستعمال المعادلة الانحدارية البسيطة ، ظهرت أن الإنتاج واستيراد التمور تأثير إيجابي مقبول على حصة الفرد العربي ولم تكن هناك أية علاقة بين صادرات التمور وحصة الفرد فلرفع حصة الفرد العربي من التمور من جديد افترضنا زيادة الإنتاج على الأقل بنسبة 4% سنوياً استناداً إلى الطلب الناتج عن الزيادة السكانية 4% سنوياً من جهة وخلق طلب خارجي وداخلي من جهة أخرى وذلك بتنشيط عمليات استيراد وتصدير التمور معاً بشرط اتباع أساليب جديدة في الإنتاج والتسويق مثل الجني والتعبئة والتخزين والنقل والمعايرة . أما بالنسبة لتنشيط الطلب الخارجي بالذات، فقد افترضنا تأسيس شركة عربية مشتركة بين الأقطار العربية المنتجة والمصدرة للتمور لتوحيد الجهود التسويقية ومنع المنافسة بين شركات الأقطار العربية .

الرواية الشفهية والمصادر المدوّنة في كتابة التاريخ

الجزء الأول

د. ميلاد المقرحي

1 — مقدمة :

لعل أهم مميزات هؤلاء المتحمسين للتاريخ الشفهي أو الرواية الشفهية تكمن في النزعة إلى المبالغة في أهمية وجدّية البحث التأريخي الشفهي باعتباره « شيء جديد أو غير مألوف » . والواقع أن الجديد في ذلك هو تدّوين الكثير من الحقائق التاريخية الجديدة التي يتم الكشف عنها أثناء المقابلات الشخصية ، ثم تسجيلها فتغدو وثائق مدّونة توضع في متناول الباحثين . ونحنُ هنا لانحط من قدر المهتمين بالرواية الشفهية المعاصرين أو المؤرخين المعاصرين المهتمين بالرواية الشفهية وبالتالي التاريخ الشفهي عندما نشير إلى أنهم لا يمثلون أحدث نوع من المؤرخين بل أقدم نوع[1] . ومع ذلك نستطيع أن نؤكد أن نمو الإهتمام بالبحث التاريخي الشفهي بعتبر إحدى أهم المميزات المثيرة جداً للدراسة التاريخية في الوقت الحاضر ، خاصة أن التقدم في مجال التقنية الحديثة

★ أستاذ مشارك ، قسم الدراسات التاريخية والأثرية ، جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا .

(1) David Henige, **Oral Historiography** (London, 1982) pp. 3-4 .

قد جعل هذا النوع من البحث التاريخي ممكناً وملائماً من الناحية الاقتصادية والفنية والعلمية .

وقد ساعد الإهتمام الجديد المتزايد بتاريخ العالم الثالث ، خاصة بعد تحرير المستعمرات ونهاية الاستعمار على هذا التطور في مجال البحث التاريخي الذي يعتمد على الرواية الشفهية إلى جانب المصادر المدّونة الأخرى كما ساعد على هذا التطور أيضاً البحث المكثف في مجالات الدراسات التاريخية التقليدية الأخرى . ومن الغريب حقاً أن حقل التأريخ الشفهي يعتبر ، من حيث التركيز البحثي المقصود ، في مقدمة دراسة التاريخ ، بينما تخلفت ، مجالات أخرى من مجالات دراسة التاريخ وذلك من حيث تحليل النص[2] .

ولكن إذا كانت طبيعة البحث التاريخي الشفهي قد وصلت إلى ما هي عليه الآن ، فإن دراسة وكتابة ومعرفة التاريخ من خلال الرواية الشفهية ليست شيئاً جديداً . فالرواية الشفهية قديمة قدم الثقافة الإنسانية ، أي منذ أن تطورت لدى الإنسان القدرة على التعلم ، بمعنى الاستفادة من التجربة والقدرة على الترميز ، أي منذ ظهور اللغة التي مكنت الناس من التفاهم فيما بينهم ، كما مكنتهم أيضاً من تجميع المعلومات ، وحفظها ونقلها من جيل إلى جيل . إن معرفة القراءة والكتابة أو عدمها وبالتالي المصادر الشفهية والمصادر المدّونة قد وُجدت جنباً إلى جنب . وحتى بداية العصور الحديثة تعتبر عملية إكتشاف الماضي عن طريق المنهجية الشفهية من الأهمية بمكان في أغلب أنحاء العالم ومنذ ذلك الوقت بقيت مهمة إلى حد ما حتى في الثقافات التي تمتاز بدرجة عالية من التعليم .

والذي يقبلون بأحداث سقوط طروادة Troy كما وردت في الألياذة[3] ربما يميلون إلى اعتبار هوميروس كأول مؤرخ شفهي معروف ثم هناك هيرودوتس وتوكيديدس وقد استعمل هذان المؤرخان الروايات الشفهية جنباً إلى جنب مع المعلومات التي جُمعت شخصياً من الرواة أي الروايات الشفهية . هيرودوتس المؤرخ اليوناني الذي كتب في أواسط القرن الخامس ق . م قد رحل على نطاق واسع إلى كل مكان من

(2) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 7-8 .

(3) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 8-12 .

آسيا الصغرى والشرق الأدنى وكان أثناء رحلاته يقوم بجمع القصص والحكايات حول الماضي ويبحث ويحقق في البقايا والآثار والأطلال والنصب التذكارية وبالرغم من أن الكثير من الروايات التي أستقى منها هيرودوتس معلوماته كانت تحتوي على درجة لابأس بها من الصدق والصحة إلا أن الكثير من هذه الروايات قد أحتوت أيضاً على معلومات تاريخية محرفة وسخافات أخرى تتعلق بالمناخ والجغرافيا[4] .

وقد أعتمد المؤرخون الأغريق والرومان الذين ظهروا فيما بعد على خليط من المصادر اشتملت على التقاليد والروايات الشفهية والسجلات المدّونة ... كما بات واضحاً الآن ومعترف به أن الروايات الشفهية قد لعبت دوراً مهماً في إعداد واستكمال الكثير من الأعمال التاريخية حول تاريخ الصين القديم . إن السعي وراء الحقيقة التاريخية — أو على الأقل ما يتصور الناس أنه حقيقة تاريخية — شيء واكب المجتمعات الإنسانية منذ بداية تبلورها ، فما من مجتمع من المجتمعات القديمة إلّا وكّرس جهداً كبيراً وواضحاً لذكر ما احتوى عليه ماضيه من مواقف وأخبار وأحداث يتناقلها أو ينقلها أبناؤه من جيلٍ إلى جيلٍ عن طريق الرواية الشفهية في المرحلة التي لا يكون فيها المجتمع قد عرف التدّوين ثم يتم تسجيلها حين تنشر الكتابة في المجتمع المذكور . وفي كلتا الحالتين يحاول المجتمع أن يصل إلى أبعد حد من الماضي يمكن أن تصل إليه الذاكرة الجماعية أو ذاكرة الرواة من أبناء ذلك المجتمع ، حتى إذا وصلت إلى الحد الذي لا تستطيع أن تعي ما قبله ، لجأت إلى الأسطورة لتستكمل بها تاريخ هذا المجتمع[5] .

ولفترة من الزمن على الأقل ، أخذت الروايات الشفهية في الاعتبار فيما يتعلق بدراسات الكتاب المقدس (الانجيل) بفرعية العهد القديم والعهد الجديد ، كما أُخذت

---

(4) الأشعار التي نسبت إلى هوميروس والتي صيغت في صورة ملحمة « الالياذة » في أواسط القرن التاسع ق . م لتحكي عن غزو الاخيين (وهو الاسم القديم لسكان بلاد اليونان) لمنطقة طروادة في القسم الشمالي العربي من أسيا الصغرى قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون وقد اعتقد اليونانيون القدماء أن هذه الملحمة تؤرخ لمرحلة من مراحل تاريخهم فعلاً ، إضافة إلى ذلك فإن الحفائر التي قام بها الأثريون تتفق مع بعض الحقائق التي وردت في الإلياذة . راجع :

J. B. Bury, **A History of Greece** (London, 1951) pp. 46-51.

(5) لطفي عبد الوهاب يحيى « الحقيقة التاريخية » علم الفكر ، المجلد 17 العدد 4 (1987) ص 143 .

في الاعتبار أيضاً تأثيرات الرواية الشفهية على هذا الكتاب ومحتوياته . فأغلب المسيحيين الأوائل لم يكونوا على معرفة بالقراءة والكتابة أو لم يكونوا ملمين بها بدرجة تكفي لكي يعتمدوا على الكلمة المدّونة ولهذا السبب كانت الكلمة المنطوقة ، بالضرورة أهم وسيلة فعالة وسائدة في ذلك الوقت ، لإنتقال التعاليم المسيحية من جيل المسيحيين الأوائل إلى الأجيال الأخرى المتعاقبة وقد استمر ذلك حتى ظهور وتطور لائحة الأسفار المعترف بها التي يُعتقد أنها تؤلف الكتاب المقدس[6] .

وأثناء العصور الوسطى استمر المؤرخون في أوروبا الغربية في الاعتماد على المصادر الشفهية ، فقد اعتمد المؤرخون — الأخباريون في أوروبا الغربية أثناء العصور الوسطى على الروايات الشفهية أو روايات من شهدوا الأحداث فعلاً وكأسلافهم الأغريق والرومان والمسيحيين الأوائل اشتملت أعمالهم على تفاصيل الماضي القريب واعتمدوا أيضاً على مذكراتهم الخاصة ومذكرات شاهدي العيان والرواية الشفهية في كتابة التاريخ . ويعتبر كتاب « دوميزداي » Domesday book أول مصدر رئيسي معروف جيداً وشهير جداً مدّون عن تاريخ انجلترا النورمانية وهو عبارة عن تقرير مطول حول ظروف السكان الاجتماعية والاقتصادية وأسماء المالكين للأرض قبل الفتح النورماني وبعده ومقدار قيمة الأرض أي أنه إحصاء عام لما سبق وقد صنف في سنة 1086م[7] . وكغيره من المصادر المدّونة قد اعتمد هذا الكتاب مباشرة وبشكل كبير على الشهادات التي قدمت شفهياً أثناء عدة جلسات محلية لسماع مختلف الشهادات ولجمع المعلومات .

وقد اعتمد أغلب المؤرخين الأخباريين الذين ظهروا في بريطانيا — العصور الوسطى على الروايات الشفهية إلى جانب المصادر المدّونة وقد كان كل واحد منهم حريصاً على تنبيه القارىء عند استعماله للرواية الشفهية[8] . وقد كانت هذه المنهجية التي تجمع بين الرواية الشفهية والمصادر المدّونة مصاحبة بشكل دائم للبحث التاريخي

---

(6) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 8-9 .

(7) راجع عبد القادر أحمد اليوسف ، **العصور الوسطى الأوروبية** 476 - 1500 (بيروت ، 196) ص ص 173 , 205 .

(8) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 8-10 .

حتى وقت متأخر من هذا العصر وربما حتى الوقت الراهن . وقد تكرر النمط الإنجليزي في فرنسا والدانمارك .

كنظرائهم الأوروبيين استخدم المؤرخون العرب المسلمون ، بشكل مباشر وغير مباشر ، المادة التاريخية الشفهية والمصادر المدّونة . إلا أن في الفترة الأولى من تاريخ الإسلام قد اعتمدت كتابة التاريخ وخاصة تلك المعلومات التاريخية المتعلقة بالأحداث الإسلامية المبكرة أساساً على المادة التاريخية الشفهية ، وقد استعمل البلاذري — المتوفى سنة 892م المصادر المدّونة إلى جانب الروايات الشفهية ، كما أعتمد الطبري على التقاليد والروايات الشفهية التي انتقلت من جيل إلى آخر ، وقد أخذ الطبري على عاتقه تنفيذ مشروع طموح يتعلق بتدّوين « كل الأحداث التي وقعت من وقت آدم حتى الوقت الحاضر » معتمداً على التقاليد والروايات الشفهية التي انتقلت من جيل إلى آخر ويحتوي سرد الطبري لتاريخ العالم قبل الإسلام على سلسلة طويلة من الحكايات والقصص حول الأحداث والشخصيات المهمة والتي أصبحت جزءاً من الروايات والمأثورات الشعبية وقد احتوت هذه الحكايات والقصص على الكثير من الأخطاء ... وعندما وصل الطبري إلى العصر الإسلامي شرع في استخدام المصادر المدّونة كما استشهد بمختلفِ الروايات الشفهية[9] .

أما المسعودي فقد قام بتنظيم حلقات نقاش ومقابلات شخصية وقد احتوى عمله التاريخي على مادة تاريخية قام بجمعها من الذين أشتركوا في هذه الجلسات . ومن عصر المسعودي حتى القرن الرابع عشر الميلادي أنتج المؤرخون المسلمون أعمالاً تاريخية اعتمدت جزئياً على المصادر الشفهية أو على تجاربهم الخاصة كما أعتمد ابن خلدون (1332—1406) على المصادر الشفهية والمدّونة وأثناء إعداد كتابه رحل ابن خلدون سنة 1386 إلى مصر حيث وجد مجموعة من الرواة من مختلف مناطق العالم وأشار إلى معلومات حصل عليها من رواة ينتمون إلى الصين التقى بهم في القاهرة إلا أننا لا نجد في مؤلفه إلا مادة قليلة عن الصين أغلبها غير صحيحة .

وقد كان للمؤرخين العرب المسلمين الفضل الأول في وضع قواعد علمية صارمة

(9) إن القارىء الذي يسعى إلى الحصول على مزيد من المعلومات سيجد ضالته في المراجع المشار إليها في هذه الدراسة ، بحيث يستطيع الإطلاع بنفسه على مزيد من المراجع .

لتدّوين الرواية التاريخية بحيث تأتي أقرب ما تكون إلى الدقة . ويستطيع المؤرخ المعاصر أن يستفيد من المنهج النقدي للرواية التاريخية كما وضعه هؤلاء المؤرخون على أن يتم تطوير ذلك المنهج بحيث يشمل كافة النواحي العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية وغيرها . ففي علوم الحديث نشأت مناهج الرواية وطرق النقل وأسس المسلمون « علم النقد التاريخي » الذي أنشأه الغرب في العصور الحديثة تحت تأثير المؤرخين المسلمين ، كما وضع المسلمون مناهج تطابق الرواية ونقلها في الزمان عبر الأجيال سواء عن طريق النقل الشفاهي من فم إلى فم أو النقل الكتابي من يدٍ إلى يدٍ . وعلماء الدين الإسلامي هم أول من نظم نقد الروايات التاريخية ووضع القواعد المنهجية لذلك فقد أضطروا إلى الإعتناء بأقوال النبي ﷺ وأفعاله لفهم القرآن الكريم ، كما وضعوا القواعد لجمع الأحاديث وتدقيقها وهم بذلك قد قدموا ، لاشك لعلم التاريخ قواعد لا تزال حتى اليوم ، مقبولة من حيث الأسس والجوهر في الأوساط العلمية[10] .

إن الرواية الشفهية ليست من الأمور المبتدعة حيث أن علم الرواية أصيل وقديم في الفكر العربي الإسلامي ولعل خير مثال على ذلك هو الجهود الكبيرة التي قام بها علماء الأحاديث والسيرة النبوية وقد أهتم المسلمون بهذا العلم كثيراً ووضعوا له ، كما سبق أن أشرنا ، ضوابط ومناهج جعلته من العلوم القليلة التي لم يستطع العصر الحديث أن يضيف إليه كثيراً . وبلغ من أهمية وقيمة علم الرواية لدى المسلمين أن أنشأوا علوم أخرى مساعدة تصاحبه مثل علم الإسناد الذي يهتم بالتعرف على رواة الأحاديث والأنساب والتأكد من خلفيات الرواة والرواية[11] .

إن العوامل والحاجات التي أوجدت علم التاريخ في الإسلام لم تأت كلها مجتمعة في وقتٍ واحدٍ ولكن سبق بعضها بعضاً وتعاون بعضها مع البعض الآخر على مدى

---

(10) أسد رستم ، **مصطلح التاريخ** (بيروت : منشورات المكتبة العصرية ، الطبعة الثالثة ، د . ت ، ص 1 .

(11) من أجل المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع أحمد أمين ، **ضحى الإسلام** ، الجزء الثاني (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السادسة 1964) ص ص 319 - 360 ، هاملتون جب **دراسات في حضارة الإسلام** ترجمة إحسان عباس وآخرون (بيروت : دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ، 1979 م) ص ص 143 - 182 .

حوالي قرنين من الزمن ما بين أواسط القرن الأول الهجري وأواسط القرن الثالث . إن معظم معلومات التاريخ الإسلامي الأولية جاءت عن طريق الرواية الشفهية أي عن طريق استماع الشهادة من الشهود المباشرين للحدث التاريخي وهي عملية شفهية خالصة كانت بشكل مباشر بين الشاهد الذي هو المصدر الأول والأساسي للمعلومات ، وبين جامع تلك المعلومات من الأفواه . ثم عملية حفظ المعلومات . ويلاحظ شاكر مصطفى في كتابه **التاريخ العربي والمؤرخون** ج1 ص 75 أن هذه العملية لم تكن تتم عن طريق الذاكرة ولا بها وحدها أبداً ولكن كانت تتم في أغلب الأحوال عن طريق التسجيل والتدّوين الكتابي الشخصي وقد كانت هذه العملية تجري باستمرار منذ عهد الرسالة نفسه إذ يدّون المستمع ما يهمه من المعلومات نفسه . وتكمن مهمة التدّوين هنا في مساعدة الذاكرة على دقة النقل وصحته والعملية الأخيرة هي نقل المعلومات إلى الآخرين وهي بدورها عملية شفهية .

وقد كانت رغبة العلماء في التوثيق ومنع التحريف والزيف تدفعهم إلى عدم الثقة في المعلومات التي لا تأتي عن طريق النقل المباشر والسماع الشخصي عن أصحابها العارفين بها والحافظين لها . وقد أدى هذا الحرص إلى وضع الرواية الشفهية في مستوى الاهتمام الأول[12] . إن عملية التدوين قد بدأت نقلاً عن الشفاه وغيرها من المسجلات كالوثائق والكتب . كما رافق المرحلة الأولى وجود جمهور واسع من رواة التاريخ والأخبار والأنساب يحدثون بما يعرفون . وكان هذا الجمهور الواسع من رواة الأنساب والأخبار والتاريخ يشكل الاطار العام من اهتمامات الناس التاريخية . وضمن هذا الجمهور ، وعلى يد عدد من أفراده ، كانت تجري الخطوات الأولى للأنتقال بالتاريخ من حالة المعرفة الشفهية إلى المعرفة الكتابية أي من التاريخ المروي إلى التاريخ المدّون[13] .

---

(12) السيد عبد العزيز سالم ، **التاريخ والمؤرخون العرب** (بيروت : دار النهضة العربية ، 1981) ص ص 75 — 82 ، شاكر مصطفى ، **التاريخ العربي والمؤرخون** (بيروت : دار العلم للملايين ، 1979) الجزء الأول ص ص 75 — 76 .

(13) شاكر مصطفى ، **التاريخ العربي والمؤرخون** الجزء الأول ص 94 ، راجع أيضاً ج . هرنشو ، **علم التاريخ** ترجمة عبد الحميد العبادي (بيروت : دار الحداثة ، 1982) ص ص 12 - 14 , 34 - 45 ، أحمد أمين ، **ضحى الإسلام** ، الجزء الثاني ص ص 33 - 340 ، هاملتون جب ، **دراسات في حضارة الإسلام** ، ص ص 144 - 147 .

و لم يكن التدّوين التاريخي الأول عند المسلمين كله نقلاً عن الرواية الشفهية وحدها ويبدو مؤكداً أن بعض الوثائق والسجلات والأسفار والكتب الأصلية قد شارك في ذلك التدّوين ، أي استعمال الرواية الشفهية والمصادر المدّونة في وقت واحد . فالدقة التي اتسمت بها الأخبار التاريخية المتعلقة بعصر الخلفاء الراشدين والواردة في الحديث المدني والتي استفاد منها بعض المؤلفين كالواقدي[14] مثلاً ، توحي بوجود وثائق مخطوطة في المدينة كانت في ذلك العهد المبكر من التاريخ الإسلامي مراجع يرجع إليها الناس[15] .

وفي الفترة المبكرة من تاريخ التدّوين ظهرت أيضاً عمليات التفسير التاريخي والتحليل والتعليل السياسي . وقد بدأت فلسفة التاريخ بشكل أولي ، وكان من الطبيعي أن تكون « إرادة الله » هي محور هذه الفلسفة[16] .

إن تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين مماثل لتطورها في أوروبا وخاصة فيما يتعلق بالموقف تجاه المصادر الشفهية واستعمالها . أن أغلب المؤرخين الذين وصلتنا أعمالهم أو الذين عاشت أعمالهم من بعدهم قد كتبوا تلك الأعمال وفقاً لنموذج ثلاثي :

أولاً : التاريخ المبكر وهو جزئياً تاريخ أسطوري بني على أساس خليط من السجلات المدّونة والروايات الشفهية .

ثانياً : تاريخ الفترة الوسطى واعتمدوا في كتابته أساساً على المادة التاريخية المدّونة المتيسر الحصول عليها .

ثالثاً : التاريخ الحديث والمعاصر واعتمدوا في كتابته على إستخدام الرواة والروايات الشفهية وتجاربهم الخاصة . ومنذ زمن ابن خلدون حدث تطور جديد في الكتابة التاريخية عند المسلمين وساد الاعتقاد بأن الرواية الشفهية تعتبر أقل أهمية من المصادر

---

(14) محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، المتوفى سنة 207 هـ ، ألف حوالي 28 كتاباً منها **أخبار مكة** ، **مقتل الحسين** ، **سيرة أبي بكر** ، **وفاة النبي** ، **فتوح الشام التاريخ الكبير** . راجع السيد عبد العزيز سالم ، **التاريخ والمؤرخون العرب ص ص** 6 — 66 .

(15) شاكر مصطفى ، **التاريخ العربي والمؤرخون** الجزء الأول ص ص 87-88 .

(16) شاكر مصطفى ، **التاريخ العربي والمؤرخون** الجزء الأول ص ص 90-91 .

المدّونة ... وقد حدث هذا التغيير في وقت مبكر في أوروبا[17] .

ومع نهاية القرن السابع عشر أصبح من النادر بالنسبة للمؤرخين في أوروبا أن يرجعوا إلى الرواية الشفهية . وبدلاً من ذلك ظهرت الحاجة إلى جميع المصادر الأولية التي تحتوي على النصوص الأصلية الرسمية من المعاهدات والسجلات والعقود والدساتير والقوانين والمراسيم وسير القديسين الأوائل والتواريخ المدّونة التي تسرد الأحداث التاريخية حسب التسلسل الزمني لهذه الأحداث . وقد تم نشر عدد كبير من هذه المجلدات في أوروبا الغربية وخاصة في بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، وكان من الطبيعي أن تلفت هذه المنشورات انتباه المؤرخين الذين شرعوا على التوّ في استعمال هذه الوثائق التي وصفت بأنها مصادر أولية من الطراز الأول . ويبدو أن المبدأ الذي يقول بأن « مهمة الكتابة التاريخية تعني بالضرورة استشارة واستعمال هذه المصادر ، وهذه المصادر فقط ، قد بدأ من هذا الوقت »[18] . ومع ذلك فإن استخدام المصادر الشفهية لم يُهمل كلية . فهناك مجموعة من المؤرخين استعملت الوثائق المدّونة إلا أنها اعتمدت بشكل مكثف على مجموعة من المادة التاريخية التي كانت أصلاً شفهية .

ومن ناحية أخرى إن تخلي المؤرخين شبه التام على المصادر الشفهية قد ترك فلاسفة الأخلاق والفولكلوريين وحدهم في هذا الحقل حيث أكدوا اهتمامهم به ، ولكن لا الفلاسفة ولا الفولكلوريين يوجد لديهم اهتمام بالماضي يمكن مقارنته باهتمام المؤرخين . لقد تطلبت دراسة المجتمعات البدائية معالجة مشكلة كيفية انتقال المعرفة والعادات في ثقافات لم تظهر الكتابة فيها بعد . ويرى بعض الباحثين أن التراث الشفهي ينتقل عادة جيلاً بعد جيل ومن جيل إلى آخر عن طريق الذاكرة وبالنظر إلى كون التراث الشفهي لا يعتبر بمثابة شواهد مباشرة عن أحداث الماضي فإنه كان مُبْهَماً ومشوشاً ومحرفاً ويتكون من شظايا مختلفة غير مترابطة ولهذا السبب يجب أن يستعمل فقط بالإضافة إلى المصادر المدّونة أو كشيء مكمل لها . ومع ذلك فإن المعلومات الشهفية تعتبر ذات قيمة ومفيدة بالنسبة لعمل المؤرخين وفي حالة توفر هذه المعلومات ينبغي أن تستعمل

(17) David Henige, **Oral Historiography**, p. 13 .

(18) David Henige, **Oral Historiography**, p. 13 .

في بحوثهم التاريخية ... بل يجب أن يعملوا من أجل الحصول عليها[19] .

وقد أصر أغلب مؤلفو الكتب اليدوية على وجهة نظرهم القائلة بأنه لا توجد قيمة كبرى يمكن أن تُعطى للمصادر الشفهية وقد أدى هذا الرأي إلى أمرين : أولاً تجاهل التراث الشفهي كمصدر كلية ، ثانياً الإشارة إلى المصادر الشفهية من أجل التنبيه إلى عدم فائدتها للمؤرخين . إن المصادر الشفهية قد ورد ذكرها في بعض الأحيان في الكتب المنهجية اليدوية التي نُشرت أو أُعيد نشرها بعد سنة 1970 إلا أن الإشارة كانت فقط إلى عمل الباحثين المعاصرين المهتمين بجمع مادة التاريخ الشفهي في المجتمعات الحديثة وإلى التقنية التي أُستعملت في هذا المجال و لم يكن الهدف محاولة تفسير البيانات الشفهية[20] . و لم يرد في الكتب المنهجية اليدوية — وهي كثيرة لا يتسع المجال هنا لذكرها — أي توجيه بخصوص المشاكل ذات العلاقة بإجراء البحوث الميدانية المتعلقة بجمع الروايات الشفهية والبحث عنها ويبدو أن هذا الموضوع قد تُرك تماماً إلى علماء الإجتماع الذين يطبقون عملياً نظريات في مجال البحوث الميدانية لا تروق كثيراً للمؤرخين[21] .

ومن ناحية أخرى أنشغل بعض الفولكلوريين والأنثروبولوجيين بالجدل حول القيمة التاريخية للمعلومات التاريخية الشفهية ولكن مع بداية خمسينات هذا القرن بدأ الكثير من الأنثروبولوجيين يميلون إلى الاعتقاد في أن المصادر الشفهية التي كانت تُروى في المجتمعات البدائية يمكن أن تكون لها قيمة تاريخية ، أما أغلبية الفولكلوريين فقد رفضت الأخذ بهذا الرأي ... وتبنى بعض الفولكلوريين وجهة نظر جديدة تقول إن « كل الأساطير والخرافات ، وهذه تشمل حسب وجهة نظرهم ، التراث الشعبي الشفهي والمصادر الشفهية ، وقد نشأت أساساً عن مجموعة طقوس وشعائر ومعتقدات دينية وليس من أحداث فعلية واقعية ... » وقد أعلن أحدهم صراحة وبدون تردد أن « الرواية الشفهية لا تحتوي على حقائق تاريخية مطلقة »[22] ، بل تحتوي على ما

---

(19) David Henige, **Oral Historiography**, p. 18 .

(20) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 18-20 .

(21) المرجع السابق ، ص 18 .

(22) المرجع السابق ، ص 20 .

يضاف إليها عادة وعلى مجموعة من الحكايات الشعبية والأساطير والخرافات ... لاشك أن هذا الرأي يبدو للكثير من المؤرخين والباحثين مجرد هراء وكلام تافه بل سخافات .

إن الإهتمام بالرواية الشفهية كان تحولاً هاماً وجديداً في مجال الدراسة التاريخية . وينبغي أن نشير هنا إلى أن المجموعة الأولى من المؤرخين المحترفين لمهنة كتابة التاريخ الذين شرعوا في دراسة الثقافات البدائية في أواخر أربعينات وخمسينات القرن العشرين لم يتدربوا في مجال التاريخ الإفريقي أو تاريخ الهنود الحمر في أمريكا الشمالية أو تاريخ منطقة الأوقيانوس ... فهذه الحقول الدراسية لم تظهر بعد على أية حال ... بل في تاريخ العصور الوسطى والتاريخ الحديث وبشكل خاص في التاريخ السياسي والأمبريالي وأحياناً في حقل الأنثروبولوجيا . وقد تطور الاهتمام عند البعض في هذا المجال الجديد أثناء ومن خلال عملهم في المستعمرات التي كانت تشق طريقها بصعوبة بالغة نحو الاستقلال حيث قاموا بمهمة التعليم العالي الذي تأسس حديثاً كما أنهم قد أنهمكوا في مشروع بحثي يعتبر جديداً بالنسبة لعمل المؤرخين وهو البحث الميداني Fieldwork .

وقد قام هؤلاء الرواد الأوائل باستقطاب وتدريب عدد آخر من الباحثين وظل الاهتمام بالمصادر الشفهية يتنامى وينتشر بين الباحثين والمؤرخين كما أزداد عدد المهتمين بها . وفي بداية الستينات ظهر اثنان من الحوافز المهمة ساهمتا في تنامي الإهتمام بالتاريخ الشفهي ، وخاصة بين المهتمين بدراسة تاريخ وحضارة أفريقيا وأيضاً بين الباحثين المهتمين بدراسة الأوقيانوس والهنود الحمر في أمريكا ويكمن الحافز الأول في التحذير أنه من المستحيل تنفيذ التاريخ الشفهي أو الكتابة التاريخية اعتماداً على استخدام المصادر الشفهية ويرجع هذا التحذير إلى التزام بعض الباحثين أو ربما جلهم بتقليد الأرشيف الوثائقي أو بعبارة أخرى هؤلاء الذين لا زالوا مقيدين داخل سجلات المحفوظات التاريخية والأرشيفات الوثائقية العامة . مثلاً تريفور — روبر Hugh Trevor - Roper ، الذي لم يرق له الاهتمام المتزايد والملحوظ بدراسة تاريخ المجتمعات البدائية ، قرر أن الآوان قد آن لقطع هذه الزهرة المتفتحة قبل أن تنمو أكثر ، كما أشار تريفور — روبر إلى أنه في أماكن كأفريقيا يمكن أن تكون نشاطات المستعمرين فقط مواضيع ملائمة للتاريخ المناسب والمعقول ، وأعلن أن « الباقي كان مظلماً ... وإن الظلام ليس موضوع التاريخ » وأشار أيضاً إلى أنه ليس من المناسب أن نشغل أنفسنا

بدراسة الجماعات والقبائل البدائية التي توجد في أجزاء غير مهمة من العالم[23] . إن هذه الملاحظات التي كانت تفتقر إلى التبرير والأدلة قد أدت إلى زيادة الإهتمام وبشكل مكثف بتاريخ العالم الثالث .

ويكمن الحافز الثاني في الدفاع الواسع عن القيمة التاريخية المحتملة للتراث الشفهي والأنواع الأخرى من المعلومات الشفهية حول الماضي[24] ، ويتمثل في ظهور كتاب يان فانسينا Jan Vansina[25] حول التراث الشفهي (التاريخ ، التأريخ الشفهي) وقد ظهر هذا الكتاب أولاً باللغة الفرنسية في سنة 1961 ، وباللغة الإنجليزية في سنة 1965 وقد كان كتاب Oral Tradition مؤثراً إلى حد بعيد حيث أنه قد حدد الأهداف والدوافع ووجهات النظر المتعلقة بدراسة التراث والتاريخ الشفهي . وقد تدرب فانسينا كباحث متخصص في العصور الوسطى والأنثروبولوجيا . وقد بقي كتابه الكتاب الوحيد والمفيد للمؤرخين الذين يستعملون المصادر الشفهية حيث قدم لهم خدمة كبيرة تتمثل في التوجيه وفي تبرير اهتمامهم بالمصادر الشفهية والتاريخ الشفهي ومن هنا حدث تطور ملحوظ في الاهتمام بالمصادر الشفهية لا سيما في مجال دراسة تاريخ مجتمعات العالم الثالث والأسباب الكامنة وراء هذا التطور الملحوظ المستمر كثيرة : كالبحث عن مجالات جديدة للدراسة بدلاً من متابعة دراسة وإعادة دراسة المجالات القديمة ، البحث عن مناطق صغيرة لاكتشافها تاريخياً أو تلك التي لم تدرس بعد ، اكتشاف مصادر إضافية لم تستخدم بعد أو محاولة استخدام منهجية جديدة لم يحاول استعمالها أحد من قبل . كما شجعت الأموال التي رُصدت لهذه البحوث عدداً كبيراً من الباحثين على الشروع في دراسة التاريخ الشفهي الذي يعتمد أساساً على البحوث الميدانية[26] .

وأيا كان الأمر فإن ستينات وسبعينات القرن العشرين قد شهدت فعلاً قمة ازدهار وتنامي سعي الباحثين وراء مواصلة ومتابعة دراسة « التأريخ الشفهي » صحيح أنه قد حدث انخفاض في نسبة هذا التطور والاهتمام مما يؤكد ، وبالتالي ، استمرارية الشكوك حول استخدام المصادر الشفهية كما سبق أن أوضحنا في مكان آخر من هذه الدراسة ،

(23) المرجع السابق ، ص 21 .

(24) المرجع السابق ، ص 20 .

(25) Jan Vansina, **The oral Tradition: A Study Historical Methodology** (Chicago, 1964) .

(26) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 21-22 .

ومع ذلك فإن زيادة عدد الباحثين المتخصصين وزيادة كمية المعلومات تؤكد أنه بالرغم من كل التحفظات التي أبداها البعض فإن الإهتمام بالتأريخ الشفهي ظل يتنامى ويتسع بين المؤرخين وإن التاريخ الشفهي بات أحد فروع مجالات دراسة التاريخ .

أما قضية تفسير وتعليل التاريخ الشفهي والمصادر الشفهية فقد بقيت في حالة تغير متواصل ومستمر . مع ملاحظة أن الرأي القائل بأن المصادر الشفهية تشبه إلى حد بعيد الوثائق المدّونة وعلى هذا الأساس يمكن إخضاعها للاختبار لكي يتم تحديد مدى صحتها وأصالتها وحتى صحة وأصالة مصدرها الأصلي قد أدى إلى إدراك المؤرخين إن دراسة وفهم المصادر التاريخية الشفهية أمر صعب ويتطلب جهداً كبيراً .

وتؤكد الدراسات العلمية في علم الذاكرة الشكوك حول احتمال قدرة ما يسمى بالمصادر الثابتة على الانتقال من جيل إلى آخر وفي مدة عدة أجيال . كما أدرك المؤرخون الآن تأثيرات الطريقة أو الطرق التي يتم وفقاً لها انتقال الروايات الشفهية والتراث الشعبي الشفهي بشكل عام على عملية انتقال المعلومات عن طريق الكلمة المنطوقة . ومن ناحية أخرى ساعد تراكم تجارب البحوث الميدانية المؤرخين على فهم طبيعة التعامل مع قضية جمع المادة الشفهية بمعنى أنها قد نبهتهم إلى أن أسلوب الاتصال بين شخص وآخر في حد ذاته يؤثر كثيراً على طبيعة المادة التي جُمعت . وفي حقيقة الأمر أن بعض هذه البحوث كانت ذات أهمية بالغة بحيث أنها قد فتحت مسالك جديدة للبحث والاستقصاء .

2 ـ أهمية المصادر الشفهية :

حتى هذه اللحظة هناك بعض المؤرخين يرفضون استخدام الوثائق الشفهية ولا يصنفونها في مكتبة الدراسات العلمية وينظرون إليها كمراجع قليلة الأهمية لا يجوز الاعتماد عليها إلا في حالة واحدة فقط وهي عدم توفر أو وجود المصدر المدّون ويلاحظ مسعود ضاهر أن هذه المنهجية تقود في بعض الأحيان ، إلى إهمال وثائق أساسية لصالح وثائق أقل أهمية فقط لوجود الفارق بين المصادر الشفهية والمصادر المدّونة ، ومن ناحية أخرى تؤدي إلى قطع الطريق أمام تدّوين الكثير من الحقائق التاريخية الجديدة التي يتم اكتشافها أثناء إجراء المقابلات الشخصية الشفهية ، ثم تسجل وتدّون فتصبح وثائق

مكتوبة توضع في متناول جميع الباحثين والمهتمين بالدراسات والبحوث التاريخية[27] .

إن المؤرخين كثيرو الممارسة للوثائق المدّونة يكنون من الاحترام للأسلوب الوثائقي ما يحدوهم أحياناً إلى اعتباره الأسلوب التاريخي الوحيد . ومن يقبلون بهذا الرأي ربما يبدأون بحوثهم لا باختيار الموضوع أو المشكلة ، بل بمجموعة من الوثائق أو مجموعة من الأوراق الخاصة نشرت حديثاً أو عرضت أمام الباحثين . وربما يبدأ طالب الدكتوراه بحثه في مثل هذه الوثائق دون أن تكون لديه فرضيات أو مفهومات خاصة ، أي أن هدفه يكمن في مجرد « استكشاف ما في الوثائق المدّونة »[28] .

إن من يظن أن الوثائق الشفهية لا تصلح كوثائق ومستندات علمية لدراسة التاريخ أو دراسة التطور الاجتماعي لمجتمع ما قد يتراجع في رأيه إذا أدرك أن الوثائق المدّونة كانت هي الأخرى عبارة عن روايات شفهية متناقلة قبل أن تدّون . وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدّونة ليست أكثر أهمية من الوثائق الشفهية ، ولا تمتاز عنها إلا بالتدّوين صحيح أنه توجد ضوابط منهجية كثيرة ومتعددة لإثبات صحة وأصالة النص المدّون وخلوه من التزوير ولكن ليس من الصعب أن نضع ضوابط مماثلة لإثبات صحة وأصالة المصدر الشفهي قبل تسجيله بواسطة ألات التسجيل أو تدّوينه . فلايوجد أي إختلاف أساسي بين النص المدّون والمصدر الشفهي الذي يتم تدوينه بقلم صاحبه أو بصوته أو اعتماداً على راوي ذلك المصدر الذي تنطبق عليه قواعد الدقة المنهجية لمن يؤخذ بروايته[29]

ويؤكد مسعود ضاهر على أن « المقابلة (الشفهية) توضح أبعاد إنسانية نفسية ومباشرة لا يمكن الوصول إليها من خلال النص المكتوب . فالمؤرخ ، في هذه الحالة يعيش الأحداث التاريخية التي يدرسها عبر بعض المشاركين فيها ، وله إمكانية الحوار

---

(27) مسعود ضاهر « التأريخ الأهلي والتاريخ الرسمي : دراسة في أهمية المصدر الشفوي » الفكر العربي السنة 4 العدد 27 (مايو — يونيو 1982) ص ص 185-198 .

(28) هـ . ج . أتكن ، **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية** ، ترجمة محمود زايد (بيروت : دار العلم للملايين ، 1963) ص ص 147-148 .

(29) مسعود ضاهر ، المرجع السابق ، ص 185 .

المباشر معهم واستيضاحهم جوانب كثيرة عن الماضي الذي شاركوا في صنعه »[30] .

كما يستفيد المؤرخ بطريقة مباشرة من الانطباع العام الذي تركته الأحداث اللاحقة في نفس الفرد الذي شارك في صنع الحدث أو شهده ، وهذا بدوره يساهم مباشرة في ضبط الاستنتاجات العلمية التي يتوصل إليها الباحث ، عن طريق اكتشاف حقيقة الأهداف التي توخاها أولئك الناس عند مشاركتهم الفعالة في كتابة تاريخهم بأنفسهم عبر علاقاتهم اليومية . إن المصدر الشفهي ، إذاً ، مهم ، كمصدر في التوثيق العلمي للكتابة التاريخية من ناحية ، وفي صياغة الاستنتاجات والإيضاحات حول مرحلة تاريخية معينة من ناحية أخرى . إن المصدر الشفهي ليس سوى حوار الفرد مع ماضيه الشخصي ، ولهذا السبب لا يجوز أن نبالغ في إبراز دور الفرد مهما كانت مرتبته الاجتماعية ولا يجوز المبالغة في بناء استنتاجات عامة على أساس آرائه الخاصة . فالفرد « لا يمكن أن يكون صانعاً للحدث التاريخي بل ، مشاركاً فيه »[31] . وهكذا إذا كان من الخطأ إسقاط دور الفرد في صنع الحدث التاريخي فإنه من الخطأ أيضاً أن نبالغ في ذلك الدور على حساب الظروف الموضوعية — الاقتصادية والاجتماعية التي تحدد مسار التطور .

ويستطيع المؤرخ أن يحلل كلا من الرواية الشفهية والمصادر أو الوثائق المدونة ويبني فرضياته على أساس المعلومات التاريخية التي يستقيها من مصادر ومراجع متنوعة . فالمؤرخ يستطيع أن يضبط المقابلة الشفهية في نص مدون أو مسجل وبالتالي تصبح الرواية الشفهية وثيقة علمية سهلة الاستخدام . فليس هناك نص وثائقي يمكن استخدامه ، وآخر لا يجوز استخدامه بل هناك مؤرخ عالم يستطيع أن يستفيد من كل الوثائق ، المدّونة والشفهية في كتابة التاريخ[32] .

وبشيء من التردد ينبغي أن نفترض أن الكثير من الروايات الشفهية والمأثورات الشعبية والتقاليد الشفهية المعاصرة هي إلى حد ما عبارة عن « أطلال ماض مطموس »

---

(30) مسعود ضاهر ، المرجع السابق ، ص 186 .

(31) مسعود ظاهر ، المرجع السابق ، ص 186 .

(32) المرجع السابق ، ص 186 .

ونتاج عقلية تعرضت مراراً للتحلل والتغير و تفكك ، فأشكالها قد تعرضت للتعديل والحذف والإضافة وحتى المحو لا مفر ، إذاً ، من أننا لا نستطيع أن ننظر إلى الكثير من التقاليد كحقيقة تاريخية ومن الطبيعي أن قبول هذه الحقيقة سيكون صعباً عند المهتمين بالروايات الشفهية[33] . فالحقائق التاريخية التي تصل إلينا لا تشكل كل الحقائق التي يحتاجها المؤرخ ليحصل على الصورة الكاملة التي يريدها ، وإنما تمثل ما اهتمت به المصادر التي نعتمد عليها في الحصول على الحقائق التاريخية وبالتالي كتابة التاريخ ، سواء أكانت هذه المصادر شفهية أم مدّونة .

(33) David Henige, **Oral Historiography**, pp. 4-5 .

استلهام التراث في شعر ابن درّاج القسطليّ

الدكتور عبد الرحمن عطية
جامعة قطر

تمهيد :

استلهام التراث في الشعر ظاهرة تعامل معها شعراؤنا عبر عصور الأدب المختلفة و لم تكن في يوم من الأيام وقفاً على شاعر بعينه أو على مجموعة من الشعراء بعينها ، بل عرفها كثيرون من شعرائنا ، مع تفاوت حجم تعاملهم معها بتفاوت ثقافاتهم اتساعاً وعمقاً وباختلاف الدوافع التي أثارت في أنفسهم الرغبة في استحضار التراث وفي توظيفه فنياً لخدمة أهداف يستشرفون تحقيقها .

يمثل التراث لدى الأجيال المختلفة تواصلاً نفسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً وهو يحمل في طياته عوامل اصطفاء تفرز القيم التي تكون مناط الاعتزاز لدى الأمة « وكل مُعْطي من مُعْطَيات التراث يرتبط دائماً في وجدان الأمة بقيم روحية وفكرية ووجدانية معينة بحيث يكفي استدعاء هذا المعطى أو ذاك لإثارة كل الإيحاءات والدلالات التي ارتبطت في وجدان السامع تلقائياً »[1] .

واستلهام التراث يتشكل في صور متعددة لا حدود لها ، فقد يأخذ أشكالاً كان النقد القديم قد تناولها تحديداً أو بالتسمية كالمعارضة والاقتباس والتضمين ، وقد يستوحى من نصوص القرآن أو الحديث أو الشعر أو النثر ، وقد يستخدم إشارات من التاريخ

أو من سِيَرِ بعض الشخصيات التاريخية وقد يستعير تعبيرات من المعجم التراثي ، ويوظف كل ذلك في دلالات موحية تصل الحاضر بالماضي ، وتربط بين ما يعتلج في نفس الشاعر من قيم ومفاهيم وما يناظرها في القديم لكي يعزز المواقف التي يطرح هذه القيم والمفاهيم في إطارها .

لقد أفردت الدراسات النقدية الحديثة حيّزاً في دراستها لرصد حركة استرجاع التراث في الشعر بعامة وفي « الشعر الحديث » بخاصة ، وربط كثير من الدارسين بروز هذه الظاهرة لدى عدد من شعراء مدرسة « الشعر الحديث » بتأثرهم بآراء الشاعر والناقد الإنكليزي (ت . س . اليوت) ، الذي نادى بضرورة استلهام تراث الأقدمين ، وأكثر في شعره من ذكر التراث اليوناني والروماني والأوروبي ، فقد جاراه كثير من أولئك الشعراء وأكثروا من استخدام الأساطير اليونانية والرومانية والأوروبية ، بالإضافة إلى التراث العربي والإسلامي . وقد وضع النقاد المحدثون معايير للنقد مقتبسة لدى بعضهم بمعظمها من معايير النقد الغربي[2] . ومن خلال هذه المعايير اعتبر كثير منهم أن ما ورد في شعرنا القديم من إشارات تراثية كان محصوراً في إطار صيغة (التعبير عن الموروث) ، بمعنى تسجيل عناصره ومعطياته بدون إضفاء دلالات معاصرة عليها ، أما الانتقال بهذه الإشارات إلى صيغة (التعبير بالموروث) ، بمعنى توظيفه فنّياً للتعبير عن التجارب المعاصرة ، فهو وليد الشعر في العصر الحديث ، ولم يعرفه شعرنا القديم[3] ، وهذا الرأي يحتاج إلى كثير من التمحيص لأنه بُنِيَ على دراسة للظاهرة في إطار الشعر الحديث ، أما تعميم نتائجها وسحبها على الشعر القديم فإنه لا ينسجم مع مسلمات مناهج البحث ... ومناقشة هذا الموضوع تحتاج إلى دراسة مستقلة لا تسمح بها دراستنا هذه التي سنقفها على دراسة الظاهرة في شعر ابن دراج .

وابن دراج[4] ، في صلة شعره بالتراث ، لم يكن بِدْعاً بين معاصريه أو سابقيه ، فقد كانت ظاهرة استخدام التراث معروفة لدى الشعراء في المشرق والمغرب وقَلَّ وجودُ شاعر لم يتأثر في شعره بالتراث ، نذكر منهم على وجه الخصوص النابغة الذبياني وحسان ابن ثابت والفرزدق وأبا تمام ، فقد مثَّل التراث في شعرهم حجماً ضخماً يلفت نظر الدارسين .

وعلى الرغم من بروز هذه الظاهرة بشكل واضح في شعرنا القديم ، فإنه لم يصل

إلى علمنا أن هناك دراسة قامت حولها لدى شاعر معين ، وهذا ما حدا بنا إلى تتبعها لدى ابن دراج الذي كان من أشد الشعراء صلة بالتراث ومن أشدهم توسعاً في استخدامه .

وشاعرنا ابن دراج لم يكن بِدْعا بين الشعراء في هذا الأمر كما أشرنا من قبل كما لم يكن بِدْعا في ذلك بين مواطنيه مِن أبناء الأندلس ، فقد كان الأندلسيون بعامة مولعين بتتبع كل ما يصدر عن المشرق من قديم الآثار وحديثها يستقبلونها بإعجاب ويضمنونها كتاباتهم وأشعارهم . يقول ابن بسام واصفاً اهتمام الأندلسيين بكل ما هو مشرقي :

« إلا أن أهل هذا الأفق أَبَوْا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أَوْطَنّ بأقصى الشام أو العراق ذباب لجَثَوْا على هذا صنما ، وتَلَوْا ذلك كتاباً محكماً »[5] .

إن استحضار التراث وتوظيفه لدى شاعر ما ، يقتضي صلة واسعة بهذا التراث ومثل هذا الأمر لا يتأتى عفو الخاطر ، بل لابد له من مخزون تراثي يترسب عبر القراءات وعبر الدرس والاستيعاب ثم ينساب على لسان الشاعر حين تستدعي الحاجة ظهوره استشهاداً به أو توظيفاً له .

وابن دراج كان واسع الثقافة ، كثير الإطلاع ، وقد نسبه المؤرخون إلى العلم ونعتوه بسعة المعرفة ، بالإضافة إلى الشاعرية فقد نعته الذهبي بصفة « العلامة »[6] وجعله الحِمْيَري وابن خلكان وابن شاكر والحُمَيْدي من العلماء المقدمين والمتقدمين[7] .

ويذكر ابن فضل الله العمري أنه كان يتولى التعليم في سرقسطة ويقول : « إلى أن أقام بسرقسطة ... يعلم اللغة والنسب ، ويعيد نَدى أندية العرب »[8] وهذا كله يؤكد صلته الكبيرة بالتراث وبالتالي سعة مخزونه منه . وقد لحظ القدماء هذا الأمر وتبينوا انعكاسه في شعره ، أشار إلى ذلك ابن بسام حين نقل عن أبي عامر بن شهيد قوله : « والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب »[9] . وهذا يعني أن القدماء من معاصري ابن دراج قد لحظوا استحضاره للتراث في شعره .

ولكي ندرك أبعاد المجالات التراثية التي نهل ابن دراج من ينابيعها ، قمنا باستقراء شعره لتحديد الإشارات التراثية فيه ولرصد مصادرها وقد تكشف ذلك عن ذخيرة غنية جداً من الإشارات والشواهد التراثية مستقاة من مصادر متعددة منها القرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة والفقه والتاريخ والأنساب والشعر والخطب والأمثال والأساطير والفلك .

مع القرآن الكريم :

يمثل القرآن الكريم قيمة تراثية لا نظير لها بين موارد التراث المختلفة فهو بالإضافة إلى اشتماله على أمور العقيدة والتشريع والأخلاق يوجه الناس إلى شئون دينهم ودنياهم ويضرب لهم الأمثال ويسرد لهم من تاريخ الأمم الخالية ما يتّعظون به ، وهو يشتمل على كل أساليب الترغيب والترهيب ، وكلما ازدادت صلة الإنسان بالقرآن الكريم قراءة واستيعاباً ازداد به تأثراً في سلوكه وفي تفكيره ، وكان القرآن رافداً أساسياً من روافد ثقافته .

وابن دراج من خلال ما عرفناه من سيرته وما أدركناه من وفور الإشارات التراثية القرآنية في شعره ، كان على صلة وثقى بالقرآن الكريم يستحضره في شتى المناسبات فيمدّه بما يعزز المعاني التي يرغب في طرحها أو في توكيدها وينطلق على لسانه مطعما كلامه به وكأنه يتحدث بالقرآن . أما طريقة استحضاره للقرآن الكريم في شعره فإنها تأخذ أشكالاً مختلفة ، فهي تتجلى في استخدام عدد كبير من التعابير القرآنيّة تتمثل أحياناً في لفظة من المعجم القرآني أو في جملة منه أو في جزء من آية ، أو في ألفاظ متفرقة من آية أو من سورة تثبت طريقة أدائها انتماءها لتلك الآية أو تلك السورة ، وتشتمل في معظمها على إشارات ترمز إلى قضايا وآراء وأحداث وقصص وشخصيات ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وهو في معظم هذه الإشارات لا يوردها على أنها شواهد على ما يريد إثباته ، بل يرمز بها إلى معان يحرص على توكيدها ، ولهذا كان يبتعد بها عن اسلوب « الاقتباس » المعروف في علم البديع وذلك لكي يحملها شحنات من الإيحاء أكثر فنية من العرض التقريري .

إن أساليب استخدام ابن دراج للتراث القرآني متعددة ونستطيع أن نرصد منها الأساليب التالية :

1 — الإشارة إلى قصص وأحداث قرآنية عبر استخدام تعابير قرآنية مجتزأة من آية وتوحي بالحدث الذي أشار إليه القرآن الكريم ، وذلك من خلال خصوصية التعبير القرآني الذي يجعل السامع يدرك منذ أول وهلة الانتماء القرآني لتلك التعابير ويستحضر معها ما أشير إليه من مجمل الحدث أو القصة ويدرك الهدف الذي وظفت تلك التعابير من أجله .

فمن ذلك مثلاً استخدامه لتعبيري « هيت لك » و« قرة عين لي ولك » في بيتين من قصيدة مدح بها ابنُ دراج يحيى بن منذر التجيبي صاحب سرقسطة :

اليـوم نـادَتْك السيـادةُ «هـيتَ لك»
في مـلك مـن حلّاك بهجـةَ مـا مـلك
ونهضتَ والإسلامُ يهتـف معلنـا
يـا منـذراً « قـرة عين لي ولك »[10]

فإن هذين التعبيرين وردا بنصهما في القرآن الكريم ويشيران بتكثيف إلى قصة يوسف مع امرأة فرعون[11] كما أن الإشارة إلى قصة سليمان عليه السلام مع خيله التي أخره الوقوف عندها عن صَلاتهِ فطفق يمسح سوقها وأعناقها[12] وقد وردت الإشارة إليها في موضعين من شعر ابن دراج ، وفي سياق لا يقصد منه استحضار القصة بل توظيفها وأولهما من قصيدة في مدح المنذر بن يحيى :

فهنـاك أنْصِلَتِ الأسنـةُ وانتحـى
سيْفـي بها (مسحـا بسُوق) ركائبي[13]

والآخر من قصيدة في مدح ابنه يحيى :

وسيفك في (الأعناق والسوقِ) مقتـدٍ
بسيـفِ (سليمـان) الموكل (بالمسْح)[14]

ومن سيرة موسى عليه السلام تجد إشارات إلى قصته مع ابنتي شعيب حين (سقى لهما) ثم (تولى إلى الظل) ثم طلبُهُما من أبيهما استئجارَه لأنه (القـوي الأمين) وإشارات إلى حادثة فلقه البحر بعصاه وإلى الأسباط الذين فجّر الصخر لهم باثنتَيْ عشرة عيناً[15] . وهذه الإشارات تبدو في مواقع متفرقة من قصائد ابن دراج منها قوله من

قصيدة في مدح الوزير عيسى بن سعيد :

وإنّـــيَ في أفيـــاء ظـــلك أشتكـــي
شَكِيَّةَ مـوسى (إذ تـولى إلى الظل)[16]

وقوله في عبد الملك بن الحاجب المنصور :

ودائـــــــــع مجد تقلدَّتَهـــــــــا
فكـنت عـليها (القـوي الأمينا)[17]

ومثله في مدح المنذر بن يحيى :

سَرَتْ مـن (عصا) مـوسى إليـهِ قرابَـةٌ
فَطَبٌّ (بِفَلْق البحرِ والصخر) عالمُ[18]

وكذلك في المنذر بن يحيى ، وهو يحدثه عن أسرته :

إذا ازدحموا في ضنك شربي تمثّلـــــــــوا
(بأسباط مـوسى) حـول (منفجر الصخر)[19]

ومن قصة لوط عليه السلام نلمح إشارة في قوله :

وآواني إلى (ركـــــن شديـــــد)
وأوفى بي على أمـــــــــل متاح[20]

ومن قصة ذي القرنين وبناء السد نسمع قوله من قصيدة في مدح المرتضى الأموي :

كتـائب لـو يُرْمـى بها الدهـرُ قبلنـا
لزلْـزِل (ذو القـرنين منـه وسدّه)[21]

ومن حادثة زكريا حين بشرته الملائكة بابنه يحيى قوله في تهنئة المنذر بن يحيى في ولادة ابنه يحيى :

فـبشراكِ يـا دنيـا سمُّي الـذي عـلا
به صوتُ (جبريـلٍ) بشيراً و(ميكال)[22]

وهناك إشارات كثيرة إلى أحداث كثيرة لا داعي للاسترسال في سردها ، منها

إشارات إلى قصص يونس وبلقيس وبيعة الرضوان والفتح ، وكلها تسير على النسق نفسه .

2 — الإشارة إلى شخصيات جاء ذكرها في القرآن الكريم وأوردها ابن دراج في شعره مستفيداً من سماتها أو خصائصها أو أفعالها أو أقوالها في دعم السياق الذي يود تعزيزه وتوكيده وقد ورد ذكر كثير من هذه الشخصيات عبر الأحداث والقصص التي أشرنا إليها آنفاً ومن ذلك أيضاً إشارة إلى داود عليه السلام ومهارته في صنع الدروع ﴿ أن أعمل سابغات وقدر من السرد ﴾[23] .

كـــأن فضاء الأرض أُلْـــبِسَ منهم
لَبـوساً مـــن الماذيّ (قُـدِّرَ سرده)[24]

ومنها إشارة إلى (مالك) .. خازن الجحيم ، حين خاطبه الكفار بقولهم : ﴿ ونادَوْا يا مالك لِيَقْضِ علينا ربك . قال إنكم ماكثون ﴾[25] وذلك في قوله :

ستـــنسَوْن أهـــوالَ الزمـــان ومالكـــاً
إذا ضمكـم في جنـة الفـوز رضوان[26]

ومنها إشارة إلى هاروت وماروت وهما اللذان كانا يعلمان الناس السحر ببابل : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما أُنزل على المَلَكَيْن ببابل هاروت وماروت ﴾[27] . وذلك في قوله :

وتُزْهـى بسحـرٍ مـن أحـاديثَ بينَنَـا
كـــأن أسيـــرَيْ بابـــلٍ نفثاها[28]

ومنها كذلك إشارات إلى فرعون وهامان :

وإنّـي لِفَـلِّ القبـط في مصر موئـل
وقد غِيلَ (فرعون) وأُهلك (هامان)[29]

3 — استخدام مفردات وجملاً من القاموس القرآني ، ضمن المفردات القرآنية ذات الخصوصية التي لم نسمعها إلا من القرآن ومِن ذلك استخدامه لكلمة

(يوفضون) التي وردت في قوله تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى جدث يوفضون ﴾[30] وذلك في قوله :

قفـوا واسمعـوا هـزّة الأرض رَجْـلاً
وركبـــا إلى نصبها « يوفضونا »[31]

وهناك تعبيرات قرآنية مزدوجة التركيب ، ذات خصوصية قرآنية أيضاً ، لأنها لم ترد في تركيبها الثنائي إلا خلال التعبير القرآني ، من ذلك ، استخدامه التعبير (فاسجد واقترب) من قوله :

واستـوفِ بهجتَهـا وطـيبَ نسيمِهـا
فإذا دنـا رمضانَ (فاسجـدْ واقترب)[32]

وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾[33] ، وكذلك استخدامه لمقطع « ظلماً ولا هضماً » من الآية الكريمة ﴿ من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾[34] وذلك في قوله :

وكيف دنت منك الخطوب وما رَجَتْ
بساحة من والاك (ظلماً ولا هضماً)[35]

ومثل ذلك ذكره لمقطع « رقيب عتيد » في موطنين من شعره أولهما في قوله :

وإذْ لا صَباحـى (رقـيب عتيـد)
ولا ليـلُ وصَلْـى ظـلام بهيم[36]

وثانيهما في قوله :

ومـا فـات صَرْفَ الـردى مَـنْ عليـهِ
بـنصرك عيـنُ (رقـيب عتيد)[37]

وهو من قوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول الالديه رقيب عتيد ﴾[38]

ومثله أيضاً تعبير (عبد منيب) من الآية الكريمة : ﴿ إن في ذلك لآيةً لكل عبد

منيب ﴾ ومن الآية الكريمة : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾[40] وذلك في قوله :

فأرعيتـــه صِدْقَ حُـــرٍّ شكـــور
تسربَـلَ إخـلاص « عبـد منيب »[41]

ومن الآية الكريمة : ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرّوا عليها صماً وعمياناً ﴾[42] استخدم تعبير « صماً وعمياناً » حرفياً في قوله :

وبَيْعَـــةٍ عـــرف الإسلامُ آيتها
فلـم يخرّوا لها « صمـاً وعمياناً »[43]

واستخدم في موطن آخر المفردتين اللتين تكوّن منهما التعبير ، مع تصرّف بالشكل الإعرابي لهما ، وهو قوله :

وهـم سمعـوا داعـيك لما دعوْتَهـم
وهم أبصروا والناسُ (صم وعميان)[44]

كما استخدم تعبير (ليلة القدر)[45] في قوله :

ومنك استمد الفطر مطعم فطرنا
وفيك أرتْنا قدرَها (ليلة القدر)[46]

ومثله أيضاً استخدامه لقوله تعالى : ﴿ فتح قريب ﴾ عدة مرات ، فمن ذلك قوله :

مـواريث أمـلاك وتوكيـدُ بَيْعـةِ
جديرٌ بها «فتح قريب» ورضوان[47]

وهو مستمد من الآية الكريمة ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾[48] وكذلك استخدم تعبير « فتحا قريبا » في قوله :

واقـتضى الـرحمن (فتحـا قريبـا)
كلمـا جَـلَّ تناهـى أجلّا[49]

وهو من الآية الكريمة : ﴿ فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾[50] ،

واستخدم التعبير الوارد في الآيتين في موطنين آخريين متصرفاً بشكلهما مع حفاظه على المعنى وذلك في قوله :

فأثابــه (الفتــح القــريب) وبعــده
تصديـــــق رؤيـــــاه لأول عام[51]

وفي قوله :

وحين افتتـــحت بـــنصر عزيـــز
يـــبشر عـــنك (بفتـــح قريب)[52]

أما الآيات التي أدرجها في شعره وتصرف بصياغتها ، مع الحفاظ على خصوصيتها التعبيرية القرآنية التي تشعر القارىء أنه يستمدها من القرآن دون أن يثير ذلك أي التباس في ذهنه ، فهي كثيرة جداً ، ونوضح ذلك بإيراد نماذج محدودة منها ، فمن ذلك ، قوله :

تجزّأ مـــن جنَّتَـــيّ مـــأرب
بخمـــــطٍ وأثْـــــلٍ وسِدْر قليل[53]

فإن معظم البيت مستمد من الآية الكريمة ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتَيْ أكلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيء من سِدْر قليل ﴾[54] .

ومن ذلك قوله :

مـــرجْتَ عليـــه لج بحرَيْـــنِ يلتقـــى
على نـــــفسه تيـــــاره المتلاطم[55]

وفيه اقتباس غير مباشر من الآية ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾[56] .

وكذلك قوله :

والأرض مشرقـــة بِنُـــورَيْ ربِهـــا
والفجـــرُ منبلـــجٌ لعيـــنِ المهتدى[57]

وقد استعار معناه من قوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾[58] .

ومثله أيضاً في خصوصية التعبير قوله :

فأصبح الملك لا ريثا ولا خللا
وأصبح الدين لا (أُمْتاً ولا عوجا)[59]

وهو من قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفا ، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتا ﴾[60] .

والأمثلة التي ترد على هذا النسق من الكثرة بحيث لا يتسع الموضوع لاستعراضها جميعها .

مع الحديث الشريف والسيرة النبوية :

تمثل السيرة النبوية ، وحديث الرسول قيمة تراثية أيضاً ، وقد اهتم بها الدارسون كما اهتم بها عامة المسلمين ، وابن دراج الذي كان يستظهر القرآن الكريم عن ظهر غيب ، كما تبدى في الأمثلة الكثيرة التي سقناها من شعره والتي ورد فيها كثير من الإشارات القرآنية ، كان على صلة بسيرة الرسول ﷺ وعلى الأحاديث النبوية ، وقد وجدنا انعكاساً لذلك واضحاً في شعره ، ففي حديث للنبي ﷺ وجهه إلى عبد الله ابن عباس . ويقول في مطلعه :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .... » نجد في آخره قوله : « رفعت الأقلام وجفت الصحف »[62] ، وقد اقتبس ابن دراج تعبيري « الأقلام والصحف » . في بيت له من قصيدة يمدح بها الحاجب المنصور ويقول فيه :

«الصحف» تنفذ و«الأقلام» عاجزة
عن خطِّ ما اجتَثَّ في أعدائه ومحا[63]

كما نجد يقتبس من دعاء الرسول ﷺ عند رؤيته الهلال قوله : « ربّي وربُّك الله »[64] ويعرضه في شعر له في مدح الحاجب المنصور :

يا حاجبا مذ براه خالقه ... تَوَّجَهُ بالعُلا وحلَّاهُ
إذ رآه الزمان مبتسما ... فقد رأى كل ما تمناه
وإن رآه الهلال مطّلعا ... يقول «ربي وربك الله»[65]

وفي موضوع آخر يشير إلى حديث الرسول ﷺ في أهل بدر « لعل الله اطلع

إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[66] وذلك في حديثه عن الأنصار وهم من القحطانيين الذين ينتمي إليهم ممدوحه المنصور أيضاً :

وهـــم المغفـــورُ في بـــدرٍ لهم وهـم الأبـرار في يـوم أحد[67]

ومن قصة أبي الدحداح ، حين خاصم يتيمٌ صحابيا هو أبو لبابة في نخلة فبكى الغلام فقال النبي ﷺ لأبي لبابة أعطه إياها ولك بها عذق في الجنة فأبى فسمع أبو الدحداح فاشتراها من أبي لبابة بحديقة كانت له وأهداها لليتيم[68] ، وأبو الدحداح قحطاني ومن هذه القصة ، استمد أبي دراج إشارة لمدح المنصور بمفخرةٍ من مفاخر فرعه القحطاني فقال له :

ونَمَتْك من أملاك يعـرَب نبعـة تلوي الكواكبَ في ذرا ادواحها
واستقرض الـرحمن جنـة خلـده ببَتاتِ حائطِه أبـو دحداحها[69]

وقد اقتبس ابن دراج كثيراً من الحوادث التي جرت أيام الرسول ﷺ وربط بينها وبين حوادث جرت في أيامه فأحسن الربط بينها وأتقن توظيفها ، ومن ذلك ، محاولته التماس العذر للحاجب المنصور حين قرر العودة من إحدى غزواته على الرغم من أن دلائل النصر كانت بادية للعيان ، فقال له :

يقعقـع رعـد الـنصر مـن جنبـاتها
ويُـومِض بـرقُ الفتـح بين صفوفهـا
وإن عَـجْتَ يـا مـنصور منها فـأسوة
بـردّ جنـود المصطفـى عـن ثقيفها[70]

وقد ربط الشاعر بين عودة المنصور وقد فَوَّتَ على نفسه غنائم الفتح المنتظر وعودة الرسول ﷺ من غزوة حنين التي التقت فيها هوزان وثقيف ، فهزمهم . وغنم ما ساقوا من النساء والصبيان . وفي عودته ووصوله إلى الجعرانة ، جاءته وفود هوزان مسلمة فأعتق ﷺ أبناءهم ونساءهم كلّهم ، وفوَّتَ بذلك الغنائم التي حصل عليها حربا[71] . ومن غزوة مشابهة للمنذر بن يحيى التجيبي ، عاد منها دون أن يصل فيها إلى غاية ، يوظف الشاعر حدثا آخر من سيرة الرسول ﷺ وهو عودته من الحديبية التي كان من نتائجها النصر المؤزر في فتح مكة في العام التالي ، ويقول في ذلك :

وإن وَنى قَدَرٌ إلى أجلٍ، فلا عَدَمُ الصوابِ ولا نُبُوُّ حسامِ
ونَبيُّنا لك أسوةٌ في ردِّهِ عن أرض مكةَ معلنَ الاحرامِ
فأثابَهُ الفتحَ القريبَ وبَعْدَهُ تصديقُ رؤياه لأولِ عامِ[73]

ومن الحديبية نفسها التي تم فيها الصلح ، والتي وقعت فيها (بيعة الرضوان)[74] يستلهم الشاعر بيعةً للمرتضى آخر ملوك بني أمية في الأندلس ويربط بين البَيْعَتين :

و(بيعةِ رُضْوانٍ) رعى الله حقَّها
لمن بيعة الرضوان إذ غاب جدَه[75]

وحين ثار على المنذر بن يحيى ثائرٌ من أهله أقلقه وأزعجه ، ثم تمكن منه ، فلم يأمر بقتله كما يستحق ، بل اكتفى بنفيهِ ، قال ابن دراج في ذلك :

فلم أر أمضى منك حُكْماً تحكَّمَتْ
على سيفِهِ يومَ الحِفاظِ مكارمُهْ
فأوسَعْتَهُ حكمَ (النضيرِ) وقد حكى
(قريظةَ) منه غِلُّهُ وجرائمه[76]

وفي البيت الأخير يكشف ابن دراج حدثين كبيرين من سيرة الرسول ﷺ ، ويحسن توظيفهما في خدمة ممدوحه ، فقد حكم المنذر في هذا الثائر بحكم الرسول في بني النضير وهو الإجلاء عن المدينة حين نقضوا عهدهم معه[77] ، في الوقت الذي كان هذا الثائر يستحق حكم بني قريظة فيه ، وهو الموت لغدرهم الرسول ﷺ يوم الخندق[78] وذلك لأن جرائمه لا تقل عن جرائمهم .

ومن حكاية لسع الأفعى لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو في الغار مع الرسول ﷺ ، ومعاودة أثر السم له كل عام[79] نسمع قول ابن دراج :

كما حُدِّثْتَ عن لسع الأفاعي يعاود سمها عاما بعام[80]

ومن تاريخ عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ يربط ابن دراج بين حلفين عقدهما المنذر بن يحيى مع أعدائه ، وحلف وقع بين عبد المطلب وبني خزاعة في الجاهلية ، فقد جاء في كتاب التحالف بين عبد المطلب وحلفائه : « هذا ما تحالف

عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة تحالفوا على التناصر والمواساة ما بل بحر صوفة ... »[81] .

لقد أشار ابن دراج إلى (الحلفين) ، واستعار من كتاب تحالف عبد المطلب مع خزاعة تعبيراً يشير إلى الديمومة وهو « ما بل بحر صوفة » وهو تعبير له خصوصية في الدلالة ، واشتهر من خلال وروده في صيغة الحلف هذا ، وجاء به ابن دراج للربط بين الحلفين وذلك في قوله :

وعقـدت بالأبـد الأبيـد ، وإن نـأى
(حلـفين) : حِلْـفَ مسايـرٍ ومعـاقب
(مـا بـلَّ بحرٌ صوفـةً) وتقـاذفَتْ
أمواجـــه بشمائـــل وجنائب[82]

وهناك أيضاً أمثلة عديدة يقتبس فيها ابن دراج من سيرة الرسول أموراً يربط بينها وبين واقع ممدوحيه ، ولا نرى داعياً للاسترسال في سردها اكتفاءً بالقدر الذي أوردناه من استلهامه من حديث الرسول ﷺ ومن سيرته .

مع الفقه :

كان الفقه أوسع أبواب المعرفة صلة بحياة الناس ، فهو الذي ينظم لهم أمور دينهم وأمور دنياهم ، وكانت هناك حدود دنيا يلتقي عليها المسلمون جميعاً في صلتهم في الفقه ، وبخاصة في الأمور المنظمة لشئون بعض العبادات كأحكام الصلاة وبعض أمور الأحوال الشخصية كأحكام الزواج والطلاق وبعض أمور المعاملات كالبيع والعقود ، أما ما بعدها من أحكام فإن الناس كانوا متفاوتين في مقدار امتلاكهم لها ، وذلك بسبب تفاوت درجات اطلاعهم على علم الفقه ، واهتمامهم به ، وهذاالأمر يعود إلى طبيعة التكوين الثقافي لكل واحد منهم .

وابن دراج الذي وصفه العلماء بأنه كان واسع الإطلاع ، كان على معرفة بأمور كثيرة من شئون الفقه ، نلمح ذلك في ثنايا أشعاره ، فمن فقه الشعائر نسمعه يردد كثيراً (حيَّ على) المستمد من الأذان والإقامة (حيَّ على الصلاة) و(حيَّ على الفلاح) ، من ذلك قوله :

ونـاديْتُ في الاسلام (حيَّ على الهدى)
فيـا لك مـن ظمـآن حـان ورده[83]

وهناك مواضع أربعة ورد فيها هذا التعبير ولا نرى داعياً لسردها كلها ، أما من فقه المناسك ، وبخاصة مناسك الحج ، فإنَّ ابن دراج ، كان على إلمام واسع بها ، كما يبدو من شعره ، وكان يستغل أحياناً مناسبة ورود عيد الأضحى في إعداد أماديحه لممدوحيه ، محاولاً ربط بعض المواقف والمناسك في الحج ببعض القيم التي يود إبرازها في مدحه . ومن ذلك قوله مهنئاً المنذر بن يحيى بالعيد :

وأَسْعِـدْ بعيـد طـالما أعديتـه
عَـوْداً بـإحسان فعـاد فأحسنـا

أهـدي إلـيك سلام (مكـة فالصفـا)
فمعـالم (الحرم) الأقـاصي فالدنـا

و(منـاسك) شاقت مساعِـيَكَ التـي
أحذَيْتَهـا منها المثـال الأبينـا

فغـدا نَـداكَ يهل في شرف العـلا
لَهجـاً (يلبـّى) ليتنـا ولعلنـا

ورميت (بالجمرات) من بدر اللهـى
و(نحرت) (بـدْنَ) العُرْف كومـا بدّنـا

وغـدوت تُهْـدي (للـمصلي) جحفـلا
لسيوفـه خَضَعَ الصلـيب وأذعنا[84]

لقد استغل الشاعر مناسبة العيد الذي يرتبط موسم الحج بقدومه فحمل إلى أميره تحيات تلك الديار التي تشهد مناسك الحج ، مكة والصفا والحرم ثم يربط بين بعض مكارم المنذر ببعض المناسك ، وأخيراً يُبيِّنُ مآثره في الدفاع عن حوزة الدين . وفي أبيات أخرى في مدح يحيى بن المنذر — يسير على النسق نفسه معدّدا المواقف والمناسك والأماكن ، وينهيها بتوظيف ذلك لمدحِ يحيى في تلبيته لنداء الجهاد كما يلبّي المسلمون نداء إبراهيم الخليل حين دعا الله سبحانه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى ذلك المكان :

رجالٌ أجابوا (أذان الخليل) فجابوا إليه بحاراً وبيدا
كما عمّرت بك سبل الجهاد جنودا تفلّ بهن الجنودا[85]

وله مثل ذلك في مدح المرتضى الأموي[86] وفي مدح الحاجب المنصور[87] ، كما نجده يكرر استلام الركن ، خلال الطواف مرتين في شعره ، موظفاً هذا الذكر في مدح المنذر بن يحيى ، وذلك في قوله :

وآويْتَ الغريبَ ، وهل غريبٌ
توخى ركن عزك باستلام ؟[88]

وكذلك في قوله :

ووافَوْا سرير الملك يستلمونه
كمستلم الحُجّاج للركن والحجر[89]

ومن فقه الأحوال الشخصية يستعير ابن دراج تعابير (المهر المقدم) و(المهر المؤجل) بعد توظيف ذلك في مدح مبارك ومظفر العامريين أميرَيْ بلنسية :

مكارم تعتام الكرام فلا تبِتْ
كريمة هذا الثغر منهن أيّما
فشدّ لها ميثاق (مهر مؤجل)
وسوقا إليها المهر (مهرا مقدما)[90]

أما من فقه المعاملات فيكثر من استخدام المصطلحات التي قد ورد في ميدان المال والتي يكثر ذكرها في أبواب (البيع) و(الأنفال) من كتب الفقه ، وذلك من مثل (التجارة والنقد والغلاء والرخص والبضاعة والشراء والربح والفيء والأنفال والنسيئة والكالئى والتمليك والاقرار)[91] ولكنه يحمّل جميع هذه المصطلحات ملامح مدحية ، ويذللها لخدمة ممدوحه يحيى بن المنذر ، في براعة عرض وذلك في قوله :

تجارة غزو (نقدُها) البيض والقنا
قضاءُ حقوق واقتضاءٌ لآجال
فلله كم (أغلَيْتَ) من دمِ مسلمٍ
و(أرخَصْتَ) في أعدائه من دمٍ غال

وأسلـمْتَ لـلإسلام فيها (بضاعـة)
تعـود (بأضعـاف) وتـوفى (بامثـال)
وحسبك منها يـا بـن (شنـج) وجنـده
مـن السَبـي أبـدالا وأيـة أبـدال
مليكـا ومـا يحوى (شرَيْتَ) ببـعضه
(وأربْـحْ) بقنطـار يبـاع بمثقـال
فمـا حـاز غـاز مثلـهُ (فيءَ) مغنَـمٍ
ولا نَـال سابٍ مثلهـا سبْـيَ (أنفـال)
مـا بـعت رق الملك منهم (نسيئـةً)
ولا مستجيـزاً (كالئَـى الديـن) بالكـالي
ولكـن (نقـداً) ناجـزا في رقـابهم
بإذعـان (تمليـك) وإذعـان إذلال
و(إقـرار) مـن لا يبتغـي عـنك موئـلاً
وليس له مـن دون سيـفك مـن وال[92]

وفقه القضاء كان له حظّه أيضاً في شعر ابن دراج الذي يعرف كيف يذلل المقولات الفقهية للشعر ، وللدفاع عن وجهة النظر التي يعتنقها ففي قوله من عتاب عبد الملك بن الحاجب المنصور :

لما صبْـوتُ قضى على بظنِّـهِ
(فأجاز في خصمٍ شهادةَ خصمه)[93]

ليشهدَ بقاعدةٍ مشهورة في الفقه تقول « ليس للواحد أن يكون شاهداً ومدعياً »[94]

وفي قوله من مدحه في يحيى بن المنذر :

الشمس واحـدةً وإنك واحـده
(فشهـادة الإقـرار أعـدل شاهِدَه)[95]

يستعير معنى وارداً في القاعدة الفقهية (المرء مؤاخذ بإقرارِه)[96] وهذه الشواهد

العديدة التي اقتبسها ابن دراج من الفقه وأحسن توظيفها في الموضوعات التي استخدمها فيها تدل على طول باعه في الفقه وعلى إحاطته بكثير من أحكامه .

مع التاريخ (أحداث – حروب – قبائل – رجال – أنساب – أماكن) :

إن التاريخ هو المعين الثرّ للتراث لدى كل أمم العالم ، فهو يمثل الخزان الضخم الذي يستوعب ماضي الأمة بكل ما يشتمل عليه من مفاخر أو مثالب ، ومن عوامل الاعتزاز أو الإحباط ، يسجل حروبها وأحداثها وعلاقاتِها مع غيرها وأساطيرها وأعمالَ رجالها وتراثها الشعبي والأدبي . إن التاريخ هو المصدر الأول لمن يبحث عن الماضي تنقيراً أو استلهاما ، وقد كان التاريخ رافداً أساسياً من روافد التراث في شعر ابن دراج الذي يشتمل على جميع ألوان التراث ، كما سلفت الإشارة ، ولكننا أفردنا بعض شئونه بالدراسة المنفصلة ، وسنقتصر في دراسة الجوانب الأخرى منه على الأحداث والحروب والقبائل والأنساب والرجال والأماكن ..

1 – الأحداث والحروب :

إن الإشارات إلى حروب العرب وأيامها وأحداثها وفيرةٌ في شعر ابن دراج وهو يحسن الاختيار منها ، ويربط ما يختاره بما يماثله من أحداث عصره ، وبخاصة من ناحية النتائج ففي إحدى مدائحه لعبد الملك بن الحاجب المنصور يشير إلى بعض معاركه التي أوقع فيها بالأعداء وكبَّدهم فيها خسائر فادحة ويربطها بيوم من أيام العرب هو (الذنائب) . آخر أيام حرب البسوس[97] :

لله في الإشراك مـــــنك وقائـــــع
أَرْيَتْ على حرب (الذنائب) مشهدا[98]

وفي رثائه لأم هشام المؤيد بالله ، يجعل الفاجعة التي حلت بها موازية للفاجعة التي حلت باليمنيين بعد هزيمتهم على يد قضاعة وتميم في يوم البراء[99] :

فللَّـــه مـــن طـــارقٍ لليـــالي رمـــاكِ بيـــومٍ كيـــومِ البَـــراء

وفي خيران العامري يذكر موقفه من قبائل (زناتة) التي تألبت عليه ، ويربط

هذا الموقف بما آل إليه حال قبيلة ذبيان حين انقلب حالها (يوم الهباءة) أحد أيام (داحس والغبراء)[100] :

وردّ بها يـــومَ اللقـــــاءِ زناتـــــةً
كما انقلـبَتْ (يــوم الهبــاءة) ذبيان[101]

وحين زوج المنذر بن يحيى ابنه يحيى ، رأى الشاعر في هذا الزواج مصلحة عامة إذ تم من خلاله تأليف قلوب وجمع شمل وتبديد فرقة ففرح بذلك واستبشر ، وربطه بحوادث من الماضي السحيق ، ماضي العرب وماضي غيرهم ، وذلك حين تزوج النبي سليمان من بلقيس ملكة اليمن ، فتألفت بذلك وحدة قلوب ، ووحدة شمل ، ومثله ما جرى مع الإسكندر الأكبر حين تزوج ابنة دارا ملك الفرس بعد انتصاره عليه[102] :

ويجمع شمل الوصل من فرقة القِلى
ويرفعُ بَنْدَ الوصْل من مصرع النكس
كجمع (سليمان) النبي بصهركم
ذوي يمنٍ والشام والجن والإنس
وتأليف (ذي القرنين) إذ هُدِيَت لـه
كريمةُ (دارا) دعوة الروم والفرس

لقد جمع الشاعر في هذه الأبيات أحداثاً كبيرة من التاريخ القديم ، كثّفها وربط بينها وبين حدث (الزواج) الذي تفاءل به .

وفي أماديح ابن دراج للحاجب المنصور وأبنائه وللمنذر بن يحيى وابنه ، وهم في انتمائهم القبلي من فروع يمانية ، يكثر الشاعر من ذكر رجال اليمن وساداتها وأقيالها ويقف مطولاً عند الأنصار الذين هم ، بأَوْسِهم وخَزْرَجهم من القبائل اليمنية ، يشيد بمواقفهم في نصرة الإسلام ، وفي الدفاع عن الرسول ﷺ ثم عن آل بيته فيما بعد . فهم الذين صدقوا وهم الذين آووا ونصروا ... ففي الحاجب المنصور وهو كما أشرنا يمني الأصل ولكن خؤولته من تميم عدنانية ، يرسل مدائح كثيرة يشيد فيها بأرومَتَيْهِ ويركز على مواقف الأنصار مع الرسول ﷺ ...

تـــلاقت عليـــه مـــن (تميم ويعـــرب)
شموسٌ تـــلالا في العـــلا وبـــدور
مـــن (الحِمْيَـــرِيين) الذيـــن أكفهـــم
سحـــائب تهمـــي بالنـــدى وبحور
ذوو دُوَل الملك الـــذي سلـــفَتْ بـــه
لهم أعصرٌ موصولـــــةٌ ودهـــــور
وهـــم (نصروا) حـــزب النبـــوّة والهدى
ولـــــيس لهم في العـــــالمين تصبر
وهـــم (صدّقـــوا) بالوحـــي لما أتاهـــم
ومـــا النـــاس إلا عانـــدٌ وكفور[103]

وفي مدح المنذر بن يحيى يؤكد على المعاني نفسها ويعدد معارك الأنصار في الإسلام ويضيف إليهم مواقفَ من نصرة علي رضي الله عنه في صفين حين أثار نَخَواتهم منادياً (باالهمذان) ..

لهم مـــدى السبـــقِ في بـــدر وفي أحـــد
وآل حـــرب وحزبَـــيْ قـــيس عيلانـــا
وفي تبـــوكِ وأوطـــناس ومصطلـــق
ومَـــنْ عصى الله مـــن أبنـــاءِ عدنانـــا
ويـــــومَ صفين لم تخذِلْ سيوفهـــــم
آل الـــرسول بـــه (يـــا آل همدانـــا)
فليهنكـم نصر مـن أهـدى الهدى لكـم
ونصر أبنائـــه مـــن بعـــده الآنـــا
سعـَي الذيـــن هـــم آوَوْا وهـــم نصروا
وأنجبـــوا نـــاصراً للديـــن آوانا[104]

لقد ربط الشاعر أحداث التاريخ ماضيها بحاضرها ووصل بها إلى غايته في المدح ، فالممدوح الذي ينصر الدين الآن ، هو من نسل أولئك القوم الذين نُصروا الدين حين لم يكن له ناصر ، فلا غرابة إذاً أن يكون هذا الفرع من ذلك الدوح .

وحين مدح أميرَ المؤمنين المهدي بن عبد الجبار الأموي ذكّره بمائتِهِ إلى جده مروان بن الحكم الذي انتصر في معركة مرج راهط على الضَّحاك بن قيس ونجح في نقل الملك من الفرع السفياني في بني أمية إلى الفرع المرواني :

في كفـــه السيـــف المقلـــدّ جـــدّه
(بالمرج) إذا تَـبَّتْ يـدُ (الضحاك)[105]

2 — **الأنساب والقبائل والرجال** :

لقد عُني العرب بالأنساب عناية فائقة وألّفوا في ذلك كتباً كثيرة ، ولم يكن الأندلسيون أقل حفلاً بالأنساب من إخوانهم المشارقة ، ولعل كتاب « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم من أدق وأجل ما أُلّفَ في هذا الموضوع . ويبدو من شعر ابن دراج أنه كان واسع الإطلاع على الأنساب قبائل ورجالاً ومفاخر ، وكان يحسن تضمين ذلك في شعره في المواطن التي يحتاج فيها إلى دعم موقف من المواقف ، ولذا يرد ذكر حمير والتبابعة وعاد وجرهم وقحطان وعدنان وتميم وخندف كثيراً في شعره ، وكثيراً ما نراه يورد حشداً من أسماء القبائل وأحياناً يجمع هذه القبائل جمعاً تراكمياً مكثفاً كما في قوله في مدح المنذر بن يحيى :

وساق إلـــيك الملك ميراث تبـــع
بما قـاد مـن جـيش وأتبَـعَ مـن جمع
وصفـوة طـيّ والسكـون ومذحـج
وكنـــدةَ والأنصارِ والأزْد والنخْع[106]

وهي كلها قبائل يمنية ، وأحياناً يسوق الحد يث عنها بشيء من التفصيل ويربط بين كل قبيلة وما يناسبها من الصفات في تلاعب لفظي يستخدم فيه ألواناً من جناس الاشتقاق ويخلط ذلك بالإيماء إلى سيرة أعلام من تلك القبائل كانت لهم مواقف مشهورة في التاريخ ، ومثال ذلك ما نراه في مدح المنذر بن يحيى الذي يشيد برعايته له بعد أن تنكر له الدهر :

ومُسائِـــلٍ عنـــي الزمـــانَ ووُدُّهُ
لـــو تَنْبِـــذُ الساداتُ رحلي بالعَـــرا

وبقـــيتُ في لجج الأسى متضلـــلا
وعـدلْتُ عـن سبـــل الهدى متحيّـــرا
كلا ، وقد آنست من (هود) (هدى)
ولقـيتُ (يعـربَ) في القبـول و(حميرا)
وأصبت مـن (سبأ) مـورث ملكـه
(يسبـى) الملـوك ولا يـذب لها الضرا
فكـــأنما (تابـــعت) (تبّـــع) رافعـــا
أعلامـــه ملكـــا يديـــن لـــه الـــورى
و(الحارث الجفني) ممنـوع الحمـى
بالخيـــل والآساد ، مبـــذول القـــرى
وحطـطت رحلي بين نـارَيْ (حـاتم)
أيـــامَ يقـــري مـــوسراً أو مـــعسرا
ولقيتُ (زيـد الخيـل) تحت عَجاجـة
يـــكسو غلائلهـــا الجيـــاد الضمّـــرا
وعقـــدت في (يمن) مواثـــقَ ذمـــة
مشدودة الأسبـــاب موثقـــة العـــرى
وأتيت (بَحْـدَلَ) وهـو يرفـع مـنبرا
للديـــن والدنيـــا ويخفض مـــنبرا
وخطـطت بين جفـانها وجفـونها
حَرَمَـــا أبت حرماتـــه أن تُخْفرا[107]

ونرى النسق نفسه يتكرر في قصيدة أخرى في مدح المنذر نفسه .

فأعرب عن أقدام (يعـرب) واحتبـى
فلم ينس من (هـود) سنـاء ولا (هديـا)
ومـن (حمير) ردّ القنـا (أحمر) الـذرا
ومـن (سبأ) قـادت كتائبـه (السَبْيـا)

وما نام عنه عرق (قحطان) إذ فدى
عروق الثرا من غلة (القحط) بالسقيا
ولا (أسكنت) عند (السكون) سيادة
ولا رضيت (طـيّ) لراحتـه (طيّـا)
ولا (كَنَدَتْ) أسيافه ملكَ (كندة)
فيتـرك في أركان عـزتها وهيـا
ولا أقعدتـه عـن إجابـة صارخ
(تجيبٌ) ولو حَبْواً إلى الطعن أو مَشْيا
وكائن له في (الأَوْسِ) من حق (أسوة)
بنصر الهدى جهراً وبذل الندى خُفْيا
هـم أورثـوه نصر دينِ محمـد
وحازوا له فخر الندى والقرى وحيا[108]

ونستطيع أن نكتشف أن شعر ابن دراج يمثل معرضاً لأسماء الرجال الذي يُحْسن معرفتهم ويحسن اختيارهم في شعره والذين يمثلون مناط الاعتزاز لدى من ينسب إليهم ، وهو يفعل ذلك ليرضيَ نزعة الفخار في ممدوحيه الذين يوجد في أسلافهم نماذج رائعة من أمثال هؤلاء الرجال ، ففي مدح الحاجب وابنه عبد الملك يعدد صفوة من الرجال القحطانيين من ذوي المفاخر :

مـن ذا يعدّ كقحطان الملـوك أبـا
والتبّعييـنَ إذا مـا عُـدِّدَ الشرفَ
أم مـن لعمـرٍو وعمـران وثعلبـة
وحـاتم وأبي نَـوّرٍ لـه سلف[109]

وفي مدح الحاجب أيضاً وولديه يربط بين سالف عزهم وحاضرهم ويذكر بأمجاد الماضين من أسلافهم :

فما كذبت ظنونك يوم جاءوا
إلى أمـد المكـارم سابقَيْـنِ

ولا نسيت عهـــود الحارثَيْـــنِ
ولا ضاعت وصايـــا المُنْذِرَيْـــن
ولا خـــزيت مآثـــرُ ذي كَـــلاع
ولا أَخْـــوَتْ كـــواعب ذي رُعَيْـــن
تـــراث حـــزْتَ مفخـــرة نزاعـــا
إلى أبنـــاء عـــمك في حنين[110]

فهذه الإشارات تصل بين الحاضر والماضي ، وإذا كان من ورد ذكرهم من أولاد الحاجب ولدين وحسب وهما عبد الملك وعبد الرحمن وهما اللذان كانا يقومان معه بعبء كثير من المعارك ، فإنه من خلال الحديث عنهما يُذَكّرُ بثنائيات من الأسماء : (الحارثَيْن) إشارة إلى بعض ملوك الغساسنة الذين كان عدد منهم يسمى بالحارث و(المنذرَيْن) إشارة إلى بعض ملوك المناذرة الذين كان عدد منهم يسمى بالمنذر ، وإشارة إلى جدين تفرع عنهما حيان كبيران من أحياء اليمن هما : ذو الكلاع وذو رعين . ويشير بعد ذلك إلى موقف الأنصار في حُنَيْن يوم فر المسلمون من حول الرسول ﷺ و لم يبق معه إلا القليل فطلب من عمه العباس ، وكان جهير الصوت أن ينادي (يا معشر الأنصار) فهرعوا إليه سراعا ، ومن لم تُلَبِّهِ مطيته منهم كان ينزل عنها ويدعها ويهرول إلى الرسول ﷺ على قدميه حتى التفوا حوله فسربهم وقال قولته المشهورة (الآن حَمِي الوطيس)[111] .

وقد أحسن ابن دراج رصد هذه المكارم لأسلاف ممدوحه ومن ثم أحسن توظيفها في خدمته .

والأشخاص ذوو المفاخر كثيرون في تاريخ ممدوحيه ، وذلك أن معظم هؤلاء الممدوحين كانوا قادة ورؤساء ، وكانوا ينحدرون من أصول عربية لها أمجادها ولها رجالاتها من ذووي الماضي العريق ومن ذوي المكارم التي طار ذكرها في الآفاق .

إن عليَّ بن حمود أمير سبته هو من نسل علوي هاشمي وحين يحاول ابن دراج أن يمدحه يستحضر نماذج من أجداده يمثلون قمما في المكارم منهم هاشم بن عبد مناف الجد الثاني للرسول ﷺ وكان اسمه عَمْراً ، وإنما لقب بهاشم لأنه كان يهشم الخبز ويثرده لإطعام الناس ، وفيه يقول عبد الله بن الزبعري :

عمـرُو العـلا هشم الثريـد لقومـه
ورجـالُ مكـةَ مسنتـون عجاف[112]

وكان منهم شيبة الحمد وهو لقب عبد المطلب من هاشم الجد الأول للرسول ﷺ كان يطعم الحجيج ويسقيهم في حياض من أَدَم في مكة ويحمل إليهم الماء من زمزم إلى عرفات[113] . كما كان يرفع الطعام إلى رؤوس التلال ليطعم منها الوحش والطير ، ومثل هؤلاء الجدود يَصِحُّ بهم الفخر ، ويستغل ابن دراج مكارمهم فيذكرها في مدحه لعلي بن حمود :

فَسُمِّـيَ جـدك عمـرُو الكـرام
(بهشمٍ) الثريـد زمـانَ المحول
و(شيبـة) ساقي الحجيـج الكفيـل
بمأوى الغـريب وقـوت الخليـل
وضيّـف حتـى وحـوشَ الفـلاة
وأهـدى القِـرى لهضاب الوعول[114]

وحين يمدح ابن دراج عبد الملك بن الحاجب المنصور وأحوال أبيه — كما نعلم من تميم المضرية — يسجل له مآثره في الحلم وفي الحزم رابطاً بين سجايا عرف بها رجال من أعمامه ورجال من أخواله فالأحنف بن قيس التميمي العدناني عرف بحلمه حتى ضرب به المثل ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي القحطاني عرف بحزمه وشجاعته . وقد ورث ممدوح ابن دراج هذه الخلالَ منهما :

والحلـم مـن ميراث (أحنـف) خالـه
والبـأس مـن ميراث (عمـرو) عمه[115]

وعلى الوتر نفسه يضرب الشاعر في مدح ولد آخر من أولاد الحاجب المنصور هو المؤتمن ويذكره بأمجاد أعمامه وأخواله :

دعـائم سلطـان وأركان عـزة
بها وشجت قربى (تميم) من (الأزد)[116]

وفي المنذر بن يحيى يورد إشارات إلى عظماء أجداده منهم عمرو وهو عمرو بن

مزيقاء أو عمرو بن معد يكرب ، ومنهم تبع أحد ملوك اليمن ، ومنهم كعب بن مامة الايادي الذي آثر رفيقه النميري بمائه حين تاهوا في الصحراء حتى مات هو وَحيَّ رفيقه ، فضُرِبَ به المثلُ في الإيثار ، ومنهم حاتم الطائيُّ الذي ضرب به المثل في الجود :

تجللهـــا جـــداك عمـــرٌ وتبّـــع
وأعقَبَهـــا عمّـــاك كـــعبٌ وحاتم[117]

ومن قصة كعب بن مامة وتضحيته تجاه رفيقه يستمد ابن درّاج إشارة إلى نفسه وإلى تضحيته في سبيل أسرته ، وذلك في قوله :

وكلهـــــم (نَمَـــــــريّ) وإني
لكـــل هنـــالك (كـــعب بـــن مامة)[118]

3 — **الأماكن** :

ليس للأماكن قيمة تراثية في ذاتها ، ولكنها إذا اقترنت بأحداث أو بأشخاص أو بصفات مميزة قد يصبح لها شأن وتكون لها خصوصية وتغدو من معطيات التراث .

وفي تراثنا العربي والإسلامي أماكن كثيرة تُذْكَر باعتزاز أو تُذَكّرْ بمناسبات أو بمفاخر لمن اتصلوا بها أو أقاموها ، فمكة والمدينة وما حولهما وبدر وأحد وحنين ومنى وعرفات والصفا والمروة ارتبطت بذكريات اسلامية فغدت مرتبطة بقيم عزيزة في نفوس المسلمين . وقد ورد في شعر ابن دراج ذكر لكثير من الأماكن التراثية مر بنا عدد منها في مواطن سابقة من هذا البحث ، وابن دراج يربط دائماً بين المكان والمأثرة التي اتصلت به ، وبين الممدوح الذي يوظف الشاعر تلك المأثرة لرفع شأنه ، فمن ذلك مدحه للقاسم بن حمود ولأخيه علي وهما كما ذكرنا علويان هاشميان ، وفي ثنايا هذا المدح يشير الشاعر إلى (طيبة) وهي المدينة المنورة ، وإلى قبر الرسول ﷺ في ثراها ، مذكراً بقرابتهما منه :

فلأَجْعَلَـــنّ ثنـــاء مـــا أوليْتُمـــا
زاداً لكـــل مُكَـــوِّف أو منجـــد
حتـــى يُسَمَّـــعَ طـــيبُ مـــا أثنـــي بـــه
قبـــرٌ بطيبـــةَ أو بصحـــنِ المسجد[119]

ويربط النصر الذي أحرزه المنذر بن يحيى في (بنبلونة) بنصر أجداده من الأنصار في بدر وفي أحد :

والنصر من سعي أعمامٍ له فطروا
لنصر ذي العرش في بدر وفي أحد[120]

كما يشير أكثر من مرة إلى جنة مأرب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم :

وتداركتني أمة من يعرب
مطرت علىّ ثمار جنة مأرب[121]

كما يشير في مواطن أخرى إلى مدن وقصور وسدود كانت لليمنيين في تاريخهم القديم ، فهو في إحدى مدائحه للمنذر بن يحيى يربط بين ما شيده المنذر من أمجاد محدثة ، وما شيده أجداده من مؤسسات في القديم منها مدن صنعاء وإرم ذات العماد التي لقبت بها قبيلة عاد اليمنية ، ومنها قصور هي غمدان الذي أسسه أزال بن قحطان في صنعاء والأبلق الفرد الذي ينسب إلى السموءل بن عادياء وقصر السيلحين الذي بناه الحارث الرائش أحد ملوك اليمن بين صنعاء ومأرب ، وقصر سنداد الذي كان بين الحيرة والأبلة ، وكانت العرب تحج إليه ، وهو الذي ذكره الشاعر الأسود بن يعفر في شعره[122] .

وقد ورد هذا الربط بين ما شيد في الحاضر وما شيد في الماضي من قصيدة لشاعرنا في مدح المنذر :

وهمة لك يا منصور ما هدأت
حتى رأتك لعين الدين إنسانا
فهدمت بك بنيان العدا فرقا
وشيدت لك فوق النجم بنيانا
ينسى بناؤكم صنعاء أو إرَما
ذات العماد وسنـدادا وغمدانا
والأبلق الفرد والأبراج من أجأ
والسيْلحين وسدّاً كان ما كانا[123]

مع الشعر :

مطالعات الشاعر في التراث الشعري هي التي تصقل موهبته . وما يختزنه منه عبر هذه المطالعات يزيد في صقل هذه الموهبة ويساعد على تكوين رصيد له من أساليب التعبير ومن الأفكار والصور ، يجتذبها وينسج على غرارها أحياناً ويطورها ويطبعها بطابعه الشخصي أحياناً أخرى ، ويرتبط ذلك إلى درجة كبيرة بقدرة الشاعر على التمثل وبطاقاته في الإبداع .

إن سعة المخزون الشعري تمثل رافداً ضخماً يسهم في التكوين الفني للشاعر من جهة ، ويملي عليه من جهة أخرى ألواناً من التعابير والأفكار والصور من شعر غيره تسلل إلى شعره عن وعي أو عن غير وعي ، وندر من الشعراء من نجا من هذه الظاهرة ؛ الأمر الذي جعل النقاد القدامى يقفون عندها ويفردونها بدراسات خاصة ويطلقون عليها في كثير من الأحيان (السرقات الشعرية) ، وقد أقاموا في دراساتهم هذه شروطاً للسرقات ووضعوا لها حدوداً ودرجات ، هذا وقد صنف علماء البلاغة أيضاً بين أبواب علم البديع مبحث (التضمين) وهو استعارة الشاعر لبيت أو لشطر من بيت من شعر غيره وتضمينه في شعره .

وابن دراج الذي احتفى بالتراث حفاوة كبيرة كان للتراث الشعري حظ كبير من اهتمامه ، وتجلت ملامح مقتبسة من شعر غيره واضحة وجلية في شعره . إنه لا يلجأ إلى سرقة معنى من غيره وإعاده صياغته بالمفهوم الذي أطلق على السرقات الشعرية ، كما أنه لا يلجأ إلى استخدام (التضمين) إلا في حالات قليلة . وكان منهجه في الاقتباس الشعري يسير على النسق نفسه الذي سار عليه في الاقتباس القرآني ، يأخذ في معظم الأحيان كلمة أو جملة من شعر غيره تكون ذات خصوصية تسمح لمن يطالعها أن يدرك انتماءها إلى صاحبها الأصلي دون أن يتهم الشاعر باجتراح سرقة ، لأنه لم يحاول إخفاءها من جهة ولأنه لم يحاول أن يطوع فيها المعنى ليموه فيه على القارىء ويوهمه أنه من إبداعه ، بل إن ترك المعنى أو التعبير مكشوفاً للقارىء يدل على التعمد الذي قد نستشف من ورائه رغبة في إظهار سعة إطلاعه أمام هذا القارىء ، ويؤكد هذا أن اختياره للمقاطع التي يصطفيها من شعر غيره يتم اختيارها من شعراء كبار أو من

قصائد مشهورة يسهل على ذوي الإطلاع أن يربطوا بين ما ورد في شعر ابن دراج منها وأصوله التي اقتبس منها .

وابن دراج فيما يأخذه من شعر غيره لا يقف فيه عند عصر معين أو عند شاعر معين ، بل ينوع في اختياراته بين العصور وبين الشعراء ، وفي دراسة ما استمده شاعرنا من شعر غيره يلحظ الدارس أن لدى ابن دراج شعراء أثيرين يكثر من اقتباس الإشارات من أشعارهم ، ومن هؤلاء الشعراء امرؤ القيس وأبو تمام والبحتري والمتنبي ، كما أنه يقتبس من شعراء آخرين اقتباسات محدودة قد لا تتعدى إشارة واحدة من كل منهم ، ولا شك أن كثرة الاقتباس من شاعر معين يحمل دلالة على إعجاب ابن دراج به ، وعلى تأثره بشعره .

١ ـ مع امرىء القيس :

وردت في شعر ابن دراج أربع إشارات مستمدة من شعر امرىء القيس منها قوله من قصيدة في مدح المنذر بن يحيى يصف بها رحيله هو وأسرته إليه :

نـــذرت ألا تـــلاقي راحـــة
مما تـــلاقي أو تـــلاقي منـــذرا
وتقـــاسمت ألا تسيـــغ حيـــاتها
دون ابـن يحيـى (أو تموت فتعذرا)[124]

ويلاحظ القارىء أن بصمة امرىء القيس واضحة في قوله (أو تموت فتعذرا) ، فهذه الجملة وردت في أبيات من قصيدته التي وصف بها رحلته إلى ملك الروم :

بكى صاحبي لما رأى الـدرب دونـه
وأيقـــن أنـــا لاحقـــان بقـــيصرا
فقـلت لـه : لا تـبكِ عيـنك ، إنما
نحاول ملكـــــاً أو نموت فنعذرا[125]

كما أن جملة (والليل مرخ سدوله) من قول ابن دراج :

أشج بها (والليـــل مـــرخ سدولـــه)
سبـــاريت أرض لا يـــراع قطاها[126]

وهي مستمدة من بيت امرىء القيس المشهور :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي[127]

ومثله أيضاً تضمينه للشطر الثاني من قول امرىء القيس :

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها
عليه القتام سيّء الظن والبال[128]

وذلك في قوله :

كما وصف الكندي بعل فتاته
عليه القتام سيء الظن والبال[129]

وكذلك قول ابن دراج :

فعمرت بالإقبال أكرم أكرم
ملكا ورثت علاه أكبرَ أكبرا[130]

هو متأثر فيه بقول امرىء القيس :

وكنا أناسا قبل غزوة قرمل
ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا[131]

2 — **مع أبي تمام :**

يبدو أن ابن دراج كان من المعجبين بأبي تمام ، وقد أوغل كثيراً في شعره ليسترفد منه بعض معانيه وصيغه . لقد وردت في شعره ثماني إشارات مقتبسة من شعر أبي تمام وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما أشرنا إليه من إعجاب ومن تأثر .

إن القارىء حين يسمع قول ابن دراج في أحد ممدوحيه ، وفي موقعين من قصيدة واحدة :

بفتح تفتَّحُ منه الأماني
إلى كل حاضرِ أرضٍ وباد

وكم عُـدْتَ منـــه بفتـــح الفتـــوح
كما عـــاد لي مـــنك عهـــد العهاد[132]

يتبادر إلى ذهنه مباشرة قول أبي تمام في مدح المعتصم حين فَتَحَ عمورية :

فتـــح الفتـــوح تعـــالى أن يحيـــط بـــه
نظـم مـــن الشعـــر أو نثر مـــن الخطب
فتـــح تفتـــح أبـــواب السمـــاء لـــه
وتبرز الأرض في أثـــوابها القشب[133]

ومن قصيدة أبي تمام نفسها ، ومن وصفه للنار التي التهمت المدينة :

غـادرت فيها بهيم الليـــل وهـــو ضحـــى
يشلـــه وسطهـــا صبـــح مـــن اللـــهب
ضوء مـــن النـــار والظلمـــاء عاكفـــة
وظلمة من دخان في ضحى شحب[134]

ندرك أن ابن دراج كان يستحضر هذه الصورة في ذهنه حين قال في وصف أحد معارك الحاجب المنصور :

ضاءت كواكبـــه والتـــجَّ عـــنيره
فالليل منه ضيـاء والضحـى سدف[135]

ومن استخدام الجناس الاشتقاقي الذي برع فيه أبو تمام نسمع ابن دراج ينسج على غراره ويقول في إحدى قصائده :

ومـــا أنجدت فيـــه النجـــود تصبري
ولا أتهمت وجـــدي عليـــه التهائم[136]

كما يقول في قصيدة أخرى :

وأذهلهـــم جـــدواك عـــن كل مفخـــر
وإن فخـــرت ذهـــل بها واللهازم[137]

ونستطيع أن ندرك أنه كان يسير على نهج أبي تمام في هذا اللون من الجناس ومن

خلال هذه المعاني التي سخر لها جناس من الاشتقاق . وما جاء به ابن دراج مشابه لما قاله أبو تمام في بيتين منفصلين من قصيدتين مختلفتين ، وهما :

وأنجدتم مـــــن بعـــــد إتهام داركم
فيـا دمـعُ أنجدْني على ساكنـي نجد[138]

متـى أنتَ عـن ذهليـة الحيّ ذاهـل
وقلـبك منها مـدة الدهـر آهل[139]

أما حديث ابن دراج عن المعاني المبتكرة في شعره في قوله :

إلـيك جلـوت أبكـار المعـاني
معاذيـــرا بـــلألاء القبول[140]

فإنه متأثر فيه وبدون أي ريب بحديث أبي تمام عن (أبكار المعاني) في شعره حين يقول :

إلـيك بعـثت أبكـار المعـاني
يـليها سائـق عجـل وحاد[141]

وقد تحدث ابن دراج عن الديار التي (أقوت ومحت) وذلك في قوله :

ويـا لديـار اللهـو أقـوَتْ رسومهـا
ومـحَّتْ مغـانيها وصم صداها[142]

وكان في حديثه هذا متأثراً ببيت أبي تمام الذي يقول فيه :

شهـدتُ لقـد أقـوَتْ مغانيكـمُ بعـدي
ومحَّتُ كما مـحّت وشائـع مـن برد[143]

وإذا كانت هذه الأبيات التي أوردناها من شعر ابن دراج واضحة التأثر بأبي تمام فإن له أبياتاً أخرى يبدو فيها التأثر أيضاً ، ولكن ليس إلى درجة الوضوح التي رأيناها في تلك الأبيات ، من ذلك قوله في وصف بركة رخامية يتدفق الماء خلالها :

وتألـفت مـن مائـه ورخامـه
شكـلان تُشْكـل فيهمـا الأوهـام

هـــل تحت ذاك الماء مـــاء جامـــد
أم ذابَ مـن فـوق الرخـــام رخام[144]

إن الماء الذي يشبه الرخام الذائب عند ابن دراج يذكّر بالصحو الذائب عند أبي تمام في قوله :

مطـر يـذوب الصحـو منـه وبعـده
صحـو يكـاد مـن الـغضارة يقطر[145]

وقد نستطيع أن نجد مشابها بين قول أبي تمام في تصوير نفس ممدوحه :

فلـــو صَوَّرْتَ نـــفسك لم تزدهـــا
على مـا فـيك مـن كـــرم الطباع[146]

وقول ابن دراج في وصف وتصوير نَفْسِ ممدوحه أيضاً ، مع تباين وجه الشبه بين الصورتين :

ومـــا صوّرت إلا مـــن حديـــد
ولا استعمـــــــلت إلا للجلاد[147]

3 — **مع البحتري :**

ومن الشعراء الذين أعجب بهم ابن دراج وتأثر بهم الشاعر البحتري الذي كان له حظ وافر أيضاً في اقتباسات ابن دراج ، فمن ذلك وصفه للهلال من خلال مِدْحةٍ له في المنذر :

عـلا ، وتـدانى للعيـون ، كما عـلا
محلك واستدنيت بعدا عـن الكبر[148]

ففي هذا القول مشابه من قول البحتري .. في وصف ممدوحه ، وتشبيهه له بالبدر في بعده لمكانته وفي قربه بسبب تواضعه لطالبي معروفه :

دانٍ على أيـــدي العفـــاة وشاسع
عـــن كل نـــدٍّ في العـــلا وضَريبِ

كالبـدر ، أفـرط في العلـوّ ، وضؤوه
للعصبـة الساريـن جـدُّ قريب[149]

ومن ذلك قوله في وصف جيش الحاجب المنصور :

والأرض مـن رهبـة الأبطـال مائـدة
والجو من رهج الفرسان مزدحم[150]

وهو مشابه لما جاء في قول البحتري واصفاً جيش المتوكل الذي استعرضه يوم عيد الفطر :

والأرض خاشعـة تميـد بثقلهـا
والجو معتكـر الجوانب أغبر[151]

ويبدو أن ابن دراج كان شديد الإعجاب بقصيدة البحتري هذه التي مدح بها المتوكل مهنئاً بعيد الفطر ووصف فيها صلاته في الناس صلاة العيد ثم استعراضه للجيش . وقد تسللت كثير من معاني هذه القصيدة التي شعر ابن دراج وخلال قصائد متعددة منه ؛ منها وصفه السابق للجيش ، ومنها وصف سعي المتوكل إلى صلاة العيد وعليه المهابة :

حتـى انتهيْتَ إلى المصلى لابساً
نـورَ الهدى يبـدو علـيك ويظهر[152]

فقد ضمّن ابن دراج الشطر الأول من هذا البيت في قصيدة مدح بها المنذر بن يحيى ووصف سعيه إلى المصلى أيضاً :

حتـى انتهيتَ إلى المصلى لابسا
عـزَّ الملـيك ورقـة الآداب[153]

وكذلك فعل ابن دراج حين مدح الحاجب المنصور مهنئاً بالعيد ، فقد وصف تكبير الناس وتهليلهم :

وتيمَّمـوكَ مـن المصلى فانثنَـوْا
ساعين بين مـكبر ومهلل[154]

وهو مشابه لما قاله البحتري في المتوكل في المناسبة نفسها وفي القصيدة نفسها :

ذكـــروا بطلعـــتك النبـــيَّ فهلّلـــوا
لمّـا طلـعْتَ مـن الصفـوف وكبّروا[155]

وحين خضع أحد قادة الأسبان للحاجب المنصور وجعل أمره بيده ، سجّل ابن دراج هذه المفخرة له ، فإن هذا القائد لم يلجأ إلى الخضوع إلا بعد أن أعيته السبل :

وهـذا عـظيم الشرك قـد جـاء خاضعـاً
وألقـــى بكفيـــه إلـــيك محكّمـــا
ولم يستطـــع نحو الحيـــاة تأخـــرا
بفـــوْتٍ ولا نحو النجـــاة تقدما[156]

والمعنى الوارد في بيته الثاني مستمد من قول البحتري في مدح الفتح بن خاقان حين تعرض له الأسد فصرعه بعد أن سد عليه السبل فلم ينفعه الكر ، كما لم ينجه الفَرّ :

فأحجـــم لما لم يجد فـــيك مطمعـــا
وأقـــدم لما لم يجدْ عـــنك مهربـــا
فلـــم يُغْنِـــهِ أَنَ كَـــرّ نحوك مقبـــلا
ولم يُنْجِـهِ أن حـــاد عـــنك منكبا[157]

وهناك بيت لابن دراج استخدم فيه لفظة واحدة تشعر القارىء أنها من القاموس الذي استخدمه البحتري في سينيته وهي لفظة (السَنَوَّر) وذلك في قوله عن دعم الفرس لأجداده اليمنيين في صدهم الأحباش عن بلاده :

أيـــدوا ملكنـــا وشدوا قـــواه
بكمـــاة تحت السنـــوّر حمس[158]

وقد استخدم ابن دراج اللفظة نفسها في بيت من إحدى قصائده يقول فيه :

فمـــا ظلموهـــا قائـــمين لشبهـــا
إذا غـوّروا تحت السَنَـوَّر أو لاحوا[159]

4 — مع المتنبي :

والمتنبي هو صاحب الحظ الأوفر بين الشعراء في صلته بشعر ابن دراج فقد وردت إشارات من شعره مضمنة في تسعة مواضع من شعر ابن دراج ، وهذه الإشارات تفوق في عددها ما ناله أي شاعر آخر من مثلها ، ويبدو أن قصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة بعد انتصاره في معركة الحدث كانت أثيرة لدى ابن دراج ، وقد وردت في شعره خمس إشارات كلها تصدر عن معان جاء بها المتنبي في قصيدته تلك ، ومن خلال خمسة أبيات متفرقة منها ، وأبيات المتنبي هي :

وتعظـــم في عين الصغير صغارهـــا
وتصغـــر في عين العـــظيم العظـــائم

* * *

ويطلب عند الناس مـا عنـد نـفسه
وذلك مـــالا تدّعيـــه الضراغـــم

* * *

وقـفْتَ ومـا في الموت شك لواقـف
كـأنك في جفـن الـردى وهـو نـائم

* * *

أتـــوك يجرون الحديـــد كـــأنما
سروا بجيـــاد مـــالهن قـــوائم

* * *

هنيئـــاً لضرب الهام والمجد والعـــلا
وراجـــيك والإسلام أنك سالم[160]

أما الأبيات التي ضَمَّنَها ابن دراج إشاراته التي اقتبسها من الأبيات السابقة فهي التالية ، ونسوقها على النسق نفسه الذي سقناه في تسلسل أبيات المتنبي :

ومـن أعـربت فيـه أعاظـم يعـرب
فمستصغَـرْ في أصغريـة العظائم[161]

* * *

وعـودتها طعـم السبـاع فأشفـقت
باغبابـه أن تدعيـه الضراغم[162]

* * *

وإن زجّ في جفـن الـردى فَلِحَيْنِـهِ
تخازر ساجيـه وأوقـظ نائمه[163]

* * *

وكم عجـزت عنـا ذوات قـوائم
فعُجّنـا بعـوج مـالهن قوائم[164]

* * *

ولا عـدم الإشراك أنك ظافـر
ولا عـدم الإسلام أنك سالم[165]

ووصفُ المتنبي لأشعة الشمس المتسللة عبر أوراق الشجر في قصيدته في وصف شعب بوّان والتي يقول فيه :

وألقـى الشرق منها في ثيـابي
دنـانيراً تفـرّ مـن البنان[166]

يبدو أنه لقيَ إعجاباً من ابن دراج فاحتذاه مع تعديل في جزيئات الصورة ، وذلك في قوله :

يضاحك في أرض الزمـرد شمسهـا
دنانيـرَ مـن ضرب الحيـا ودراهم[167]

وحين وصف المتنبي حياته أيام فقره يوم لم يكن له من راحلة سوى نعليه اللذين عرضهما في صورة طريفة :

لا ناقتـــي تقبـــل الرديـــف ولا
بـــالسوط يـــوم الرهـــان أجهدهـــا
شراكهـــا كورهـــا ومشفرهـــا
زمامهـــــا والشسوع مقودها[168]

حذا ابن دراج حذوه في وصف حياته البائسة وأكد في صورة مبسطة المعنى نفسه الذي جاء به المتنبي في صورة مركبة ، فقال يصف حاله وأن رجله هي راحلته الوحيدة :

أواصل آنـــاء الأصائـــل بالضحـــى
وزادَي من جهدي وراحلتي رجلي[169]

وهناك بيتان لابن دراج فيهما مشابه خفي لبيتين للمتنبي إذ لم يعرضهما بالوضوح الذي عرض فيه أبياته السابقة ، وأحد البيتين هو قوله :

وزاحمت الخطـــوب إلـــيك حتـــى
خفـــيت على المنايـــا في الزحام[170]

وفيه ملمح من قول المتنبي في وصف تكالب الخطوب عليه من قصيدته في وصف الحمى التي أصابته :

أبـــنت الدهـــر عنـــدي كل بـــنت
فكيـف وصلت أنت مـــن الزحام[171]

أما ثاني البيتين فهو قول ابن دراج في مدح عبد الملك بن الحاجب المنصور :

وبمن حمى التوحيـــــدَ ممن سامـــــه
خسفـاً فأصبـح في المعـالي أوحدا[172]

فإن له قربى من بيت المتنبي في سيف الدولة :

فـذا اليـومُ في ايـام مثـلُك في الـورى
كما كـنْتَ فيهم أوحـداً كان أوحدا[173]

5 — مع شعراء آخرين :

وإذا كان ابن دراج قد استمد من كل واحد من أولئك الشعراء الأثيرين لديه مجموعة من الإشارات فإن هناك شعراء آخرين اكتفى باقتباس إشارة واحدة من كل واحد منهم ، وهذه الإشارات تبدو واضحة لمن يطالعها ولأول وهلة ، فمن بيت النابغة الذبياني الذي يصف فيه الدروع والسيوف :

تقد السَلوقيَّ المضاعَفَ نسجُه
ويوقِدْنَ في الصفاح نار الحباحب[174]

استعار ابن دراج صفة النسج المضاعف للدروع وأوردها في بيت من شعره في وصف الجيش الذي يقوده ممدوحه :

لَجِباً من الحَلَق المضاعَفِ نسجُهُ
أشبِاً من الأسل المثقف غيله[175]

أما قول ابن دراج :

وما قصَّرتَ عن ساعَيْ آل مرة
لصلح بني ذبيان والحيّ من عبس[176]

فقد أفاد فيه من قول زهيرُ بن أبي سلمى :

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما
تبزَّلَ ما بين العشيرة بالدم[177]

وفي قوله في مدح المنذر :

واقتضِ الرحمانَ فتحاً قريباً
كلما (جلّ) تناهى (أجلّا)[178]

يستعير من قول تأبط شرا :

خبر ما ،نابلا ، مصمئلّ
جلّ حتى دقّ فيه الأجلّ[179]

أما قوله في يحيى بن المنذر :

حفـــاة المحز في عظـــام عداتكـــم
ولكـن على الإسلام (هَيْنـون لينونا)[180]

فقد استعار جملته الأخيرة من قول العرندس أحد شعراء الحماسة :

(هَيْنـــون لَيْنـــون) أيسار ذوو كـــرم
سُوّاس مكرمـــــة أبنـــــاء أيسار[181]

وكذلك قوله في يحيى بن المنذر :

بها ردّ خيـل البغـي (تدمـى كلومهـا)
وقد يئست مـن نصرة العـم والخال[182]

نظر فيه إلى قول الحصين بن الحمام المري :

فلسنا على الأعقـاب (تدمـىٰ كلومنـا)
ولكـن على أقدامنـا تقطـر الدما[183]

وفي استخدامه لكلمة (بِيني) في قافية بيته التالي :

رضيت بـــوشك الشوك لي عـــوضا
وقـلت فيها لِلَوْعـات الأسى (بيني)[184]

تأثر فيه بقول ذي الأصبع العدواني :

والله لـو كـرهت كفـي مصاحبتـي
لقلت إذ كـرهت قـربي لها: (بيني)[185]

وضمن الشطر الثاني من بيت الحطيئة المشهور :

مـاذا تقـول لأفـراخ بـذي مـرخ
زغب الحواصل لا مـاء ولا شجر[186]

في بيت في مدح يحيى بن حمود :

وتحت أجنحـة الإشفـاق حاميـة
حمر الحواصل لا مـــاء ولا شجر[187]

مع الأمثال والأساطير :

تعتبر الأمثال والأساطير والقصص الشعبية والأقوال السائرة من أشد القضايا التصاقا بالتراث وتعبيراً عنه ، وهي ذخائر من أقوال وقصص وشخصيات تتوارثها الأجيال ، وقد تَعْرِفُ أحياناً أسبابها والمناسبات التي رُويت فيها ، وقد تَجْهل ذلك ، ولكنها ترويها دائماً للتعبير عن حالة حاضرة بعد أن نستعير لها من التراث ما يشابهها من قول أو مثل أو أسطورة ، ولكن بصورة مكثفة وذات دلالات موحية .

وابن دراج في تعامله مع التراث أدرج هذه الأمور في شعره على الطريقة نفسها التي استخدم فيها قضايا أخرى من التراث .

1 — **الأمثال** :

الأصل في استخدام المثل أن يورده من يستشهد به بنصه الحرفي دون تحريف أو تعديل ، ولكن ابن دراج في استخدامه للأمثال لم يكن يقف عند حرفية المثل ، بل كان يدخل عليه بعض التحوير لكي ينسجم مع السياق الشعري الذي يَرِدُ المثل من خلاله ، ولكنه في الوقت نفسه كان يحتفظ للمثل بهويته وخصوصيته ودلالته بحيث يميزه القارىء مباشرة .

إن هذا المنهج في التعامل مع الأمثا ل هو نفسه الذي سار عليه ابن دراج في تعامله مع قضايا التراث الأخرى ، لقد استخدمه في الإشارات القرآنية والحديثية وفي الإشارات التاريخية والشعرية .

والأمثلة التي جاءت في شعر ابن دراج عديدة منها المثل الذي يقول : (أعطِ القوس باريَها)[188] . فقد ورد في قوله :

فأعطى القوس باريَها وشدَّتْ
عراقي الدلو في كرب الرشاء[189]

ومنها أيضاً ، (قلب له ظهر المجنّ)[190] أي تغير عليه وساء رأيه فيه ، وذلك في قوله :

وتقلب لي ظهر المجن تجنّيا
فموتي بما يحيي وموتي بما يسلي[191]

ومن المثل القائل : (أخبط من حاطب ليل)[192] جاء قوله :

وشَفَـــيْتُ سم عقـــارب بـــأساود
ودفـــــعت سم أساود بعقـــــارب
حتـى نزفـــن سمومهـــن فلـــم يُـــرَعْ
مـن نافثـات السم (ليـلُ الحاطب)[193]

أما المثل الذي يطلق عند الشماتة بسقوط إنسان وهو (لليدين وللفم)[194] ، أي كبَّهُ الله ليديه وفمه فقد ضمّنه ابن دراج بيته التالي :

وخـــرّ لها الصلـــيب بكـــل أرض
صريعـــــا للجـــــبين ولليدين[195]

وكذلك المثل القائل (كل الصيد في جوف الفَرا)[196] ، فقد ضمنه ابن دراج في شعره بنصه الحرفي ، وذلك في قوله :

وليعلـــمِ الأمـــلاك أني بعدهـــم
ألفيْتُ (كل الصيد في جوف الفَرا)[197]

وفي بعض الأحيان كان ابن دراج يضمن في القصيدة الواحدة أكثر من مثل ، من ذلك قوله :

وأرعـيْتُ (سعـدانَ) سعـدِ السعـود
نـــواء المنـــى وصفايـــا الصفـــاء
وأقـــوى فأنحَـــرُ حَرْفـــا سِنـــادا
وأرعـى فأحـــلب (شطـــر الإناء)[198]

لقد استعرض الشاعر في هذين البيتين مثلين مشهورين أولهما (مرعى ولا كالسعدان)[199] . والآخر (حلب الدهر أشطره)[200] ، ومثله أيضاً قوله في أحد ملوك النصارى الذي غدا شؤما على قومه بعد تعرضه للحاجب المنصور ثم انكساره أمامه :

تناديـــهِ المعاهـــد لـــيت بينـــي
وبيـــنك قبـــلُ بُعْـــدَ المشرقيْـــن

لئـــن وَجَدَتْـــهُ (أشأم مـــن قُـــدارٍ)
لقـد عدِمَتْـهُ (أخـيب مـن حنين)[201]

و(أشأم من قُدار)[202] مثل يضرب لمن كان شؤما على قومه . وقدار هو قدار ابن سالف الذي عقر ناقة صالح فأهلك الله قومه بفعله ، وضرب به المثل في الشؤم ، أما المثل الثاني فهو : (أخيب من حنين)[203] ، ويضرب في حالة الإخفاق ، وقصته مشهورة .

وهناك على ألسنة الناس أقوال مأثورة تؤدي دور المثل ، وإن كانت لا تصنف في بعض الأحيان ضمن الأمثال لأن سامعها يدرك المقصود منها ، ومن هذه الاقوال التعبير القائل : (صَمّي صَمام)[204] الذي يقال للرجل يأتي بدواهي الأمور وقد ورد هذا التعبير في شعر ابن دراج وذلك في قوله :

ومُطَّـــرد الكعـــوب أصمّ لـــدن
ينـادي في العـدا (صَمّـي صَمام)[205]

ومثله أيضاً القول (حِيدي حَياد)[206] ، وقد جاء أيضاً في شعر ابن دراج من خلال مدحه ليحيى بن المنذر :

ويكـتب فـوق جبينِـي ووجهـي
إلى نـوب الدهـر (حيـدي حياد)[207]

ومن الأقوال السائرة تعبير يقال لمن تعثر رجله وهو (لعاً)[208] ، وقد ورد في شعر ابن دراج في موقعين أولهما في قوله :

نحاهـا مقيـل العاثريـن بـعثرة
(لعاً) لي منها والنوى (لا لعا) لها[209]

أما ثانيهما فهو في قوله :

قل للـمصرّع (لا لعـاً) مـن صرعـة
وافَـيْتها بقيـا على مولاكا[210]

أما تعبير (في حلّ وبلّ)[211] ، والحل هنا هو الحلال ، أما البل فلفظة تطلق بعد لفظة البل اتباعا لها ، فقد استخدمه ابن دراج في قوله :

مَـدىً للكِ كان مـنكِ مـدى كـريم
فكـوني منـه (في حـل وبل)[212]

وهناك تعبير (هيّان بن بيّان)[213] الذي يطلق على من لا يعرف ولا يعرف أبوه ، وقد جاء أيضاً على لسان ابن دراج :

ففـاز بالعـز مـن نـادى ببَيْعَتكـم
وبـاء بـالخزيِ (هيّـانُ بـن بيانا)[214]

2 — **الأساطير** :

عرف العرب كثيراً من الأساطير الشعبية المتعلقة بشخصيات أو حوادث أو خرافات ، ومن هذه الأساطير شخصيتا (شق) و(سطيح) الكاهنين ، ومنها حكاية زرقاء اليمامة التي عرفت بحدة البصر حتى قيل إنها ترى من مسافة ثلاثة أيام ، والتي أشار إليها النابغة في داليته حين أشار إلى قصة عَدِّها للحمام الطائر في سرب ، ومن ذلك أحاديثهم عن (الغول) و (العنقاء) و (وادي عبقر) وإيمانهم في الجاهلية بالطيرة والتشاؤم وإضافتهم للنجوم قوى مؤثرة في حياة البشر .

لقد وردت إشارات تتصل بهذه الأساطير في شعر ابن دراج الذي كان يعج بها ، لا عن إيمان منه بها بل استمراراً على الأخذ بها على أنها تراث ذخر به الشعر الجاهلي ، واستمر الشعراء في تناوله . بعد أن أفرغ من معانيه المتصلة بعقائد الشرك .

لقد تحدث ابن دراج عن (عنقاء مغرب) في شعره أكثر من مرة ، وعنقاء مغرب طائر خرافي معروف الاسم مجهول الجسم[215] ، وقد جاء ذكره في بيت مدح فيه ابن دراج الحاجب المنصور وقال فيه :

وسطـا على الأعـداء حتـى لَاغتـدت
(عنقاء مغـرب) في البـلاد وفي العدا[216]

وورد ذكر له مرة ثانية مع الغراب الأعصم أي الذي في إحدى رجليه أو ريشِهِ بياض ، ويُمَثَّل عادة للشيء النادر :

وكفـــى بمن آوى إلـــيك مشردا
قلـق الـركائب في البـلاد مغربـا

حتى يرى البؤسى (غرابا أعصما)
بِنَـــداك والضراءَ (جنـــة عبقرا)[217]

كما تحدث عن (جنة عبقر)[218] في قوله مادحاً المنذر :

ولقد وردّت مياهَ مأربَ حُفَّلا
وأسمْتُ خيلي وسْطَ (جنة عبقرا)[219]

وقد جمع في أبيات أخرى إشارات إلى مجموعة من الأساطير فذكر (شقا) و(سطيحا) و(زرقاء اليمامة) و(الغول) و(العنقاء) ، وذلك في قوله في مدح المستعين الأموي متحدثاً عن جنده وعتاده :

هوادي من ضنكِ المَكْرِّ ولا هدى
نواطق بالفتح المبين ولا نطقا
يُخبرْنَ عن إلحاح سعيك في العدا
كأن (سطيحا) في سناهن أو (شقا)
ويجلون عن ليل العجاج كأنما
تُقَلّبُ إحداهن ناظرَيّ زرقا
ضمانٌ عليها نفس كل مُنزَّع
ولو حملته (الغول) أو ركب (العنقا)[220]

ومن معتقدات الجاهليين في الاستقسام بالأزلام والأقداح ، وفي الذبح على الأنصاب[221] استعار ابن دراج المصطلحات التي كانوا يستخدمونها بعد أن نزع عنها دلالات الشرك ووظفها في خدمة القيم التي يدافع عنها في شعره ، وذلك حين هبت فتنة أيام المنذر بن يحيى آذت صالح المسلمين وكادت أن تكون لها عقابيل وخيمة ، فقد وقف ابن دراج ينعي على مثيري الفتنة جاهليةً قارفوها ، واستقسموا فيها على أرواح الناس ومن ثُمّ غدوا يضحّون بها على أنصاب فِتْنَتِهِمْ :

في جاهليّةِ فتنةٍ عُبِدَتْ بها
دونَ الإله مضلّةُ الأربابِ

تُستـــقسمُ (الأزلام) في مهجاتنـــا
وتسيـــلُ أنفسنـــا على (الأنصاب)[222]

ومن هذه المصطلحات المستمدة من عقائد الجاهليين نسمعه مرة ثانية يردد بعضها في سياق حديثه عن مارقين نَفَسوا على المنذر ما كان يناله من نجاح فراحوا يكيدون له ، ولكنه بدَّدَ شملهم وأوقع برؤوس الفتنة منهم :

حملـوا قلـوب الأسد نحوك وانثنـوا
مستبـــدلين بها قلـــوب نعـــام
مـــن كان مـــنتهك المحارم بـــارز
بـــدم على الإسلام غيـــرِ حـــرام
فغـدا الثرى ريـان مـن دمـه ومـن
دمـــع عليـــه بالـــفضاء سجـــام
جَـــزَراً لأيسارٍ مـــن البيـــداء لا
يستقسمـــون عليـــه بـــالأزلام
نـفس النجـاح علـيك مـن أقسامـه
مـن فـوز قـدحك أوفـر الأقسام[223]

أما الزجر والطِيَرة فقد كانا مما يؤمن به الجاهليون ومنعه الإسلام مع السماح بالتفاؤل ، ومن الزجر كانوا يتفاءلون بالسانح من الطير وهو الذي يمر من مياسر الزاجر أو الصائد إلى ميامنه ، وعكسه البارح الذي يمر من الميامن إلى المياسر وكانوا يتشاءمون به .

وكان ابن دراج يستخدم مصطلحات التفاؤل والتشاؤم هذه ولكنه يسخر ما اتصل بالتفاؤل لممدوحيه وما اتصل بالتشاؤم لأعدائهم ، فالسوانح والفأل الحسن وظفهما للحاجب المنصور حين مدحه بقوله :

ومستهلٍّ حيـاً أحيـا الـورى غَدَتـا
بـل (طائـر) بتبـاشير المنـى (سنحـا)
هـن (السوانح) للمنصور قـد نطـقت
بقربـه ، وخفـاء (الفـأل) قـد برحا[224]

أما المنذر فإن الفأل له والزجر والطيرة لأعدائه :

عقـاب (فـأل) بعقبـى رفـع أولـه
يجلـو السعـادةَ لـلإسلام والخِيَـرَة
وجَـدُّ شانـيك مخفـوضٌ فكـان بهم
عقابُ خسفٍ مبين الزجر والطِيَرة[225]

أما النجوم فقد كانت تمثل ثقافة للجاهليين فرضتها عليهم ظروف حياتهم لأن النجوم هي التي كانوا يهتدون بها في حلهم وترحالهم ، وكانت الأنواء المرتبطة بحركات النجوم وبتعاقب الفصول وما ينجم عنها من مواسم المطر والعشب والزرع ، تمثل أمراً في غاية الأهمية في حياتهم التي كانت تقوم على التنقل انتجاعاً للكلأ والمراعي ، وكثر الحديث عن النجوم في أشعارهم واستمر الحال في الإسلام ، بل لقد كانت معرفة النجوم والأنواء من مقومات ثقافة الكثيرين من الشعراء وغير الشعراء . لقد عرفوا مواقع النجوم وأنواعها وأسماءها ومنازلها وأبراجها ورمزت بعض النجوم إلى معان رددوها ، فكان المشتري والزهرة من كواكب السعد ، وكان زحل والمريخ من كواكب النحس[226] .

ويبدو أن ابن دراج كان يملك حصيلة طيبة من الثقافة الفلكية ونراه يكثر من ذكرها في مواقع مختلفة من شعره ، ويكون لكل استخدام منها دلالة تفارق الدلالات الواردة في المواقع الأخرى ، فهو يحشد أحياناً مجموعة من أسماء النجوم في محاولة لعرض ثقافته الفلكية حين يربط بالنجوم ما يتصل بها من صفات :

فـإذا رأيت (النجـم) يبـدي أفقُـهُ
منـــه بقيـــةَ جمرِ المصطلي
وتخلَّـف (العيـوق) فهـو كأنـه
سارٍ تضلّـل في فضاء مجهـل
وتعـرض (الدَبـرَان) بين كـواكب
فـرق كسِرْب قطـاً ذعـرْن بأجـدل
(وكـواكب الجوزاء) تهوى جُنّحـا
مثـل الخوامس قـد عدلْـن لمنهل

وكـــأنما (الشعـــرى) سراج توقّـــد
وقـف على طـرق النجـوم الضلَّـل
وكـــأن ملتـــزم (الفراقـــد) قـــطبها
ركب على عرفـــانِ دائـــر منـــزل
وتحولت (أم النجـــــوم) كـــــأنها
زهـــر تـــراكم فـــوق مجرى جـــدول
ورأيت جنـــح الليـــل نـــاط رُواقَـــهُ
مـــن كل أفـــق (بالسمـــاك الأعزل)[227]
فهنـــاك وافَـــتْكَ (السعـــود) طوالعـــا
تـــقضي بصدق (تيمـــن وتفـــاؤل)

ومن إيحاءات السعد والنحس في النجوم نراه يردد أسماء (زحل) وكيوان وهو اسم آخر له و(بهرام) وهو من أسماء المريخ وهما كوكبا نحس كما أشرنا آنفا كما يردد اسم (البرجيس) وهو أحد أسماء المشتري ، وذلك حين يهنيء الحاجب المنصور مرة :

فـلْتهنك الـرتب العليـا التـي قصرت
عنهن سامية (البرجيس) أو (زحل)[228]

وفي المنذر بن يحيى وقد عاد من غزوة غزاها قال :

وكفـاك مـن وطـئت خيـولك منهم
(كيـوان) واصطـلّت سنـا (بهرام)[229]

ويفتخر ابن دراج أحياناً فيجعل له مكانة بين أعالي النجوم :

فخطـبت و(العـوّاء) بـعض منابـري
وأمَـمْتُ و(الجوزاء) بـعض محاربي[230]

كما يتحدث أحياناً عن حركات بعض النجوم :

وتشرق من مبدا (سهيـل) إلى (السهـا)
وتعبق من مجرى (البـطين) إلى النُّفْر[231]

كما يحمل بعض النجوم التي تحمل أسماؤها إيحاءات معينة ، بعض المعاني التي يود عرضها وتعزيزها عند ممدوحه :

وبـــأسٌ هـــل يجير الدهـــر منـــه
بَعيـــــــــــدُ الشأو أو صعب المرام
ولـــو بلـــغ (الـــنسور) بـــه نسور
وطـــار بـــه النعـــام إلى (النعام)[232]

والإشارات الفلكية الواردة في شعر ابن دراج كثيرة ونكتفي بما أوردناه منها .

وختاماً ، نستطيع من هذا الاستعراض للقيم التراثية التي ألَمَمْنا بنماذج منها في شعر ابن دراج أن نؤكد ما كنا ذكرناه في مطلع البحث ، وهو أن شعر ابن دراج كان حافلاً بالإشارات التراثية إلى حد نجرؤ إلى القول معه بأن قلائل من شعرائنا عبر عصورنا الأدبية كلها تمكنوا من توظيف التراث في شعرهم كما تمكن منه ابن دراج ، ولا شك أن ثراء شعر ابن دراج بالإشارات التراثية ناجم عن ثراءٍ في مخزونه التراثي وعن قدرة على استحضار ما يشاء منه في المواقف التي يود الاستشهاد عليها .

الحواشي

(1) علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص (18) .

(2) انظر محمود الربيعي : في نقد الشعر ود . علي عشري زايد استدعاء الشخصيات التراثية وماهر شفيق فريد : بحث بعنوان : أثر . ت . س أليوت في الأدب العربي الحديث — مجلة الفصول مج 1/ ع : /ص 172 .

(3) انظر استدعاء الشخصيات التراثية ص 30 .

(4) مواقع ترجمة ابن دراج كثيرة وقد استوفى معظمها محقق الديوان الدكتور محمود علي مكي في المقدمة الغنية الشاملة .

وابن دراج هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاص .... القسطلّي ، نسبة إلى قسطلّة دراج التي يُرجح الدارسون أنها تقع في غرب الأندلس ، وقد عاش ما بين سني /347-411/هـ /958-1030/م وعاصر فترة نهاية العهد الأموي التي كان يدير الأندلس فيها الحاجب المنصور العامري ثم إبناه عبد الملك وعبد الرحمن ، وكذلك فترة مطلع عصر الطوائف . وكانت صلته قوية أول أمره بالحاجب المنصور وأبنائه ، وكانت قوية بعد ذلك مع المنذر بن يحيى التجيبي وابنه يحيى في سرقسطة ، كما كانت له صلات بمعظم أصحاب الشأن والسلطان في الأندلس من امراء ووزراء وقضاة ، نذكر منهم من الأمويين المرتضى وهشام بن الحكم والمستعين ، ومن العلويين القاسم بن حمود وأخاه عليا في قرطبة وسبته ومن موالي العامريين خيران ولبيب ومبارك ومظفر .

(5) ابن بسام الشنتريني : الذخيرة /القسم الأول المجلد الأول ص - 12 .

(6) انظر سِيَر أعلام النبلاء في ترجمة محمد بن موسى الصيرفي 351/17 .

(7) الروض المعطار 480 والوفيات 135/1 والفوات 49/8 وجذوة المقتبس 117/1 .

(8) مسالك الأمصار — مخطوطة دار الكتب 11-201 (نقلاً عن مقدمة الديوان ص 77) .

(9) الذخيرة — القسم الأول — المجلد الأول — ص 61 .

(10) الديوان : 233 .

(11) انظر الآية 23 من سورة يوسف و9 من سورة القصص .

(12) انظر الآية 33 سورة (ص) .

(13) الديوان : 140 .

(14) الديوان : 238 .

(15) انظر الآيتين 23 و26 من سورة القصص والآية 63 من سورة الشعراء والآيتين 160 و161 من سورة الأعراف .

(16) الديوان : 39 .

(17) الديوان : 381 .
(18) الديوان : 130 .
(19) انظر الديوان : 160 .
(20) انظر الآية 80 من سورة هود والديوان 42 .
(21) انظر الآية 94 من سورة الكهف والديوان 72 .
(22) انظر الآية 39 من سورة آل عمران والديوان 233 .
(23) الآية 11 من سورة سبأ .
(24) الديوان : 72 .
(25) الآية : 25 من سورة الزخرف .
(26) الديوان : 76 .
(27) الآية 102 من سورة البقرة .
(28) الديوان : 9 .
(29) الديوان : 77 .
(30) الآية 43 سورة المعارج .
(31) الديوان : 198 .
(32) الديوان : 31 .
(33) الآية 19 سورة العلق .
(34) الآية 112 سورة طه .
(35) الديوان : 392 .
(36) الديوان : 227 .
(37) الديوان : 185 .
(38) الآية 18 سورة ق .
(39) الآية 9 سورة سبأ .
(40) الآية 8 سورة ق .
(41) الديوان : 396 .
(42) الآية 73 سورة الفرقان .
(43) الديوان 108 .
(44) الديوان : 49 .
(45) الآية : 1 سورة القدر .
(46) الديوان : 156 .
(47) الديوان : 48 .
(48) الآية — 13 سورة الصف .
(49) الديوان — 436 .
(50) الآية 18 سورة الفتح .

(51) الديوان : 178 .
(52) الديوان : 399 .
(53) الديوان : 64 .
(54) الآية 16 من سورة سبأ .
(55) الديوان : 13 .
(56) الآية 19 سورة الرحمن .
(57) الديوان : 60 .
(58) الآية 69 من سورة الزمر .
(59) الديوان 387 .
(60) الآية 107 سورة طه .
(61) انظر على سبيل المثال الإشارات إلى (من يتخبطه الشيطان من المس) — الآية 275 البقرة والديوان 261 (ورجوع البصر وهو حسير) (4 الملك) والديوان 133 و253 (وطوبى وحسن مآب) 29 الرعد والديوان 153 (والعسر واليسر) 6 الشرح والديوان 293 (والعروة الوثقى) 256 البقرة والديوان 75 (وإحقاق الحق) 8 الأنفال والديوان 57 (وخيرٌ ثوابا) 76 مريم والديوان 803 (وأقرب من حبل الوريد) 16 سورة ق والديوان 94 (وادخلوها بسلام آمنين) 46 الحجر والديوان 197 (ولا إلى هؤلاء ولا هؤلاء) 143 النساء والديوان 287 (والأعظم النخرة) 11 النازعات والديوان 418 (والكاتبين الحافظين) . الانفطار الديوان 53/ و319 (وبلوغ الهدي محله) 196 البقرة والديوان 187 .
(62) مسند أحمد بن حنبل 293/1 .
(63) الديوان : 341 .
(64) مسند أحمد بن حنبل : 162/1 .
(65) الديوان : 340 .
(66) الجامع الصحيح — صحيح البخاري/ ج 5 ص/187 .
(67) الديوان : 313 .
(68) انظر الاستيعاب في ترجمة الأصحاب لابن عبد البر — ج1/ ص 197 .
(69) الديوان : 325 .
(70) الديوان : 175 .
(71) الديوان : 175 .
(72) انظر قصة صلح الحديبية وفتح مكة في كتب السيرة .
(73) الديوان : 178 .
(74) انظر مختصر تفسير ابن كثير 345/3 .
(75) الديوان : 67 .
(76) الديوان : 167 .
(77) انظر البداية والنهاية لابن كثير 74/2 .
(78) انظر تاريخ الطبري — حوادث سنة 5 هـ .

(79) انظر السيرة الحلبية : 205/1 .

(80) الديوان 194 .

(81) انظر صيغة التحالف في جمهرة رسائل العرب 24/1 .

(82) الديوان : 139 .

(83) الديوان : 70 .

(84) الديوان : 219 .

(85) الديوان : 226 .

(86) انظر الديوان : 70 .

(87) انظر الديوان : 7 .

(88) انظر الديوان : 190 .

(89) انظر الديوان : 157 .

(90) انظر الديوان : 443 .

(91) انظر بشكل خاص حول (النسيئة والكالئى) ، وربطهما بالفقه وبحديث للرسول ﷺ في لسان العرب (مادة كلأ) — فالنسيئة البيع بأجل ، والكالئى بيع النسيئة بنسيئة ، وهو محرم .

(92) الديوان : 235 .

(93) الديوان : 255 .

(94) انظر القاعدة 1036 من شرح مجلة الأحكام .

(95) الديوان : 320 .

(96) انظر القاعدة 79 من شرح مجلة الأحكام .

(97) انظر أيام العرب ص 155 .

(98) الديوان : 384 .

(99) انظر الديوان : تعليق المحقق هامش ص 101 .

(100) انظر أيام العرب ص 263 .

(101) الديوان : 77 .

(102) انظر : الاسكندر الأكبر ص 61 .

(103) الديوان : ص 253 .

(104) الديوان : ص 110 .

(105) الديوان ، ص 44 ، وانظر تعليق المحقق في الهامش .

(106) الديوان ، ص 206 .

(107) الديوان ، ص 106 — والحارث الجفني هو أحد ملوك الغساسنة . وحاتم هو حاتم الطائي . وزيد الخيل هو زيد بن مهلهل من طيء . من أبطال الجاهلية وأسلمَ ، وسماه الرسول ﷺ زيد الخير . انظر الشعر والشعراء ، ص 175 . أما بَحْدل فهو بحدل بن أُنَيْف الكلبي والدميسون زوجة معاوية وجد يزيد بن معاوية وكانت له مواقف في نصرة معاوية . انظر جمهرة الأنساب ، ص 457 .

(108) الديوان ، ص 144 .

(109) الديوان ، ص 304 . (اليمانية كلها راجعة إلى قحطان ولا يصح ما بعد قحطان . انظر الجمهرة ، ص 329) . والتبابعة ملوك حمير ينسبون إلى تبع ابن صيفي بن سبأ . وعمرو لعله عمرو بن مزيقاء أحد أجداد الغساسنة . وعمران لعله ابنه عمران بن عمرو بن مُزيقاء . وثعلبة لعله ابنه الآخر ثعلبة العنقاء بن عمرو بن مُزيقاء . (انظر هامش الديوان ، ص 304) . وأبو نَوْر كنية عمرو بن مَعْد يكرب فارس قبيلة زبيد .

(110) الديوان ص 22 .

(111) انظر تاريخ الطبري : 75:3 .

(112) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، 85:1 .

(113) انظر المصدر نفسه ، 79/1 .

(114) الديوان ، ص 33 .

(115) الديوان ، ص 256 .

(116) الديوان ، ص 429 .

(117) الديوان ، ص 135 .

(118) الديوان ، ص 57 .

(119) الديوان ، ص 63 .

(120) الديوان ، ص 121 .

(121) الديوان ، ص 140 .

(122) انظر حول هذه القصور معجم البلدان 1 :155, 76, 235 . وانظر حول قصر سنداد معجم البلدان 3: 266 ، وفيه أبيات من دالية الأسود بن يعفر منها :

مـــاذا أؤمـــل بعـــد آل محرّق ... تركـــوا منـــازلهم وبعـــد إيـــاد

أهـــل الخورنـــق والسديـــر وبـــارق ... والـــقصر ذي الشرفـــات في سنـــداد

(123) الديوان ، ص 112 .

(124) الديوان ، ص 104 .

(125) ديوان امرؤ القيس ، ص 25 .

(126) الديوان ، ص 10 .

(127) ديوان امرىء القيس — المعلقة .

(128) ديوان امرىء القيس ، ص 32 .

(129) الديوان ، ص 128 .

(130) الديوان ، ص 107 .

(131) ديوان امرىء القيس ، ص 30 .

(132) الديوان ، ص 424, 425 .

(133) ديوان أبي تمام ، ص 24 .

(134) ديوان أبي تمام ، ص 26 .

(135) الديوان ، ص 306 .
(136) الديوان ، ص 131 .
(137) الديوان ، ص 133 .
(138) ديوان أبي تمام ، ص 236 .
(139) ديوان أبي تمام ، ص 462 .
(140) الديوان ، ص 460 .
(141) ديوان أبي تمام ، ص 162 .
(142) الديوان ، ص 9 .
(143) ديوان أبي تمام ، ص 236 .
(144) الديوان ، ص 212 .
(145) ديوان أبي تمام ، ص 285 .
(146) ديوان أبي تمام ، ص 285
(147) الديوان : 212 .
(148) الديوان : 1 .
(149) ديوان البحتري : 202/1 .
(150) الديوان : 343 .
(151) ديوان البحتري : 24/1 .
(152) ديوان البحتري : 24/1 .
(153) الديوان : 155 .
(154) الديوان : 357 .
(155) ديوان البحتري : 24:1 .
(156) الديوان ، ص 336 .
(157) ديوان البحتري ، 98:1 .
(158) ديوان البحتري ، 194:1 .
(159) الديوان ، ص 405 .
(160) انظر هذه الأبيات في قصيدة الحدث ديوان المتنبي ، 388:3 .
(161) الديوان ، ص 135 .
(162) الديوان ، ص 134 .
(163) الديوان ، ص 164 .
(164) الديوان ، ص 135 .
(165) الديوان ، ص 137 .
(166) ديوان المتنبي ، 253:4 .
(167) الديوان ، ص 133 .
(168) ديوان المتنبي ، 301:1 .

(169) الديوان ، ص 40 .
(170) الديوان ، ص 189 .
(171) ديوان المتنبي ، 3 .
(172) الديوان ، ص 383 .
(173) ديوان المتنبي ، 286:1 .
(174) ديوان النابغة ، ص 84 .
(175) الديوان ، ص 172 .
(176) الديوان ، ص 433 .
(177) شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ، 317:1 .
(178) الديوان ، ص 436 .
(179) ديوان الحماسة ، شرح التبريزي ، 323:1 .
(180) الديوان ، ص 202 .
(181) الحماسة ، شرح التبريزي ، 296:2 .
(182) الديوان ، ص 92 .
(183) الحماسة ، شرح التبريزي ، 61:1 .
(184) الديوان ، ص 180 .
(185) المفضليات ، ص 164 .
(186) ديوان الحطيئة ، ص 164 .
(187) الديوان ، ص 450 .
(188) مجمع الأمثال ، 19:2 والمستقصى من أمثال العرب ، 247:1 .
(189) الديبان : 271 .
(190) مجمع الأمثال 101/2 والمستقصى 198/2 .
(191) الديوان : 39 .
(192) مجمع الأمثال : 261/1 والمستقصى 93/2 .
(193) الديوان : 140 .
(194) مجمع الأمثال 27/2 والمستقصى 93/2 .
(195) الديوان : 23 .
(196) مجمع الأمثال 136/2 والمستقصى 224/2 .
(197) الديوان : 105 .
(198) الديوان : 287 .
(199) مجمع الأمثال 175/1 والمستقصى 344/2 .
(200) مجمع الأمثال 195/1 والمستقصى 64/2 .
(201) الديوان : 319 .
(202) المستقصى 183/2 .

(203) مجمع الأمثال 256/1 .
(204) المستقصى 143/2 ، والقاموس المحيط مادة (صمم) .
(205) الديوان 191 .
(206) القاموس المحيط مادة (حيد) .
(207) الديوان : 245 .
(208) مجمع الأمثال 192/2 .
(209) الديوان 186 .
(210) الديوان 29 .
(211) القاموس المحيط مادة (بلل) .
(212) الديوان 204 .
(213) القاموس المحيط مادة (هين) .
(214) الديوان 220 .
(215) مجمع الأمثال 20/1 .
(216) الديوان 382 .
(217) الديوان 182 .
(218) انظر جمهرة أنساب العرب 125 .
(219) الديوان : 105 .
(220) الديوان 57 و58 .
(221) الأزلام والأقداح : سهام كانوا يستقسمون عليها في الجاهلية ، والزلم قدح لا ريش عليه والقدح السهم قبل أن يراش وينصل والأنصاب حجارة حول الكعبة يذبح عليها لغير الله .
(222) الديوان 152 .
(223) الديوان 178 .
(224) الديوان 339 .
(225) الديوان 42 .
(226) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي .
(227) الديوان — العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة — الدَبَران : كوكب أحمر على طرف الثريا — الخوامس : الابل ترعى ثلاثة أيام ثم تورد الماء في اليوم الرابع غير الذي شربت فيه — السماكان : نجمام نيران وهما السماك الأعزل والسماك الرامح — الشعرى : نجمان : العبور وهي اليمانية والغموص أو الغميصاء ، وهي الشعرى الشامية .
(228) الديوان 353 .
(229) الديوان 178 .

ثبت المصادر والمراجع

1- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر — د . علي عشري زايد — الشركة العامة للنشر — طرابلس — ليبيا — 1978 .

2- الاستيعاب في معرفة الأصحاب — ابن عبد البر .

3- الاسكندر الأكبر — و . و . تارت — ترجمة زكي علي — سلسلة الألف كتاب — القاهرة — 1963 .

4- الأعلام — خير الدين الزركلي — ط4 — دار العلم للملايين — بيروت .

5- أيام العرب — محمد أحمد جاد المولى — المكتبة العصرية — صيدا — لبنان — د . ت .

6- البداية والنهاية — ابن كثير — دار الفكر — بيروت — 1978 .

7- تاريخ الأمم والملوك — ابن جرير الطبري — دار سويدان — بيروت — د.ت .

8- الجامع الصحيح — (صحيح البخاري) — الإمام البخاري — الطبعة المنيرية — تصوير عالم الكتب بيروت — 1985 .

9- جذوة المقتبس — الحميدي — القاهرة — 1952 .

10- جمهرة أنساب العرب — ابن حزم — دار المعارف — 1982 .

11- جمهرة رسائل العرب — أحمد زكي صفوت — القاهرة — 1937 .

12- ديوان ابن دراج — تحقيق محمود علي مكي — المكتب الإسلامي — بيروت .

13- ديوان أبي تمام — دار الكتاب اللبناني — بيروت 1981 .

14- ديوان امرىء القيس — تحقيق (أبو الفضل إبراهيم) — دار المعارف — القاهرة — 1984 .

15- ديوان البحتري — دار بيروت — 1982 .

16- ديوان الحطيئة — شرح ابن سعيد السكري — دار صادر — بيروت — 1967 .

17- ديوان الحماسة — شرح التبريزي — دار القلم — بيروت — د.ت .

18- ديوان المتنبي — شرح العكبري — دار المعرفة — بيروت — د.ت .
19- ديوان النابغة الذبياني — شرح عباس عبد الساتر — دار الكتب العلمية — بيروت — 1984 .
20- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة — ابن بسام الشنتريني — تحقيق د . إحسان عباس — دار الثقافة — بيروت — 1979 .
21- الروض المعطار — الحميري — دار لبنان — بيروت .
22- سير أعلام النبلاء — الذهبي — مؤسسة الرسالة — بيروت .
23- السيرة الحلبية — الحلبي — دار المعرفة — بيروت — د.ت .
24- شرح القصائد العشر — الخطيب التبريزي — دار الكتب العلمية — بيروت — 1985 .
25- شرح القصائد المشهورات — ابن النحاس — دار الكتب العلمية — بيروت — 1985 .
26- شرح المعلقات السبع — التبريزي — دار بيروت — بيروت — 1986 .
27- شرح مقامات الحريري — الشرشي — دار الكتب العلمية — بيروت — 1978 .
28- الشعر والشعراء — ابن قتيبة — دار الكتب العلمية — بيروت — د.ت .
29- الطبقات الكبرى — ابن سعد — دار الفكر — بيروت — 1985 .
30- فوات الوفيات — ابن شاكر — تحقيق محمد محيي الدين — القاهرة — 1951 .
31- في نقد الشعر — د . محمود الربيعي — دار المعارف — القاهرة — 1977 .
32- القرآن الكريم .
33- القاموس المحيط — الفيروزأبادي .
34- لسان العرب — ابن منظور .
35- مجلة الأحكام الشرعية — بيروت — 1923 .
36- مجمع الأمثال — الميداني — التجارية الكبرى — القاهرة — 1959 .
37- مختصر تفسير ابن كثير — محمد علي الصابوني — دار القرآن الكريم — بيروت — 1981 .

38- المستقصى من أمثال العرب — الزمخشري .
39- مسند أحمد بن حنبل — مجموعة الكتب الستة — استانبول — 1982 .
40- مفاتيح العلوم — الخوارزمي — الكليات الأزهرية — القاهرة 1981 .
41- المفضليات — المفضل الضبي — تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون — القاهرة — 1983 .
42- معجم البلدان — ياقوت الحموي — بيروت — د.ت .
43- وفيات الأعيان — ابن خلكان — تحقيق إحسان عباس — دار الثقافة — بيروت .
44- مجلة الفصول — القاهرة .